رينيه موريس

كردستان أو الموت

مع الكرد في حرب من اجل البقاء ـ البارزاني الزعيم الاسطوري لشعب يابى الاستكانة والخضوع. هناك مؤامرة صمت غريبة حول هذه الدراما.

ترجمة وتعليق

جرجيس فتح الله

المحامي

دراسة وتحليل

جواد ملا

مطبوعات كردولوجيا رقم ٣ ـ ١٩٨٦

Georgis Fat-Hullah Rene Mauries Jawad Mella

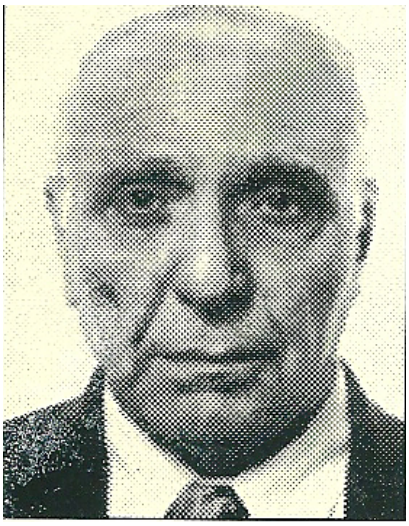

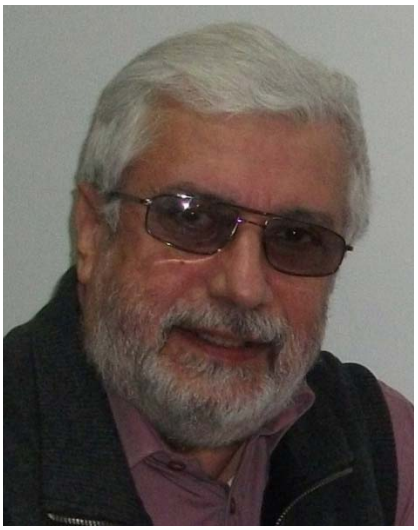

Dr Jawad Mella
Telephone: 00442087487874, Mobile: 00447768266005
e-mail: wka@knc.org.uk , www.knc.org.uk

رينيه موريس

كردستان أو الموت

مع الكرد في حرب من اجل البقاء ـ البارزاني الزعيم الاسطوري لشعب يأبى الاستكانة والخضوع. هناك مؤامرة صمت غريبة حول هذه الدراما.

ترجمة وتعليق
جرجيس فتح الله
المحامي

دراسة وتحليل
جواد ملا

مطبوعات كردولوجيا رقم ٣ ـ ١٩٨٦

محتويات الكتاب

	دراسة وتحليل	٣
	مقدمة المترجم	١٤
الفصل الاول	بلاد بلا حدود	١٨
الفصل الثاني	موريتوري ملاعب الجبال	٢٣
الفصل الثالث	شعب نسيه التاريخ	٣٨
الفصل الرابع	انها لتشعر بالموت....!!	٥٥
الفصل الخامس	مذابح السكان المدنيين	٧٣
الفصل السادس	أبناء نينوى	٩٠
الفصل السابع	يوم القيامة	١٠٧
الفصل الثامن	آخر السادة العظام	١٣٠
الفصل التاسع	العدل والاحسان	١٤٠

دراسة وتحليل

لقد قمت بالمساهمة باخراج الطبعة العربية من هذا الكتاب الذي يصور مرحلة هامة ومعقدة من مراحل تاريخنا المعاصر ونظراً لكون مؤلفه فرنسياً وليس كردياً اكتسب صفة الشاهد الحيادي وبدون تحيز من أجل الحق الكردي المسلوب.

لذا ارتايت كتابة هذه الكلمة الموجزة في مقدمة الكتاب كدراسة وتحليل للاحداث الحاوية على كثير من النقاط الايجابية والسلبية.

الا انها مع كل سلبياتها تبقى جزءاً من تاريخنا النضالي المسلح من أجل السيادة الوطنية الكردية.

وبما ان هذا الكتاب يتطرق بشكل رئيسي للأحداث الدرامية التي جرت ـ وماتزال ـ في كردستان الجنوبية (كردستان العراق) ساعمد الى معالجة مسالة تحرير كردستان والشعب الكردي كله من خلالها، كمثال ربما تنطبق حالاته على مجمل الحركة التحررية الكردية في جميع انحاء كردستان.

لابد للدخول في هذا البحث من شرح اسباب تعثر الحركة التحررية الكردية مستمداً تلك الاسباب من تجارب شعبنا المريرة والغزيرة، ومن تجربتي المتواضعة ضمن الحركة التحررية الكردية خلال العقدين الماضيين، آخذاً احداث الفترة الزمنية لتاليف الكتاب منطلقاً لهذه الدراسة.

بعد حل الخلاف الناشب بين المكتب السياسي للحزب الديمقراطي الكردستاني وقيادة ملا مصطفى البارزاني يعود المكتب السياسي من ايران الى صفوف الثورة مرة ثانية في أواسط عام ١٩٦٥ حيث استقرت قيادتهم في (دوله ره قه) الى جانب مقر ملا مصطفى الذي انسحب الى ديلمان اثر احتلال الجيش العراقي لـ (رانية وقلعة دزه) الا ان المكتب السياسي لم يرافقه وانما اتخذ من (دولي نيو ده شت) خلف (دوله ره قه) مقراً له بعيداً عن مقر ملا مصطفى بسبب فتور العلاقات فيما بينهم.

كان ذلك حال القيادات الكردية من الخلاف والتنازع على الزعامة وقبل أن يكون الشعب الكردي وكردستان شيئا مذكوراً.

اما الحكومة العراقية فقد كانت تحتوي اتجاهين ولكنهما متفقان على هدف واحد الا وهو ضرب الحركة التحررية الكردية مع اختلافهما في التطبيق، هذا الاختلاف لم يمنعهما من التعاون على عكس ماحدث في خلافات قيادات الحركة التحررية الكردية.

فالأتجاه الأول في الحكومة العراقية كان يقوده الجنرال عبد العزيز العقيلي ويؤمن بالحل العسكري لأنهاء التواجد الكردي، والأتجاه الثاني بقيادة رئيس الوزارة العراقية (عبد الرحمن البزاز) الذي كان يشارك العقيلي هدفه العنصري في

خنق التلطعات الوطنية الكردية. هذين الاتجاهين الحكوميين قاما بتوزيع الادوار فيما بينهما بذكاء ميكافيلي خبيث للايقاع بالثورة الكردية وقياداتها في فخاخهم العسكرية والسياسية.

فبدأ (البزاز) اتصالاته بالمكتب السياسي للحزب الديمقراطي الكردستاني مستغلاً توتر علاقاته مع قيادة ملا مصطفى البارزاني القائد العام للثورة الكردية.

وحينما علم ملا مصطفى بذلك طلب من المكتب السياسي المثول امامه ولكن اعضاء المكتب السياسي بدل الاستجابة لطلبه هربوا من (دوله نيو ده شت) الى سورداش ومن هناك الى بغداد بعد اقل من عام لعودتهم من هروبهم الأول الى ايران.

وهكذا نجح (البزاز) في تحقيق الخطوة الاولى من مخططه سياسياً بعزل المكتب السياسي وانصاره الذين كانوا يتمتعون بقدر من المعارف والثقافة مما جعل ملا مصطفى أن يقول: إذا حصلنا على الحكم الذاتي فليس لدينا من المثقفين من يستطيع ادارته وذلك بعد انسحاب معظم المثقفين من صفوف الثورة مع المكتب السياسي.

أما الاتجاه العسكري بقيادة العقيلي فلم يكن لديه أي استعداد ليجلس مع اي كان من ابناء الشعب الكردي لمجرد كونهم أكراداً ويتكلمون اللغة الكردية بعنصرية غير منقوصة، لذلك كان الاتجاه العسكري ماض في التخطيط لعملية عسكرية كبيرة ولكن برد وثلوج كردستان اخرت عمليتهم الى الربيع وبالضبط قرروا الهجوم على مواقع الثورة في اواسط نيسان إلّا أن مقتل رئيس الجمهورية العراقية عبد السلام عارف في ١٣ ـ ٤ ـ ١٩٦٦ اثر سقوط طائرته بمنطقة البصرة اجّل تنفيذ الهجوم الى ٢ ـ ٥ ـ ١٩٦٦ ذلك الهجوم الذي شاهده مؤلف هذا الكتاب رينيه موريس بأم عينيه،ذلك الهجوم الذي شارك فيه أكثر من خمسة وثلاثين الف عسكري عراقي مجهزين بأحدث الاسلحة الهجومية من آليات ومدفعية وطيران متخذين من جبلي زوزك وهندرين هدفاً لهم باعتبارهما من اهم النقاط الهامة على جانبي طريق (هاملتون) الاستراتيجي الممتد عبر كردستان من مدينة هه ولير (اربيل) حتى حاج عمران على الحدود الدولية فيما بين العراق وايران.

وما كان هذا الهجوم إلا حلقة من هجمات عديدة سابقة ولاحقة لان السيطرة على هذا الطريق يعني احتلال كردستان لأنه يشطر كردستان العراق الى شطرين ويعزل اقليم صوران عن أقليم بادينان الكرديين فيما إذا وقع بأيدي الحكومة العراقية.

لذا قام قائد البيشمركه في جبل هندرين البطل الكردي (فاخر محمد ميركه سور) في وضع وتنفيذ خطة الهجوم الكردي المعاكس لرد العدوان العراقي بالقوة التي تحت امرته حيث لم تكن تتجاوز الثلاثة آلاف وخمسمائة بيشمركه فقط وكما قال رينيه (بمشاهد ووقائع تفوق الخيال) ألحق البيشمركه الأبطال هزيمة منكرة بالجيش العراقي خلال الهجوم الكردي المعاكس الذي استغرق تنفيذه مائة وثمانين دقيقة فقط.

لقد كانت النسبة العددية واحد الى عشرة كما إن النسبة التسليحية والتكنيكية العسكرية أكثر بكثير من ذلك.

اثر هزيمة العسكريين الساحقة في هندرين، استلم (البزاز) دوره من العقيلي بالتناوب وباشر بتنفيذ الخطوة الثانية من مخططه، بتحريضه المكتب السياسي ضد قيادة ملا مصطفى البارزاني سياسياً وعسكرياً وتحقق له ماأراد ونجح بما فشل به الجناح العسكري باشتباكات عديدة وعنيفة كردية ـ كردية الهدف منها تمييع القضية والحصول على تنازلات كردية حين ياتي دور المفاوضات.

وبذلك جاء دور اذاعة بيان (البزاز) المهلهل والتافه حول الحقوق القومية للشعب الكردي في ٢٩ حزيران ١٩٦٦ على انه إذا مارفضه ملا مصطفى فهناك من يقبله اي المكتب السياسي، وبذلك تكون بداية النهاية لخنق الحركة التحررية الكردية. إلّا ان ملا مصطفى خيّب املهم ووافق على البيان، وبموافقته تلك لم يخلق بلبلة وفوضى بين جماعة المكتب السياسي فحسب بل وفي صفوف الحكم العراقي أيضاً.

كل ذي بصيرة يلاحظ ان ما اعلنه البزاز في حل القضية الكردية سياسياً. لايختلف بشيء عن ماقام به العقيلي وجماعته عسكرياً من حيث النتيجة والهدف وإن اختلفوا بالشكل والأسلوب.

تلك النتيجة التي يرغبونها هي القضاء التام على الشعب الكردي بالحديد والنار او صرف الأمكانيات والطاقات على زرع الشقاق والخلاف بدل شراء الطائرات والدبابات.

كان ذلك وضع وحال قادة الثورة المنشقين على بعضهم بدون سبب من جهة وتضحيات الشعب الكردي التي لاتقدر بثمن ترافقها بطولات خارقة لقوات البيشمركه يعجز عنها الوصف من جهة ثانية.

كما ان انهيار الثورة عام ١٩٧٥ ادى الى تفشي ظاهرة توالد الاحزاب المتناحرة الى درجة اصبح بعضهم يشرب دم اخيه الكردي لسبب مبهم مجهول حتى على اعظم السياسيين ومحللي الاحداث، إن مناهج هذه الأحزاب من حيث المضمون واحدة بمطالبتهم بالحكم الذاتي لكردستان وبالديمقراطية للعراق او لغيره وبرفعهم الشعارات الماركسية، كما أن انصارهم من طينة واحدة وشعبهم واحد ووطنهم كذلك وتاريخهم مشترك وحاضرهم يتعرض كما ، ماضيهم للهجمات الاستعمارية العنصرية الشرسة، ولا يخف عن اي عاقل من ان مصير الأمة الكردية واحد أيضاً شئنا ذلك ام ابينا فالهزيمة التي تلحق بأي حزب كردي هي هزيمة للأمة الكردية كلها فلا ينخدع احد بانه اذا ساعد مستعمري كردستان في القضاء على حزب كردي آخر سيكون آمناً من التصفية بعد انتهاء مهمته اللاسامية. ولنا تجارب كثيرة في هذا المجال والجميع ـ وخاصة القيادات ـ يعرفونها جيداً.

ان ماحدث من تدهور في أوضاع الثورة الكردية وانهيارها مع كل ماتملك من امكانيات يعود الى وجود خلل في الطروحات السياسية ولم يكن السبب في التقصير بأداء الواجبات أبداً وألخص نقاط الضعف والخلل والانحراف في الطروحات السياسية الكردية التي ادت الى تلك الانهيارات بما يلي:

اولاً ـ الاقليمية:

إن معالجة القضية الكردية ضمن صيغة عراقية أو ايرانية أو تركية أو سورية هو خروج عن (الكوردايه تي) وعن مضمون الحركة التحررية الكردية بل هو تثبيت للحدود المصطنعة التي أوجدها الأستعمار فيما بعد الحرب العالمية الأولى والتي بموجبها تم فصل أجزاء كردستان عن بعضها البعض وضم كل جزء لدولة مصطنعة مجاورة.

ومالحكم الذاتي إلّا العمود الفقري للطرح الأقليمي الماسخ لحق تقرير المصير، الحق الطبيعي للأمة الكردية في تشكيل دولتها المستقلة أسوة بامم الأرض ومن اجل الأستزادة حول خلفيات الحكم الذاتي مراجعة ماكتبه الدكتور جمال نبز والدكتور عصمت شريف وانلي بالاضافة الى كتابي (كردستان وطن وشعب بدون دولة).

ثانيا ـ الديمقراطية:

إن الاحزاب والمنظمات الكردية تنادي بالديمقراطية وتعمل بعكس مضمونها فالتسلط والفردية والأقليمية والعشائرية والولاءات بجميع انواعها منتشرة الاّ الديمقراطية فهي معدومة ضمن كل منظمة او بين اي منظمة واخرى. ولا وجود إطلاقاً لأي نوع من الديمقراطية في التعامل مع الجماهير الكردية.

إلّا ان كافة المنظمات والاحزاب الكردية يطالبون الحكومات المستعمرة لكردستان أن تكون ديمقراطية لا بل يرفعون السلاح ويقاتلون ويضحون بافضل ماعندهم من الشباب الكردي من أجل اسقاط النظم الديكتاتورية ليحل محلها نظاماً أكثر ديكتاتورية من سلفه إذ من يعتقد أن مسعود رجوي يتفهم القضية الكردية اكثر من خميني؟ أم باقر حكيم اكثر ديمقراطية من صدام؟.

فهؤلاء الذين يطالبون بالنظام الديمقراطي لو القوا نظرة على الاحزاب العراقية مثلاً لوجدوا شعار الديمقراطية مستحيل التطبيق لأن الاحزاب العراقية المرشحة لأستلام السلطة هي احزاب دينية او قومية عربية او ماركسية واي أتجاه من هذه الاتجاهات الثلاثة لن يرض بمشاركة احد ما لهم الحكم فيما اذا استلم زمام السلطة وسيفرض مبادئه على الجميع وسوف تتبخر برامجهم ووعودهم حينما يتربعون على عرش بغداد. وللحركة التحررية الكردية تجارب كثيرة مع برامج أحزاب المعارضة العراقية، ولعل المسؤولين في قيادة الثورة يتذكرون اقتراح صدام حسين باسم حزب البعث العربي الاشتراكي على قيادة الثورة حينما كان في صفوف المعارضة والمتضمن وضع دستور عراقي لدولة فيدرالية عربية ـ كردية ولكن ما ان استلم البعث السلطة في بغداد حتى ضاعت وعودهم وبنود دستورهم... إن حدوث

ذلك طبيعي لأن ماتسعى اليه المنظمات الكردية ليس هو العلاج السليم ولأن القضية الكردية ماهي إلاّ قضية شعب ووطن بدون دولة قبل كل شيء وبالتالي القضية الكردية ليست اسقاط نظام حكم واستبداله بغيره أبداً.

ثالثا ـ الوهم:

يتوهم العاملون من أجل الحكم الذاتي ويوهمون شعبهم بأننا لانستطيع الحصول على الحكم الذاتي فكيف لنا أن نطالب بدولة ـ وحجتهم بذلك الخوف من تعاون الدول الأربعة المستعمرة لكردستان في ضرب الثورة إذا ما طالبت الحركة التحررية الكردية بدولة مستقلة إلاّ أن الدول المستعمرة لكردستان متضامنة على ضرب الشعب ا لكردي وحركته التحررية في جميع الاحوال اكانت مطاليب الثورة الكردية حكم ذاتي أم دولة كردية. واضح ذلك التعاون في العشرات من الأتفاقيات السرية والعلنية فيما بينهم ومن اشهرها:ـ

معاهدة سعد آباد عام ١٩٣٦ وحلف بغداد عام ١٩٥٥ واتفاقية الجزائر ١٩٧٥.

ايها الاقليميون لن تتخلصوا من الوهم حتى تجيبوا على هذه الأسئلة:

لماذا تباركون اتفاق مستعمري كردستان ولاتسمحون بأتفاق وتوحيد جهود الامة الكردية؟

بل لماذا تساعدوهم بذلك على قتل وخنق شعبنا جزءاً جزءاً وبشكل اتوماتيكي تثبتون الحدود الظالمة التي فصلت اقاليم كردستاننا في زرعكم للأفكار الأقليمية في اذهان الشبيبة الكردية؟

رابعاً ـ رفاق المستعمرين:

احد النقاط الهامة والاساسية في انهيار الثورات الكردية هـو تلقيها المساعدات من واحد أو أكثر من مستعمري كردستان لضرب واحد وأكثر من المستعمرين الآخرين وحين انتهاء مصلحة المستعمرين في تقديم المساعدة يتم الاتفاق فيما بينهم لقمع الثورة كما حدث في اتفاقية الجزائر بين شاه ايران وصدام العراق عام ١٩٧٥، وسنشاهد مثيلها حتماً فيما إذا استمرت الحركة التحررية الكردية على نهجها السابق.

إذ اني لم ار في صفحات التاريخ دولة مستعمرة تدفع المال والسلاح لشعب يرزح تحت نيرها وتقول له خذ هذا كله وحرر نفسك!!! كما هو الحال الآن في حركة شعبنا الكردي التحررية...!!

اذ يتلقى البعض المساعدات من سورية وايران لمحاربة العراق وثورة شعبنا في كردستان الايرانية!! وبعضهم يتلقى المساعدات من العراق لمحاربة ايران وسورية وثورة شعبنا في كردستان العراقية!!

نعم وكل واحد منهم يظن نفسه الحق والصواب وبيده كل المبررات لقتل اخيه الكردي في الاقليم المجاور من اجل دارهم معدودة أم غير معدودة!!.

خامساً ـ غياب فكرة الامن القومي الكردي:

وحتى مجرد البحث في مستقبل الشعب الكردي ولاأحد يسأل وما السبيل الى رد العدوان؟

إلاَّ أن النقاشات البيزنطية دائرة باستمرار للحفاظ على الزعامة الشخصية والمنافع الذاتية والسباق على قدم وساق من أجل الأ تصال مع هذه السفارة او تلك الحكومة لملىء جيوبهم. على حساب دماء الشهداء التي تراق بلا حساب وبلا سبب.

والنشاطات القومية محصورة في مجموعة من ردود الفعل على المؤامرات العنصرية، هذه الردود مع الاسف هي ايضاً دون المستوى المطلوب بكثير.

هذه كانت ـ وماتزال ـ نقاط الخطأ والخلل في طروحات الحركة التحررية الكردية وصدق (رينيه) في كتابه هذا حينما قال: (بالتاكيد إن الكرد لم يخططوا لتحقيق حلمهم بالأستقلال وإن كان ذلك مطمحهم الاخير).

نعم إن الحركة التحررية الكردية لم تخطط لتحقيق استقلال كردستان فحسب بل كانت تنهج ـ بدون عمد ـ نهج مستعمري كردستان بطرحهم لنظريات وفلسفات بعيدة كل البعد عن مضمون الاستقلال.

وبهذا كانت القيادات السياسية الكردية في واد والجماهير الشعبية وفي مقدمتهم البيشمركه الأبطال في واد آخر وليس أدل على ما أقول إلاَّ تلك الصورة التي نقلها رينيه في كتابه هذا ابتداءاً من العنوان (كردستان يانه مان : كردستان أو الموت) الذي كان شعار البيشمركه على الدوام ويعني الموت في سبيل كردستان مستقل هذا الشعار الخالد البعيد كل البعد عن مطاليب القيادات الكردية كما هو واضح من مفاوضاتها مع الحكومات العراقية اذ لم نجد أي بند من بنود جميع الاتفاقيات والمفاوضات المقدمة من القيادات الكردية تمتّ بصلة بشعارات البيشمركه، ولم تكن تعني تلك المفاوضات إلاَّ إن كل من استشهد وسيستشهد من مناضلي كردستان ليس من أجل كردستان حر ومستقل بل من أجل أن تكون كردستان مستعمرة تابعة لسلطة بغداد كما كانت من قبل وعلى ايدي من يدَّعون النضال القومي وباسم الحركة التحررية الكردية!!

والحق يقال إن شعار (كردستان يانه مان) الملهب لحماس البيشمركه هو الذي حقق كافة الانتصارات وفي مقدمتهم انتصارات سفين وهندرين كما ان طروحات ومفاوضات القيادات السياسية الكردية حققت الهزائم والأنهيارات السياسية والعسكرية. إذ إن التضحية بالروح الانسانية في كردستان كانت في سبيل تحرير كردستان ولم تكن تلك التضحية وتلك البطولات من اجل فتات الحقوق أبداً التي كان الشعب الكردي يتمتع بها قبل قيام الثورة في العام ١٩٦١، إن هذه التضحيات الباهظة الثمن لم تكن من أجل مسائل مادية محدودة أبداً، انها من أجل شرف وكرامة الأمة الكردية والسيادة الوطنية أولاً وأخيراً.

لم ينقل لنا (رينيه) عنوان الكتاب فقط بل كانت عناوين الفصول اشد تعبيراً ووقعاً في تصوير الواقع تماماً في اختياره لتلك العناوين (بلاد بلا حدود) و (شعب نسيه التاريخ)...

وليس ابلغ من سؤاله اطفال الكرد عن اسمائهم والتي كانت (رزگار) و (آزاد) و (خبات) اي تحرير وحرونضال ولم ير اي طفل كردي أسمه اوتونومي أو حكم ذاتي ناقص كان ام حقيقي!!

وهل يعلم (رينيه) والعالم إن هذه البلاد التي بلا حدود قد استولى البيشمركه الأبطال فيها على مئة دبابة امريكية من نوع (سنتريون) في هجوم واحد على معسكر (مهاباد) في كردستان الايرانية أبّان انهيار نظام شاه ايران، وبدلاً من أن تقوم قيادة الثورة في تلك الفرصة الذهبية ـ التي لم يشاهد الشعب الكردي مثيلاً لها منذ نهاية الحرب العالمية الاولى اثر انهيار الأمبرطورية العثمانية ـ لأعلان الدولة الكردية وحماية حدودها بتلك الدبابات، الّا ان القيادة الكردية في كردستان الشرقية قامت بتسليم هذه الدبابات الى الحكومة العراقية والتي بدورها اهدتها الى حكومة الاردن لامتلاكها نفس النوع من الدبابات ولاعجب هذا الشعب الكردي الذي بحاجة الى كل شيء يقوم قادته بتقديم الهدايا الى الحكومات المجاورة المدفوعة الثمن من دماء البيشمركه الميامين.

وأخيراً وليس آخراً اريد ان اوضح حقيقة اخرى ودليلاً اضافياً مايزال ماثلاً على ما اقول:

لم يعد احد مهما بلغ به الجهل لايعلم أن نظام صدام حسين وخميني ايران قد ارتكبوا الجرائم العديدة بحق الشعب الكردي في كلا الطرفين من كردستان (الايرانية والعراقية).

إلّا أن النظامين المعاديين للامة الكردية يعبّرون عن رضاهم عملياً عن القيادات الكردية في اكثر من صورة موضحاً احداها بما يلي:

لقد امر صدام حسين ومايزال يامر طائراته بقصف طهران والمواقع الايرانية محلقين فوق مقرات قيادات المنظمات الكردية المسلحة المناوئة له والمتواجدة على الحدود العراقية ـ الايرانية ولكنه لم يأمرها بقصف تلك المقرات أبداً.

وكذلك لقد امر الخميني ومايزال يامر طائراته بقصف العديد من المدن في العمق العراقي وبطبيعة الحال محلقين فوق مقرات قيادات نظمات الكردية المسلحة المناوئة له والمتواجدة على الحدود العراقية ـ الايرانية ايضاً وبدون أن يوجه الأمر لهم بقصف تلك المقرات ابداً.

وذلك لأن صدام مطمئن من عدم نجاح اية ثورة كردية في العراق تعيش على مساعدات الخميني المعادي للأ مة الكردية في كردستان ايران.

وكذلك ايضاً الخميني مطمئن من عدم نجاح اية ثورة كردية في ايران تعيش على مساعدات صدام المعادي للأمة الكردية في كردستان العراق.

لذلك فإن صدام وخميني لن يأمرا بقصف مقرات قيادات المنظمات الكردية المعارضة لهم ولن يعملا على تصفيتهم كقيادات وذلك خوفاً من ظهور قيادات كردية حقيقية بدلاً عنهم تستند في نضالها الى الجماهير وترفع شعار (كردستان يانه مان = كردستان او الموت) بشكل عملي وليس لفظي كما كان، وتمحو والى الأبد من ذهن (رينيه) أن كردستان بلاد بلا حدود او ان الشعب الكردي نسيه التاريخ.

ان انتشار الافكار الأقليمية والوهم وتلقي المساعدات من مستعمري كردستان بالاضافة الى غياب فكرة الامن القومي الكردي او حتى مجرد التفكير بمستقبل الشعب الكردي كانوا من المسائل الأساسية التي ادت الى ثلاث حالات من اخطر ماواجهته الحركة التحررية الكردية لحد الآن، وهي:

اولا: اقتتال الاخوة، تلك الجريمة الكبرى التي لاتغتفر.

ولم يكن ذلك ليحدث لولا ان بعض قادة المنظمات الكردية ينفذون تعليمات مستعمري كردستان الذين لايدفعون الدراهم والسلاح لهم الا بعد ان يحصلوا على قيمته من دماء شعبنا الكردي، ويقول هؤلاء الذين يبيعون دماء شعبهم بقليل او كثير مبررين عمالتهم مفتخرين بذكائهم الخارق بقولهم انهم يستغلون تلك الحكومات!! مع العلم ان اي حكومة اكبر واقوى منهم... والاستغلال ما هو الا عملية «بلع» فالكبير والقوي يستغل الصغير والضعيف اذ من المستحيل ان تبتلع سمكة صغيرة سمكة اكبر منها وانما العكس هو الصحيح.

فتقوم بعض الاحزاب الكردية بتحرير كردستان على حساب بعض الحكومات المستعمرة من ايدي بعض الاحزاب الكردية الاخرى التي تعمل لصالح مستعمر اخر وحتى تتم عملية التحرير هذه!! يقتلون الكردي فقط وبوجه خاص البيشمركه الابطال.

في ١ ايار ١٩٨٣ حينما كنت بكردستان الجنوبية «كردستان العراق» وبالتحديد في جبال قنديل قامت قوات البيشمركه من الاتحاد الوطني الكردستاني وحلفائهم بالهجوم على مقرات الحزب الديمقراطي الكردستاني وحلفائهم لتحرير جبال قنديل منهم! وبذلك الهجوم فقدت الاحزاب مئات القتلى والجرحى والاسرى ايضاً...

وخلال صيف ذلك العام شن الحزب الديمقراطي الكردستاني وحلفائه الهجوم المعاكس لاسترداد قنديل وتحريره من الاتحاد الوطني!! وجرت معارك دامية بين الطرفين ذهب ضحيتها مئات اخرى من البيشمركه ايضاً وكان من ضمن الضحايا اثنين من قادة الهيزات في ثورة ايلول ١٩٦١ وهم حسو ميرخان ژاژوكي ضمن قوات الحزب الديمقراطي الكردستاني وناظم حمه سليمان ضمن قوات الاتحاد الوطني الكردستاني، نعم هذين القائدين اللذين كانا في خندق واحد بين ١٩٦١ ـ ١٩٧٥ اصبحا في هذا الزمن اعداء وماهم بالاعداء بل يعود الفضل لعداوتهم وقتلهم الى قياداتهم التي تعيش وترتزق على حساب دمائهم... وما ذلك الا حلقة من سلسلة دامية مريرة هدفها تصفية الثورة الكردية والثوار الكرد بطريقة جديدة متمثلة

بتجنيد بعض الاكراد على الاخرين بعد ان فشل المستعمرون في تحقيق اي نصر عليهم وجها لوجه.

ثانياً: استنزاف الطاقات الكردية.

بالاضافة الى قتل الكردي بيد الكردي هناك استنزاف اخر ومن نوع خفي وهو هدر طاقة التحمل والاستمرار في حمل السلاح ففي بداية العام ١٩٨٤ حينما كنت اتحدث مع مجموعة من ا لپيشمركه قال لي احدهم:

ـ لقد كان والدي پيشمركه وأبني ايضاً ولا أعلم الى أي جيل ستبقى ثورتنا قائمة وبدون ان تحرز النصر؟

نعم هذه الطاقة العظيمة تتعرض في كثير من الاحيان الى الانهيار لغياب فكرة التحرير والامل في الخلاص من حالة الاستعمار والتبعية بالاضافة الى قتل الكردي وصرف طاقات المقاتلين بدون نتيجة تذكر، بل هناك طاقة اكبر واوسع كامنة بين الجماهير الكردية يتم هدرها ايضاً، واذكر مثالاً شاهدته في سهل «شهر زور» بكردستان الجنوبية «كردستان العراق» اذ تقوم مفارز الپيشمركه للمنظمات الكردية العديدة بالتجول في سهل «شهر زور» الذي يضم مئات القرى الكردية، وعند حلول احدى المفارز في احدى القرى يتم تزويد المفرزة بالطعام والاقامة لعدة ايام ليتم توديعهم بعد ذلك لاستقبال مفارز اخرى. وهكذا تستقبل الجماهير الكردية الثوار الكرد وترعاهم منذ عشرات السنين بتضحية ونكران للذات قد لا نجد مثيلاً لهما في مجتمعات اخرى.

هذه الطاقات غير المحدودة تقوم القيادات الكردية بهدرها عن علم وسبق اصرار ومتجاهلين حق الشعب الكردي في الحرية والاستقلال بل تسعى تلك القيادات الى خلق نزاعات جانبية ضمن دوامة سياسية انتهازية لا نهاية لها، والكثير منهم يتفاخر بقتل پيشمركه ينتمي لحزب آخر او بانتمائه الى اقليمية ضيقة. ولو كانت القيادات الكردية متضامنة وتسعى لتحرير كردستان بدون لف او دوران لما وجدنا اي كردي خارج كردستان ولما وجدنا كردي واحد خارج معركة التحرير ابداً، وليس ادل على ما اقول رفض اكثر من «٦٠ الف» شاب كردي المشاركة في قادسية صدام وهروبهم الى جبال كردستان واقامتهم في القرى الواقعة تحت سلطة قوات الپيشمركه ورفضهم الانتماء لها لعدم توفر الثقة بقياداتها.

ثالثاً: تفشي ظاهرة المرتزقة بشكل غزير...

هذه الظاهرة متواجدة في كل الثورات الا انها في ثورتنا كانت اكثر انتشاراً بسبب الطرح السياسي الخاطىء للقضية الكردية والمتمثل بفكرة الحكم الذاتي لكردستان، هذه الفكرة تعني ـ في حال تطبيقها ـ الأستمرار في ابقاء كردستان تابعة لاوطان الغير، هذا الالحاق والمناداة به قد اثر تأثيراً سلبياً في معنويات الپيشمركه الذين اصبحوا على يقين انهم اذا انتصروا وحققوا الحكم الذاتي فلن يكونوا اكثر من تابعين لاحدى العواصم المجاورة كما كانوا من قبل.

لذا كانت ظاهرة انهيار البيشمركه واستسلامهم للسلطات الحكومية المستعمرة لكردستان متفشية نتيجة لتحليل بسيط قاموا به متمثلاً بالسؤال التالي:

لماذا اعرض نفسي وعائلتي واهدر كل ما املك من اجل ان ياتي فلان من القادة يتفاوض مع السلطات الحكومية ويقدم لهم البيشمركه والشعب الكردي وكردستان لقمة سائغة باستسلام جماعي؟

كان تحليله بما أن النهاية استسلام جماعي فقد قرر البيشمركه الاستسلام افرادياً: وهو الامر الصادر عن قيادة الثورة عام ١٩٧٥ بالاستسلام لايران او العراق.

وللاسباب الانفة الذكر تفشت هذه الظاهرة وغيرها من الظواهر السلبية في المجتمع الكردي، ولم تكن وليدة الخيانة الوطنية ابداً ولو كانت الحركة الوطنية الكردية التحررية تطالب بدولة كردية ووضع الحدود السياسية لكردستان وقطع جميع انواع التبعية للغير لما كان في كردستان كردياً واحداً يضع ثقته بالحكومات المستعمرة لوطنه على الاطلاق.

أمام هذه الحالة اللاطبيعية والأنهيار المستمر لابد من دراسة شاملة وسريعة للطروحات والممارسات النضالية، حتى لانجني أسوأ كارثة عرفها التاريخ، إذ ان كثيراً من الأمم الكبيرة زالت واندثرت ولم يعد منها الاّ النذر اليسير في المتاحف من سوء تصرف وتدبير قادتهم في حل معضلات شعوبهم واوطانهم،... حيث أشار اليها (رينيه) في كتابه هذا بالعبارة التالية: (قد يضيق الخناق عليهم يوماً ما ويدفع الاحياء منهم حتى يحصروا بين جبالهم الجميلة، وتؤخذ اليهم جماعات من السياح في نزهة مبرمجة، فيشار الى الكرد لهم بالقول: «هؤلاء هم الكرد... البقية الباقية منهم...»).!!

وأختتم كلمتي هذه مذكراً بالمعاناة المريرة لشعبنا الكردي خلال هذا القرن بتعرضه للمذابح والقتل العام والتهجير والسجن والتعذيب بسبب العنصرية المقيتة التي يتحلى ويفتخر بها مستعمري كردستان.

ولايسعني أمام هذه القوافل من الآلام إلاّ أن اقول لجماهيرنا المخلصة البطلة لينتفضوا في وجه المتاجرين والمستعمرين على حد سواء ويقولوا لهم بصوت واحد:

الا يكفي قتل مئات الالوف من الأكرا د...

الا يكفي تدمير آلاف القرى في كردستان...

الايكفي اعتقال وتعذيب الكردي لكونه كردياً فقط...

الايكفي كل هذا لنكون يداً بيد...

الايكفي هذا لنتحد وندفع المآسي عن شعبنا ونضع حداً للظلم ان كان فينا ذرة من ضمير...

لربما ينتظر البعض ارتفاع رقم قتل الاكراد الى الملايين حتى تتحرك فيهم النخوة والشعور الانساني.

لابل والأنكى من هذا بعضهم بدل أن يكفوا عن الأمعان في التمزيق ويوحدوا جهودهم ويحرروا شعبهم يذهبوا الى اكثر من ذلك فيقتلون الكردي ويسجنونه ويعذبونه بل يساهمون في تهجيره اني اقول لهؤلاء ألايكفي الشعب الكردي اربعة دول وجيوشها وسجونها تقوم بهذه المهمة القذرة.

اقول لهم ولأنصارهم إن من يهدر دم الكردي ويعتدي على كرامته وممتلكاته هو شريك لعين للطبقة المستعمرة لكردستان التي تستغل وتستعمر طبقة واحدة ألا وهي الامة الكردية.

وختاماً أقدم...

تحية الأجلال لأرواح شهداء تحرير كردستان.

وتحية عز وافتخار لقائد قوات البيشمركه في معركة (هندرين) الرائعة البطل (فاخر محمد ميرگه سور) ولانتصارات هندرين تخليداً لذكراهما.

وتحية للبيشمركه الأبطال المخلصين للكرد وكردستان دائماً وأبداً.

أسأل الله التوفيق لما فيه انتصار الحق على الباطل

لندن ٩ ـ ٧ ـ ١٩٨٦

جواد ملا

مقدمة المترجم

ربما كان هذا الكتاب من أطراف مايوضع في أيدي قراء العربية عن كردستان العراقية وثورتها. فقد نشره مؤلفه الفرنسي في العام ١٩٦٧ بعد فترة قضاها في موطن الثورة هي أهم وأخطر الفترات التي اجتازتها وبالضبط في شهر ايار من العام ١٩٦٦. وهو فضلاً عن ذلك الكتاب السادس من السلسلة الكردية التي بدات بنقلها الى العربية في بغداد عندما كنت رئيساً لتحرير جريدة (التآخي) لسان الحزب الديمقراطي الكردستاني.

بصدد التعريف بهوية المؤلف نقول ان (رينيه موريس) هو بالاصل مراسل صحفي بارع من نبت الحرب العالمية الثانية. «رئيس تحرير» لاديپيش دوميدي la Depeche du Midi التي تصدر في مدينة تولوز بفرنسا. ويبلغ الان الثالثة والخمسين من العمر. تلقى علومه في مدرسة النورمال العليا وفي كلية (لويس الكبير) بباريس. وارغمته الحرب والاحتلال النازي لبلاده على بلورة اتجاه له في الحياة بعد ان نال درجة الليسانس في ا لادب فاتجه الى الصحافة بعد تحرير فرنسا في شتى مضاميرها: حربية كانت ام اجتماعية ام سياسية ام اخبارية ام قضائية ام رياضية. وبعد قضائه ثلاثة وعشرين عاماً في مهنته هذه اصبح خبيراً واقفاً على جميع التطورات والاحداث السياسية، وتوج مجهوداته الصحفية وهو في سن الخامسة والثلاثين بجائزتين فرنسيتين للصحافة هما جائزة (ارموران F.j.Armorin) في العام ١٩٥٤ عن كتابه (الهند الصينية المحررة). وجائزة (البرت لوندر Albert Londres) في العام ١٩٥٦ عن كتابه (بلاد الريف: حرب الظلال) وتناقلت الصحف العالمية كثيراً من تقاريره الخبرية كما حصل فعلاً لانبائه الصحفية المثيرة التي نقلها عن الحرب الكردية في حينه.

وكان كتابه هذا ثمرة رحلة قام بها الى مناطق الثورة الكردية ليكون شاهد عيان لأخطر معاركها وليجدها بحسب تعبيره نفسه «حربا دموية مجهولة او متجاهلة من قبل الرأي العام العالمي» وآلى على نفسه بعد ان شهد مآسيها وشقاء اهلها الذي ساوى في الشدة والعنف اصرارهم وتمسكهم بالنضال من اجل حقهم في الحياة الكريمةوالتحرر - ان يذيع انباءها وينشر الحقائق عنها «كما ينتشر اريج زهر جبالها المسكر» بحسب تعبير المؤلف وهي العبارة التي ختم بها كتابه.

ونقلي هذا الكتاب واضافته الى امثاله التي نقلتها الى العربية متات من حب يتملكني للشعب العربي وبلاده وضرورة اطلاعه على نضال شعب عريق شاركه السراء والضراء عبر قرون طويلة فضلاً عن مشاركته الوجدانية وهو نضال يقوم

بعضهم بتشويهه واظهاره على غير حقيقته بدافع من تعصب قومي زائف في اغلب الاحيان حين يدعيه كثير من الساسة العرب وحكامهم الرجعيين ليستروا به علاقاتهم المشبوهة بالمستعمر. وكم كشف التاريخ الحديث عن هذه الحقيقة القاسية وهي ان اعلى النائحين صوتاً على عروبته هو اضعفهم ايماناً بها واسرعهم الى طعن قضاياها المصيرية من الخلف او حتى من امام عندما يجد في ذلك مصلحة له او عندما تحن له الفرصة.

من اسباب هذا الحب هو نشاتي في محيط عربي ورضاعتي لبان لغته الفخمة الرائعة ووقوفي على اسرارها بل ومشاركتي اخواني العرب في شتى مراحل حياتي السياسية عواطفهم ونشاطهم الوطني قبل شعوري بقوميتي، لقد شاركتهم السجون والمعتقلات لاسيما في قضيتهم الكبرى (فلسطين) مثلما شارك غيري من الكرد.

في غمرة هذا التعصب القومي الذي كان قد استخدم في البدء بمثابة سلاح دفاع عن الكيان امام اطماع الغاصب المستعمر، تنوسيت حقوق الاقوام الاخرى وفي مقدمتها حقوق الشعب الكردي بل وديست بالاقدام فكلحت الوجوه وكشرت تكشيرة الموت في وجه وطنييه ومناضليه، وعز على هذا الشعب المظلوم ان يجد كاتباً عربيا نزيهاً يوجه الراي العام العربي الى طريق التعامل المنصف العادل والاقرار بالحق الكردي في العيش حراً. كانت في نظر معظمهم عملية مخيفة قدر ماهي مرهقة لأنها في تلك الظروف تحتاج الى جرأة وتضحية والكاتب العربي بصورة عامة مازال اسير مجتمعه وانظمته السياسية، جبانا بل انانياً غير مستعد للتضحية الكاملة.

هذا بعض مادعاني الى تعريف اخواننا العرب بنضال اقرب جيرانه في سبيل تثبيت ابسط حقوقه كشعب يعيش داخل ارضه منذ آلاف السنين ويحافظ على تقاليده القومية ولغته حرص البخيل على ماله، وليفهموا طبيعة نضاله على حقيقته لانه مثل حي لنضال جميع الشعوب الواقعة ضمن دوائر النفوذ الاجنبي بسبب اطماع حكامها. وليس ثمة مايعود بالفائدة على شعوب الامة العربية ان يقارن بعض كتّابها المأجورين ثورة كردستان بالوجود الاسرائيلي ليصفوها «باسرائيل ثانية» او«بذلك الخنجر المغمد في خاصرة الوطن العربي الشرقية».

لذلك رجوت مخلصاً ان تكون هذه الكتب التي انقلها الى العربية خير رسول للشعوب العربية للتعريف بحقيقة نضال الشعب الكردي الجار والصديق. ولذلك لارى مبررا لعدم استقبال القارىء العربي لهذه المترجمات بسعة من فكر وبروح من الانصاف وان لايدع شعور التعصب القومي الضيق يطغى على شعور العدل فيه وان لا يأخذ مراحل دفاع هذا الشعب عن نفسه عسكرياً مأخذ الموقف العدواني.

ملاحظة اخيرة لابد منها في نظري.

اذا جرّدنا هذا الكتاب من استطراداته التاريخية فهو يتصدى لمرحلة محدودة من مراحل الثورة الكردية التي نشبت في الحادي عشر من ايلول للعام ١٩٦١. فهي قياساً بالثورات الوطنية الاخرى وبهدنها البالغة اربعاً قد تكون من اطولها عمراً. في هذه الفترة البالغة احد عشر عاماً جرى على الثورة كما يجري على غيرها من ارهاصات وتغييرات قيادية او ثانوية لكنها لم تحد قط عن نهجها الاصيل بفضل قيادة السيد (ملا مصطفى البارزاني). فلا يعجب القارىء المتتبع ان وجد هنا اسماء جديدة تلمع واخرى تنطفىء بين البارزين من رجالها. فكثيراً ماشبهت الثورة بالقافلة التي تقصد موضعاً، دائمة التمخض بما ينفصل عن ركبها دائمة الحمل بما ينضم اليها وهي في مسيرتها. وهناك من يسير الى آخر الشوط، وهناك من يفرغ من صبره وهو في اول الطريق او منتصفه. او يجد بغية تلهيه عن المتابعة او من يستأخر ليلتحق بالقافلة فيما بعد او من يتعب فيقنع من الغنيمة بالاياب او من يوثر صفقة اكثر ربحاً.

وتلك هي طبائع النفس البشرية لاتقبل تبديلاً وسنة في الكون منذ وجد عليه الانسان. وليس من غرض يخالجني في أن أومي بالاصبع الى من نكص او تقدم. او ذهب ثم عاد او من خان ثم اخلص. لان مجال الحكم قاصر في الوقت الحاضر والثورة لم تنته بعد وللتاريخ ان يحكم فيما بعد وهو من اخيار الحاكمين ان لم نقل خيرهم.

بيروت ـ كردستان
١ نيسان ـ ٣١ كانون الاول ١٩٧٣

جرجيس فتح الله
المحامي

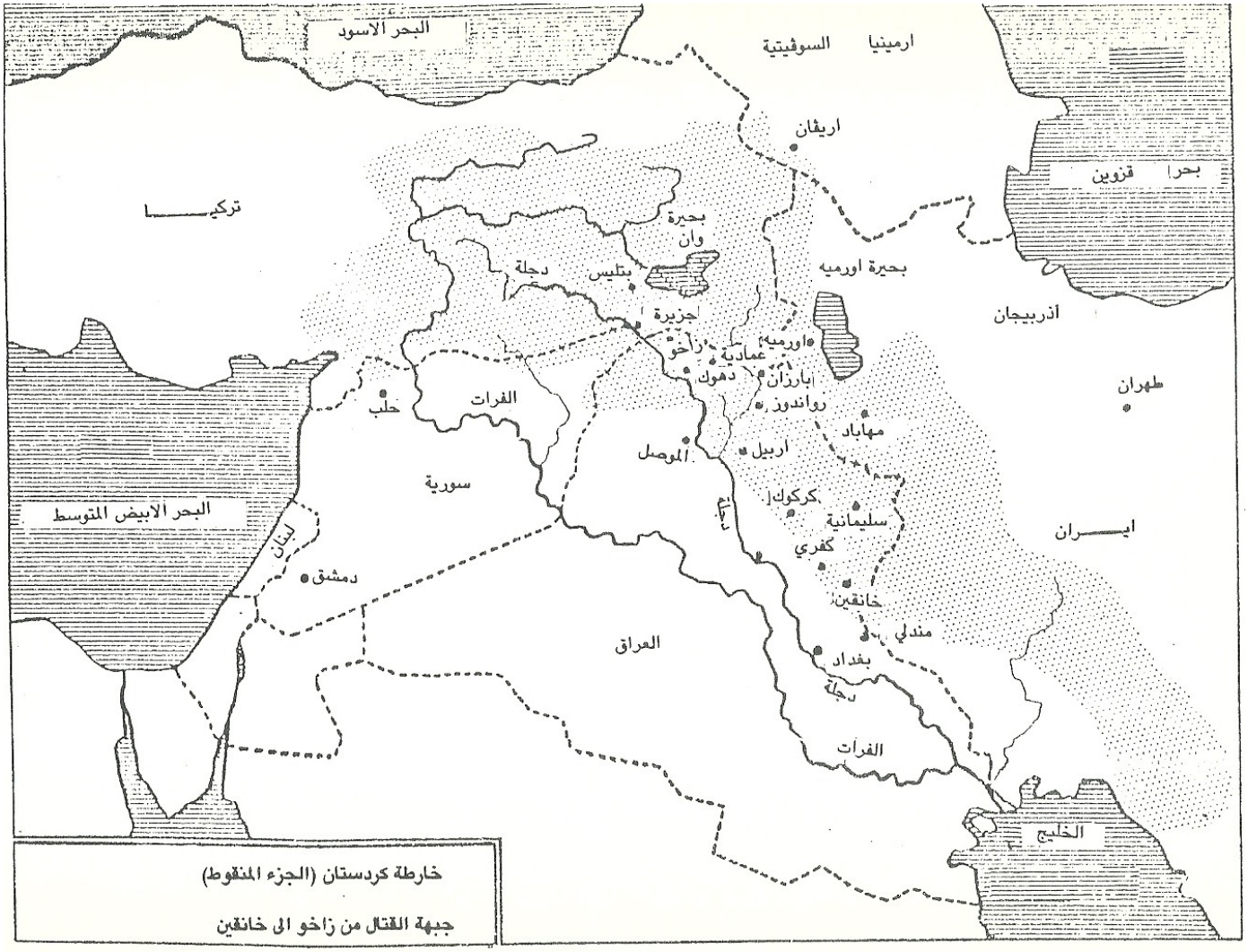

جبهة القتال في رواندوز

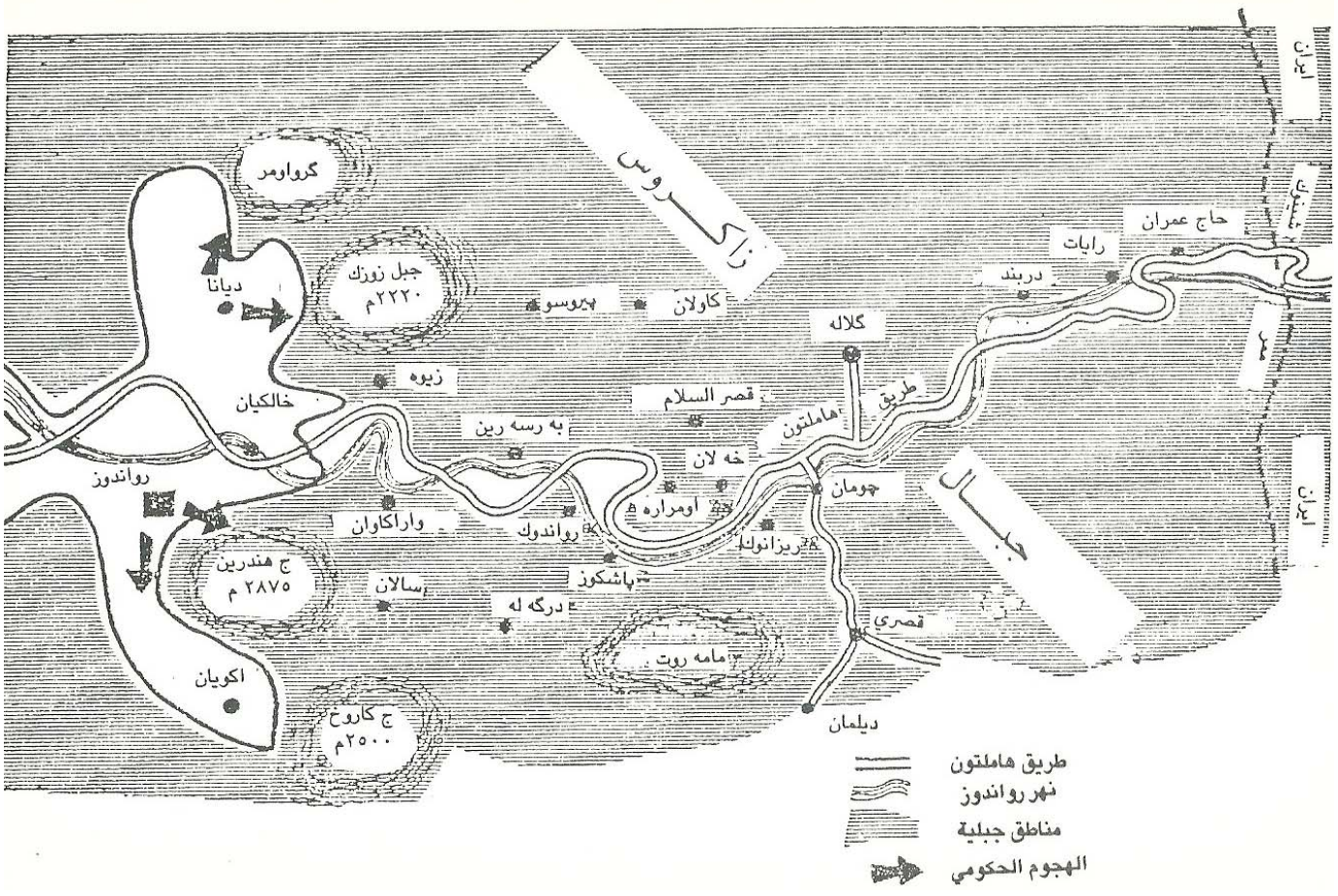

ليس احلى من الموت في سبيلك ياكردستان.
ان يكون المرء في وطنه. وان ينشد باعتزاز باللغة الكردية.
في نار لهب سلاحنا اننا نحتفل بمجد شعبنا الالفي العريق وارضنا المحبوبة.
ان يكون الانسان حراً. وان يحبّ وان يؤمن وان يموت فيها.
سل هذا النبع فسيقول لك من خلال خريره.
هناك الف آهة. والف دمعة. والف ثورة. والف امل.

شعر كردي شائع. تاريخه وناظمه غير معروفين

ان وجد ثمّ طريق. فلا يهم ان كان طويلاً
ان وجدت ثمّ مخاضة. فلا يهم إن كانت عميقة.
ان وجدت ثمّ عذراء. فلا يهم ان بلغت من العمر عتياً
ان كان ثمّ حامل. فلا يهم ان تأخر وضعها

مثل كردي حول الامل.

الفصل الاول

بلاد بلا حدود

لاتنم تحت شجرة الجوز، فانها قد تورثك المرض.

هذا ماأكده لي الجبليون الكرد ككثير من أهل الريف عندنا. الاّ ان طائرتي الميگ اللتين كانتا تلعبان لعبة (الحطةّ والنطّة[1]) في كبد السماء. لم تدعا لنا مجالا للاختيار. هاتان المغيرتان رسولتا الموت، في مطاردة لفلق الصبح، كانتا تتعقبان البشر والسائمة معا ولاتقوما برحلة مجانية. انهما تنقضان بدوي شديد على الوادي، ثم ترتفعان الى السماء بالسهولة الاكروباتية المعهودة في طائر السنونو.

وبعد ان تبتعدا مسافة ما، تبدآن برقصة الباليه المنفرة. ان الصدى الذي يسود موسيقاهما الصاخبة، لم يكن الاّ لملء الجبل بقصف منذر بكارثة.

شقت سماء الغسق رشقة من الرصاص وهشمت المقذوفات رأس صخرة بارزة كانت على مسافة تقل عن عشرة أمتار منا ، فاهتزت الارض قليلاً مع فرقعة خافتة وبرز شيء اشبه بحفنة من تراب من قبر مالبث ان اغلق، اي تفكير يخالج هذا الرأس المعفر وهو بين حشود من الحشرات عندما صار هدفا لطائرتي الميگ؟ أتراه يلعن القدر الذي قسا على أولئك المحيطين بي الذين نجوا من مجازر خمس سنوات؟ قطفت اقحوانة لاجل الذكرى....للذكرى مثلما قالت «اوفيليا هاملیت» لوردة إكليل الجبل[2]. ها إني احصى فيها ثلاث عشرة تويجة... وتسع وعشرون دقيقة لانهاية لها كالابدية... الطائرتان تنقضان سبع مرات حتى لتكادا تحتكان بالاشجار لتنفثا النار من تحت اجنحتهما. ابتعدتا من الجانب الاخر متجهتين نحو الجبل المتوج بالثلج واقبلتا من هناك مرة اخرى لتمنحا بركة الموت. انهما تندفعان نحوك كأنهما بواجب رد زيارة لجار معتمدتين على الحظ وحده لعدم مهارتهما.

تركت ظل شجرة الجوز بناء على نصيحة النسوة الكرديات. في المرج الغني جداً بالالوان والخيال الشبيه بالسجادة الشرقية، كان ثمّ ظروف رصاص مازالت ساخنة من صنع جيكوسلوفاكي مبعثرة هنا وهناك. وكان ثم ايضا حفر ترابية. صخرة عالية تكسرت الى شظايا براقة. جراح فاغرة في سطوح البيوت المتراصة في الاسفل. مهد ارجوحي انقلب وخرقه البالية تندلق منه كما تندلق الاحشاء من البطون. رجال ونساء، اطفالهن يتشبثون بفساتينهن وعيونهم زائغة. انهم يسيرون على مهل في الطريق السفلي التي تحف بجانبيها اشجار الحور. اطفال فزعون ربطوا فوق ظهور امهاتهم او التصقوا بصدورهن يصرخون

١ـ هي لعبة الصغار. القفز المتبادل على ظهور اللاعبين بالتناوب.

٢ـ اوفيليا بطلة مسرحية هاملیت الشهيرة للشاعر شكسپير. والمؤلف هنا يستحضر منظراً من المسرحية حيث تقطف اوفيليا وردة وتناجيها.

باصوات مبحوحة هذا الموكب الكئيب يتابع السير صامتا لاينطق بحرف والعيون كلها شاخصة الى السماء. منذ خمس سنين والشقاء يخيم على البلاد دمار شامل. سكوت مطبق يسود المسيرة الاّ مختار القرية الذي ذكر اثناء مرورها بأن احداً ما لم يتخلف.

علقّ مرافقيّ بنادقهم في عواتقهم واثبتوا خناجرهم في انطقتهم وانطلقنا في الدرب المحصب الى أمام.

هذا ماجرى في شهر ايار من السنة المنصرمة في الوقت الذي كان الفرنسيون يحتفلون بعيد (جان دارك[٣]).

ويؤكد المسيحيون هنا ان لديهم شبيهة بها على قيد الحياة، تقرن الدين بالوطن في هذه الحرب التي سببتها غلطة الانكليز الاولى وفي الشرق الادنى هذا. حيث لايمكن مطلقاً ان يتبين المرء الجانب العجيب من الواقع. فكل شيء مختلط محير: الاسطورة مع الابتذال. النبل مع القسوة، البهجة والرعب البذخ والبؤس. لكن اذا ما افترض بان للحرية نفس المقام الذي هو للدين فان النضال يتخذ صفةالتضحية. انهم يطلقون بنادقهم على الطائرتين.

كنت من المفقودين، في هذه البلاد التي لاتملك حدوداً لكونها مجزأة بين الدول الخمسة: تركيا وسوريا والعراق والاتحاد السوفيتي وايران. لكن ماسمها؟ انها تُعرف باسم «كردستان» وكلها جبال. قليل يتذكر ـ وليس بشكل واضح ـ ان فلك نوح جنح الى جبل ارارات البعيد الذي تحد قممه الشامخة الامبرطوريات الروسية والايرانية والعثمانية. اما النسخة السريانية للتوراة فتقول انه جنح ورسا على جبل (جودي داغ) الذي يمتد بمحاذاة طريق الموصل ـ عمادية. لقد طغت مياة الطوفان على سهل مابين النهرين القديم، والمسيحيون الاوائل شيدوا فوق آخر محطة للفلك ديراً دعوه (دير الفلك) وجاء المسلمون من بعدهم فجعلوا الدير مزارا يحج اليه الناس. ومن كردستان ايضاً ينبع نهرا دجلة والفرات: النهران التوراتيان العظميان اللذان نشأت على شاطئيهما ـ كما اجمعت عليه الاخبار تقريبا ـ اول نطفة للحياة البشرية وأنبتتا اول بذرة للوحي الالهي. ومن هنا ايضاً انطلق في احدى الليالي نحو (بيت لحم) المجوس الثلاثة، اولئك الفلاسفة المنجمون السحرة الذين ينتمون الى طائفة من العرافين تمرسوا منذ زمن بعيد في استطلاع اسرار الفلك وترجمتها.

ارض تكاد تخلو من النضارة. مترامية المساحة كفرنسا. غنية بالنفط سبب شقائها الحالي. هذه هي كردستان المعزولة التي يقطنها شعب نسيه التاريخ. شعب مهمل لايكترث به احد قط. اثنا عشر مليونا من البشر بخصائص عرقية اصيلة. اكبر مجتمع بشري

٣ـ جان دارك (١٤١١ ـ ١٤٣١) البطلة الفرنسية العذراء التي قادت اول انتصارات فرنسية على الغزاة البورغنديين والانكليز مدفوعة بحماسة دينية ووطنية مما ادى الى طرد الغزاة من الاراضي الفرنسية. وقعت اسيرة في يد الاعداء فحوكمت بتهمة الزيغ عن الدين واحرقت حية. والمؤلف هنا يشير الى (مرگريت جورج) التي كانت قد التحقت بالثورة وسيأتي الكلام عنها فيما بعد.

واشده مراسا في الشرق الادنى. شعب مقدام فخور ومحارب صعب المراس، شاعري ملهم، جبلي نفور صلب العود بخنجر سريع وقدم بخفة الطائر. ذاك هو الكردي في اساطير التاريخ. مستقر على مرّ القرون في ارض ملتقى طرق لابد منها في اسيا الشرق الانى التي عرفت بانها ام الشعوب والاديان. الكرد هم آخر البدو الهند اوربيين وهم بهذه الصفة حملة ذكريات ذلك العصر السحيق الذي كنا نحن وارثيه المنسيين البعيدين.

مرة اخرى ايضا يقاتل الكرد في العراق فيشيعون شعوراً من القلق في نفوس اخوانهم وفي نفوس الدول الخمس التي تقتسم بلادهم.الّا ان هذا القتال وهو حصيلة نصف قرن من ا لثورات واعمال القمع والمذابح، بقي منسيا بل مهملا من الراي العام العالمي. حتى لكأن مؤامرة صمت غريبة اتفق عليها لتغطية عملية الاستئصال العنصري الجماعي هذه. ان مختلف النداءات التي وجهها هذا الشعب المضطهد والمعّرض للاستئصال الى هيئة الامم المتحدة والضمير العالمي لم تلق حتى الان اي استجابة. والرسائل الموجهة الى رؤساء الدول الكبرى في العالم ولقداسة البابا بقيت كذلك حبرا على ورق. عبثاً ابحث بين جمهرة المفكرين الطيبين حملة الرسالة الانسانية والمبشرين اولئك السريعون جدا في النفخ بابواقهم دفاعاً عن القيم البشرية العليا .

ـ عمن استنكر او شجب استشهاد هذا الشعب.

لا جرم ان يكون لذلك المسؤول الكبير عن تقطيع اوصال الشرق الادنى وأوروبا غداة الحرب العالمية الاولى بعض شعور بالخطأ. الا انه منح الغفران لنفسه لانه وجد كيانه المالي معتمداً على البترول. وكذلك سياسته التي وجدت مصلحتها في الانحياز الى العرب وفقاً لحسابات خاصة مبنية على مقاومة النفوذ السوفيتي المتعاظم.

والعالم الثالث الشديد الحساسية بخصوص حق الشعوب في تقرير مصيرها، قصر كلّ همه على الدفاع عن قوميات مصنّعة غير اصيلة. وكان سريعاً في الصراخ والتنديد بالتمايز العنصري عند أقل ممارسة للقوة البيضاء: نراه يدعو الى التضامن الافرواسيوي في التغاضي عن مذبحة جزئية لشعب أصيل نما وترعرع في ليل من الزمن، تعداده يعادل مجموع من يسكن في العراق ولبنان والاردن والكويت معاً. والقضية تتعب (عبد الناصر)كثيراً على اية حال.

فترة غير مناسبة، الاتحاد السوفيتي كذلك ساكت، منشغل قبل كل شيء باطلاق الاقمار الصناعية في المدارات الفضائية وهي تحمل اسماء القاهرة ودمشق وبغداد. والى جانبها تشاهد طائرات (أليوشن) الروسية تهاجم بلا خجل ولاحياء المواطنين الكرد التاعسين الذين يطالبون بالبسيط وهو الاعتراف بحقوقهم. و قنابل الناپالم (المصنوعة في الولايات المتحدة) أخوات تلك التي أمطرت بها (ڤيتنام). لكن كل هذا يبدو مقبولا من الشرق والغرب على السواء على ضوء تعليل سياسي خصيب الحجج لتبرير التضحية بشعب غير عربي.

(والفاتيكان) نفسه يبدو وكأنه يريد تجاهل حقيقة واقعة وهي ان حضن كردستان الشاكية السلاح يضمّ اقلية مسيحية من كاثوليك وارثودوكس ونساطرة وغيرهم. يشاركون طواعية وبمحض اختيارهم في هذا النضال وقد تشربوا روح المحاربين

الصليبيين. بيع العراق مغلقة وكثيرا من الوجهاء والرؤوس يعانون اضطهادا وبعض منهم ملقى في غياهب السجون، ومعظم القرى المسيحية مخرب او منهوب. اليسوا هم بقية شعب عانى منذ اول قيام النصرانية اشد تنكيل والابادة الوحشية على مر العصور بسبب ديانتهم؟

اننا لنجد وصفا مطابقا بالرجوع الى سفري (ارميا)و(يوئيل)[٤]من التوراة... كل الحقول تلفت. والمدر كله في حزن. النار تلتهم المراعي. ألسنة اللهب تحرق اشجار البساتين. كلّ من في البلاد يوليّ الادبار... خبؤوا انفسهم في الحرش. تسلقوا الصخور. المدينة هجرت تماما ولم يبق فيها حي...

كردستان هذه التي ليس لها حدود لانه لم يعد ثم كثيرا منها للتجزئة والتقطيع. كان النفوذ الى داخليتها ينطوي على صعوبة خاصة. فجيرانها الوحيدون الذين لايضعون حجْرا صحيا يخشون ان يحملوا تبعة التواطؤ على نشر الطاعون. ولكن القدم استطالت وامتدت برهبة. فمن بيروت تسللت بصورة سرية الى جبال زاگروس، وفرضت على (اتوبوسات) تكاد تلتهب من فرط حرارتها مراحل سير لاتحصى، ويحار المرء في معرفة سر قدرتها على التدحرج، وانحرافها الى مالايدري المرء اين. تراها ابداً تبلغ نهاية العالم وتفرض ازعاجاً قبيحا للمقابر المشؤومة بصحبة رجال اشداء ذوي وجوه شاحبة تمتد ايديهم الى خناجرهم بلمح البصر عند اقل حادث، هناك تجد مثيلا لليالي (كالابريا) التي وصفها (بول لويس كوروييه). انها تفرض طراداً محتدما باسلوب افلام الغرب الامريكي على حيوانات غير مروضة ذوات اعراف منفوشة وذيول كالشهب المذنبة تعود بك الى جلسات سكر الهمج والى الوقار النبيل للمواكب المبتكرة.. انتهى كل شيء بعد عملية تسلق منهكة كتلك التي يلجأ اليها المهربون اثناء سلوكهم دروبا ضيقة شديدة الانحدار وعرة معلقة بالصخور تمتد كحبل انشوطة لتخنق السيول الدفاقة مع اغراء بالدوار وهزيم المدفع وخطر الطيران الدائم.

عند وصولي كانت المعارك محتدمة والجيف المتروكة بالمئات قد انتنت الجبل... حضرت (ڤردون)[٥] الكردية حيث كان المهاجمون وهم عشرة الى واحد يستخدمون الناپالم بكثرة. الا ان العراقيين لم يتقدموا خطوةً . بعدها عدت الوذ بايران وانا مشبع بصدى التراشق بالرصاص وقصف المدافع وانفلاق القنابل وبالشقاء والاهوال والرعب. كنت الصحفي الوحيد الذي شهد تلك المعارك الضارية التي لايؤخذ فيها اسرى. طائراتها الحاقدة تطارد النساء والشيوخ والاطفال والمقاتلين سواء بسواء. لقد قطعت وعدا لكل هاته الامهات الكرديات ذوات المظهر النبيل في بهرجهن من الثياب الزاهية وبالهلع والجوع الذي يقرص احشاءهن وهن يتوسلن بي طالبات ان اقول كل شيء للعالم الخارجي.

---

٤ ـ من اسفار العهد القديم وارميا ويوئيل هما نبيان يهوديان انذارا اليهود بالويل لاعمالهم المنكرة.

٥ ـ مدينة واقعة شمال فرنسا جرت قربها سلسلة من المعارك الضارية في ١٩١٦ دامت حوالي عشرة اشهر وهلك فيها من الطرفين زهاء مليون جندي.

هذا الشعب العاثر الحظ الوحيد المهمل يقوم على رأسه (ملا مصطفى البارزاني) المثير للاعجاب، آخر سادة الحرب العظام الضائع التائه في عصرنا هذا. قال لي ونحن في الجبهة من خلال هزيم المدافع «ان العدل والضمير العالمي لم يعد لهما وجود».

ذات يوم حط بي المطاف في قرية صغيرة قريبة من خطوط القتال وكأنها وضعت على حافة نار. كان ثم حفلة عرس فأعربت عن أسفي لعدم امكاني تصوير هذه المناسبة بفلم وعلى سبيل التلطف والاحتفاء بي باشروا باعادة الحفلة مجدداً ... واذا بطائرات الميگ التي لامفر منها تقبل باحثة عمن تغتاله. فأعترضت قائلا ان اي تصوير تحت خطر التعرض للموت لايمكن تبريره باي وجه ففي ذلك مخاطرة بمجزرة واعربت عن ميلي الى الغاء الاستعدادات فأجابني رئيس القرية، كان متمنطقا باحزمة الرصاص وبخنجر مثبت في حزامه «منذ زمن ونحن ضحية البترول. لابأس ان نموت في سبيل عرس».

واضح ان الكرد المستسلمين لعزلتهم، الشاعرين ـ وليس بدون مبرر ـ بالنسيان الذي يرقى الى مرتبة الخيانة، لايطمحون الى اكثر من ان يستقلوا بشؤونهم وان يملكوا زمام امورهم رغم كل شيء اني لأرغب في مناشدة الضمير العالمي النائم المتجاهل ولاسيما الشعب الفرنسي (ذلك لان هذا الشعب هناك يتخذ رمزا للتواقين الى الحرية) وان استرعي الانتباه الى النتائج غير المتوقعة من صراع يزيد في لااستقرارية بقعة من اكثر بقاع العالم قابلية للانفجار. العالم العربي متصدع البنيان. المسلمون مختلفون ومنقسمون على انفسهم. والقومية يغلب عليها الطابع الديني والتحولات الاجتماعية تحتل شيئا فشيئا مكان الدين. والتسلط الصهيوني يجتاز اليوم مرحلته الثانية وفي اطار قومية عربية ثائرة متأرجحة بين الشوعية والمصالح البترولية تجثم القضية الكردية واقعا وحقيقة تاريخية وجغرافية واقتصادية وانسانية. انها الآن تتجاوز اسبابها لتدخل بعدها الى الحيز العملي. انها وبحسب تشخيص الخبير الفرنسي البارز (بيير روندو[٦]) «مفتاح مشاكل الشرق الاوسط الرئيسي».

٦ـ كاتب فرنسي في الشؤون الكردية.

الفصل الثاني

موريتوري[1] ملاعب الجبال

(سه ري بي ناموس ناچه جنتي)
من لاشعور له بالشرف لايدخل الجنة.
(مثل كردي)

ذات ليلة دخلت كردستان العراق دون وثائق ودون طبل وبوق ـ عندما كانت الطائرات تحوم فوق القمم وقد انطلقت من قواعدها في مدينتي الموصل وكركوك. ولقد اكدوا لي بانها لاتقبل قبل الفجر خشية ان تنشب اجنحتها ليلا في الجبال. غير انها لازمتني يومياً ولم تتركني قطّ من الفجر حتى الغسق ... سحرتني السماء بسيولها الدفاقة من النجوم فوق القمم المتوجة بالثلوج. انها «ليلتي الالف والليلتين [2]» ففي هذا «الديكور» الرائع الذي ما ارتدى حلته إلا لكتم سرّ رحلتي ـ دخلت في قلب اسطورة، وادركت لماذا تهفو روح الكردي الى الخوارق فاعددت نفسي انا الاخر لعملية كشف اسرار مواطن الجن ومواكبها.

دليلي اسمه (شير) ويعني (الأسد) على ضوء فوانيس الوادي تبين لي شخصاً يميل الى الشقرة بعينين خضراوين متناسق الأعضاء فيه مظاهر الكبرياء: انها مظاهر الانسان الحر لشعب عريق نبيل: (عشائري) الآن هو منتدب لمهمة لاتقتصر فحسب على مرافقتي بل على محادثتي والاجابة عن اسئلتي المستطلعة والدفاع عني عند الاقتضاء «غلام» خادم مسلح لاجل الرفقة، حاضر لتلبية كل رغبة متواضع في كلّ حركة او مبادرة يقدم عليها.

يعتمر شير بعمامة بيضاء موّردة وهي التي تتميز بها القبيلة البارزانية الرئيسية ويرتدي بزة من الخاكي على الزي الكردي المعروف وهو سترة قصيرة تدس اطرافها في حزام عريض ذي الوان جذابة، وسروال فضفاض منتفخ مشدود برباط الى الوسط. بندقيته ذات السبطانة الطويلة لاتفارقه وحزام رصاصه المتقاطع مشدود حول جذعه وخنجره الضخم ذو المقبض القرني المكفت بالمسامير والغمد النحاسي البراق لنصل معقوف كان يبرز من حزامه الى جانب مبسم خشبي بدا لي مزدانا بالنقوش. في اول مرحلة من مراحل طريق مغامرتي اضاف شير الى شكته من السلاح مسدساً وستّ خراطيش.قام «الغلام» بحزم امتعتي على ظهر جحش صغير، واسرع شير الذي كان على شيء من المعرفة

١ـ moritori هم المصارعون الرومان الذين يدربون على القتال الفردي فيما بينهم حتى الموت في الملاعب الرومانية.

٢ـ اشارة الى كتاب «الف ليلة وليلة» المعروف.

باللغة الانكليزية يشير الى ان الجحش الصغير يدعى (جاش) بلغته.

بالفرنسية. بوريكو...

وبادر فورا يوضح لي بانه مرداف لكلمة (خائن) عندهم. هذه التسمية في الواقع تطلق على المنشقين من الكرد الذين تجندهم حكومة بغداد. وهم مثل «الهاركي البيض» عند العرب[٣] وقد اوضحوا لي ذلك بعد زمن في المقر العسكري لملا مصطفى البارزاني.

كشف هذا الحمار الاعتيادي عن غريزة لاتخطىء في المنعطفات المتعرجة الضيقة لطريق صخري منحوت نحتا في طنف من وجه الجبل. واشار علي «شير» الذي كان يسرع الخطى بان ألازم الحيوان ولااحيد قطّ عن خط سيره بسبب السيول. فبقيت قريباً جداً منه حتى انه كان احيانا يجلد وجهي بذيله وساعدني في الانحدار جداً فلم املك نفسي من التساؤل كيف يستطيع هذا الحيوان اليقظ ان يزلق اقدامه دون تردد فوق هذه الحافة الحادة الضيقة؟ أنقذني الظلام من الدوار. لكن عندما تتدحرج حصاة الى الهاوية ويتباعد صدى سقوطها تدريجيا حتى يتلاشى اوصلني هذا الى التأكد من توازني على الصخرة واشعل شير ورائي مصباحه ذا البطارية خفيةً وقال معقباً :

ـ لم اشعل المصباح كيلا ينكشف خط سيرنا.

واضاف يقول ان العيون تزداد حدة في الجبال وتضحى اكثر قدرة على الاستكشاف، وانه من الافضل ايضاً ان اتجاهل مفاجآت المفازات الخطرة. ثم ختم حديثه قائلا بلهجة جازمة:

اتبع الجحش ولاتحد.

انتزعت منه الكلمة الفرنسية للجحش ضحكة صافية ذا ت رنين. وفي اثناء وقفة قصيرة راح يعيب علي حذائي القماشي الرخو ممتدحا احذيتهم المحلية الصنع. النعل من خرق قماش مضغوطا والوجه من خيوط القطن منسوجاً وهو يعرف باسم (كلاش هوره مان) نسبة الى القرية[٤] التي احتكرت صناعته. قال انها لاتبلى شريط الاتمشي بها في الماء. واستطرد شارحا مزاياها:

ـ وهي تلتصق بالارض عند الاقتضاء. كان عليك ان تبتاع حذاءً من الكاتوتشوك فهو متوفر لدى الباعة في ايران.

نحن نقترب من القمة. رطّبت وجهي الناضح بالعرق في ذوب من الثلج المحبب... الثلج والسماء ماأثمن واندر هذه اللآليء! قلت:

سندرك النجوم.

اجاب شير بلهجة الواثق مما يقول:

لكل امرء نجمه الذي يضيء فوقه ويسقط عندما يموت.

٣ـ الهاركي هو الاسم الذي يطلقه اهل المغرب على الجيش الفرنسي في شمال افريقيا (الفرقة الاجنبية).

٤ـ يقصد منطقة هه وره مان.

عرفت عن الكرد اعتقادهم بالخرافات. وانهم كيّفوا الدين الاسلامي بحسب معتقداتهم.

ريح باردة لفحتني وأنا في اعالي القمة، والجحش (الجاش) المتعود ولاشك على الاستجمام واخذ نصيبه من الراحة في مثل هذه الاماكن ، انطلق يرعى الحشائش المتخفية في شقوق كتلة صخرية. وامامي وعلى مرمى بصري جبال (زاگروس): فوضى سريالية من الابنوس المكفت بالاصداف، ظلالنا تسبح في نور وهاج شبيه بانعكاس حجر عين الهر الكريم (اوپال).

سألته عما يدل النجم الساقط؟ قال شير مؤكداً «روح انسان لفظت آخر انفاسها».

صرت افكر في نفسي: بعد خمس سنوات من القتال لابدّ ان سقط من النجوم في كردستان بقدر قطرات المطر... هنا وهناك في حنايا الجبل تومض اطراف من الجمرات وجلة حذرة كالديدان المضيئة. صرت اعلم ان القرى تحيا في الليل. ففي النهار يترك سكانها منازلهم ليختبئوا تحت الصخور او في الغابة خوفاً من القصف الجويّ... واكد لي شير اني في مأمن وقال «ان العراقيين يطلقون نيرانهم على كل شيء متحرك سيما الخراف والكلاب. في الاسفل ترسمت ريشات من الضوء مسيرة معذبة. ذلكم هو الطريق الوحيد الممتد من رواندوز الى الحدود الايرانية. تلك الطريق التي يريد ان يستولى عليها العراقيون وهي تمتد بمحاذاة النهر.

قلت الى اين نقصد؟

الى الطريق فهنا الجميع يتوجه الى الطريق.

ـ وملاّ مصطفى؟ اين نجده؟

ـ في موضع ما بالقرب من الطريق. وهو ايضاً لايتحرك الاّ في الليل. انه يغيّر مكانه كل ليلة ولاينام قطّ مرتين متتاليتين في موضع واحد...

وذكر لي شير ان الجبل يعج بالجواسيس وهم يستغلون فوضى الحرب للافادة منها وقد تعهدت حكومة بغداد بجائزة قدرها عشرة آلاف دينار (مائة وخمسون الف فرنك فرنسي) تدفع لمن يفتك بملاّ مصطفى البارزاني.

ـ والشعب الكردي هل يحبه؟

صوب اليّ شير نظرة مباشرة جمدها انعكاس الثلج ثم تمتم قائلاً.

ـ بدونه لاكينونة لكردستان.

ـ اذن فمصيركم مرهون بملا مصطفى البارزاني وبالطريق...

ـ بملا مصطفى فحسب. فهو الذي يحافظ على الطريق...

يشير شير دائما الى العرب باستخفاف بهذا يعطي الحرب الدائرة صفة عنصرية. ومع انه يتحاشى التعميم الا أنه ينتقد اسلوب قتالهم فيصفه بقتال المتوحشين والجبناء الذين لايفهمون الا لغة واحدة هي لغة القوة. وهو عين ماذكره لي ملا مصطفى البارزاني نفسه بعد بضعة أيام.

انطلق الجحش منحدرا الى الاسفل واجتزنا مرتفعا صخريا أجرد املس بفعل احتكاك ثلاجة وتحركها البطيء منذ ازمان سحيقة لنجد انفسنا في احشاء مراع تزداد كثافة كلما اوغلنا في طريقنا اللبني الغائر في الظلمات. موج فاحم من غابات البلوط يكتفنا ونباح عدواني كشف لنا عن مخيم للرعاة. سلط شير شعاعا من مصباحه الكهربائي على كلاب ضخمة بيضاء ذوات عيون مسبلة الجفون فاعماها وصدّ هجمتها الشرسة بقذفها بالحجارة. اما جحشنا فقد اشتم رائحة المشاكل وراح يطلق شكوى متواصلة تخللها نهيق واشفقت عليه الحمير الاخرى المتوارية في الظلام فشاركته معاناته. قطع سيرنا قطيع متراص من الخراف ولمحنا خيولا تقف ساكنة تحت الاشجار. واشباحا تدنو منا وبنادقها معلقة على الاكتاف. وبيّن لي شير ان سلاحهم لايقوم دليلاً على انهم مقاتلون فمعظم الكرد يملكون سلاحاً.

كان ثمة ثلاث خيم واسعة ذات سقوف منخفضة جداً تكاد تضيع في العشب الطويل. بعد تبادل التحية ـ اليد فوق القلب ـ عرّفهم شير بهويتي واوضح لهم اسباب وجودي وكانوا متكئين. وانبرى واحداً منهم ليتحفني بمجاملة مقتضبة ترجمها لي شير كالآتي «انهم يشكرونك لما تكبدت كبير عناء في مجيئك لتشاطرهم محنتهم وبؤسهم».

دُعينا للجلوس في احدى الخيم. وبعثت الحياة فوراً في نار الخشب وتصاعد لهبها. الخيم مصنوعة من ضم اطوال من نسيج شعر الماعز الاسود بعضها الى بعض ثم ترفع على دعامات من كل جانب. في الداخل ومن وراء قاطع من القصب كان يسمع همسات النساء وبكاء الاطفال. شربنا الشاي ونحن جالسون حلقة بارجل متقاطعة فوق سجاجيد تطرزها ازهار وحصير. لقد أُلِفَت اذني اللغة الكردية الغليظة .

عندما ارتحلنا عنهم داعين بالبركة روى لي شير ان الطائرات شنت غارتين على القافلة اثناء رحتلها وأصلتها بنيران رشاشها فاوقعت مذبحة بالحيوانات كما فتكت بامراة.

ـ جاءت هنا لتموت. وتلك من مفارقات الحياة. كانت تغسل ثيابها في ماء شلال. وامتلكها الفزع فانطلقت تجري الى حيث مخدعها ولما ادركتها الطائرات جمدت في موضعها ولم تتحرك ثم هوت على الارض باستسلام تام وتقلبت منحدرة الى كتلة من الصخر فاستقرت جثتها هناك.

ـ اين كانت اصابتها؟

ـ في صدرها. اخترقته رصاصة رشاش كبيرة.

ـ الم تسعف؟

ـ كلاّ. كيف تريد ان تسعف؟ في جبل شاهق حيث مستشفياتنا نفسها تعجز عن معالجة الجراح البليغة ؟ نكاد لانملك ادوية... ان العالم يهزأ بآلام الشعب الكردي... وهكذا نزفت المراة تدريجيا حتى خلت عروقها من الدم...

حلمت بنيازك القمة وهي تمر من أمام عيني متسارعة. انها ولاشك لحظة تستعيد فيها هذه المراة الشقية الروح. سرنا وكلانا منشغل بافكاره والصمت يسودنا ليقطعه بين الفنية والفنية صوت انفجارات مكتومة.

نحن نقترب من جبهة (رواندوز). قال شير.

ـ اثنا عشر كيلومترا بخط مستقيم.

قطعان من الماشية يتكاثر عددها باطراد. انها تجتر صلاتها الحيوانية تحت الاشجار! والرجال ملتفون بمعاطفهم ساهرون ابداً حول خيامهم وهم شبه رحّل يعيشون كالبدو تماماً. فني فصل الشتاء يلازمون قراهم المنتشرة في الوديان وعندما يحل فصل الربيع يصعدون الى المراعي الجبلية (الزوزان) ويبقون فيها طوال فصل الصيف متابعين انحسار الثلوج. لم يبق كثيرا من هؤلاء في الوديان حيث يوجد اولئك الذين استقروا «ده ماني» او بدو الماضي الذين صاروا قرويين من الذين يطلق عليهم بنوع من الاحتقار اسماء معينة مثل (بامري: آباء موتى) او (گامري: بقر ميت) او (گاوه ستي: بقر تعب). على انهم لايحتفلون في هذه السنة بعيد (برودان) الذي يقام بمناسبة انتقال المواشي والقطعان الى (الزوزان).

لهذه المناسبة تتجمل الفتيات ويغرزن مسامير ذهبية في عرانينهن اليسرى. ولاتشعل نيران الفرح في الجبال كما تقضي به العادة في عيد نوروز عيد الربيع نيران الافراح! اني في بلاد (زردشت) حيث النار تظلّ موقدة أبداً ولاتطفأ لانها رمز إله الحقيقة.

صرنا نتقدم بسرعة كبيرة في طرق اكثر وضوحا ملتفة حول حقول صغيرة تنافس الكتل الصخرية، بعضها متفحم اشد من الليل سواداً ورائحة الرماد تنبعث منه. تنهد شير وقال:

ـ انه الناپالم... العدو يطبق تاكتيك الارض المحروقة.

ضوضاء الطريق ... ضجة ابعد منها عند النهر تتناهى الينا متنافرة صاخبة ممتزجة بشجار الرجال وثغاء الخراف وهدير السيارات المثير للاعصاب. أوضح لي رفيقي الامر قائلا:

ـ نحن نمتلك خمسة عشر منها وهي لاتتوقف عن الحركة، الا انه يوجد سيارات غيرها تقبل من ايران لغرض التجارة.

الواقع فرض سؤالاً منطقياً: ايّ نوع من التجارة ؟

لفت شير انتباهي الى هدير النهر واشار الى ان المرء القريب من الشلالات لايحس باقتراب الطائرات. نحن ندنو من قرية بيوتها ذوات السقوف المسطحة يعلو بعضها بعضاً. مصابيح الزرائب ترفّ وتومض مثل حشود من الحباحب[٥]. صوت يند من الظلمة وشير يجيب عليه ببضع كلمات فينهض مقاتل من الارض مخفضاً رشاشه الى صدره. ماتصورت ابداً انه قريب بهذه الدرجة اذ كان على قيد خطوات لااكثر. اني أباغت وميض سيگارة صادر من كتلة صخرية وتمتمة أغصان في صدر غيضة. حقاً ان الكردي يعيش في جباله. قادنا المقاتل الى خيمة عسكرية مدعوسة تحت ضغط الاغصان عليها. واوضح شير قائلاً:

٥ـ حشرة فوسفورية الجسم يضيء جسمها في الليل.

ـ هؤلاء هم (البيشمركه) المقاتلون النظاميون في الجيش الثوري الكردي. والكلمة تعني«الحظوة بالحياة» اما ترجمتها الحرفية فهي «طلب الموت في سبيل تحرير كردستان». سنرتاح هنا قليلاً ريثما تأتي سيارة (الجيب) لتنقلنا...

كانوا ستة من الرجال بتجهيزات وثياب متشابهة الاّ باختلاف الوان العمائم. وفي داخل الخيمة المضاءة بمصباح مسدود رحبّ رئيسهم بقدومي وقام «شير» بترجمة ذلك. افسح لي فوق بساط من صنع محلي تطرزه نقوش هندسية غريبة ذات الوان صارخة . كانوا يجلسون القرفصاء وهي جلسة تتطلب كثيراً من التمرين الشاق وصرت ادون ملاحظاتي على نمط الناسخ المقرفص. قدمت لي سيگارات عراقية من صنع مدينة السليمانية اغتنمت من مخزن اعاشة للعدو اثر غارة ليلية وجاء احد البيشمركه بصحفة من الارز المطبوخ وباقة من البصل الاخضر وبيض مسلوق وجبن ابيض محلي الصنع من مخيض النعاج ورغفان خبز تشبه رقائق قماش الكريب ووعاء نصف ممتلىء بسائل حليبي غطَسَتَ في جوفه مغرفة وصفه لي شير بقوله:

ـ انه (الدوغ). وهو لبن رائب ممزوج بالماء.

تذوقت هذه الشربة الثخينة بحذر وارتياب فاستطبت حموضتها. لن تلبث هذه الشربة لتكون ملازمة لي في جولاتي. شرب المضيفون بعدي من المغرفة نفسها واكلوا فتفحصت الوجوه البرونزية السمراء التي افترستها اللحى واستعدت في ذهني بعض الصور التوراتية...«طلب الموت في سبيل تحرير كردستان» رأيت فيهم وهم في ملاعبهم الجبلية«موريتوري» حلبةمصارعة القدماء، مصارعون رومان معممون في معركة تحرير هي عندهم كالعقيدة... ولديهم ايضاً قيصرهم: ملا مصطفى البارزاني الزعيم العسكري والسياسي، الرجل الذي لايجادل في زعامته احد والذي لاغنى عنه. فعند اللزوم يستخدم السلاح بدل السياسة والدبلوماسية. عمل لي شير لقمةً من رؤوس البصل الاخضر ملفوفة في قطعة من الخبز الحنيذ وقال انها ضرورية لان هذا المطهر في هذه البلاد التي يعاني اكثر سكانها من الاسهال والزحار يستخدم كوسيلة من وسائل الوقاية. وفي الواقع لاتخلو وجبة طعام كردية من البصل الطازج.

في اثناء شرب الشاي دار الحديث حول الرحلة. المعركة كانت محتدمة حول رواندوز والجيش المتفوق عدداً وعدة كان يحاول شق طريقه بتهور ونزق. ولم يعهد قط قتال بمثل هذا العنف والضراوة وطفق الرئيس يشرح الموقف، قائلاً.

ـ يبلغ تعدادهم ثلاثون الفاً على اقل تقدير ماعدا (الجاش). ولديهم حوالي مائة مدفع ثقيل الى جانب المدفعية الخفيفة والمصفحات والطائرات. انهم يقصفوننا دون انقطاع ويرشّون خطوطنا بالناپالم وقواتنا يبلغ مجموعها خمسة عشر الفاً منتشرة على جبهة طولها خمسمائة كيلومتراً تمتد من (زاخو) حتى (خانقين) ولو توفر لنا السلاح الكافي لامكننا تجنيد عشرة اضعاف هذا العدد. وامام (رواندوز) يوجد ربع جيشنا اي مايتراوح بين ثلاثة آلاف واربعة كحد اقصى بمعنى اننا نقاتل بنسبة واحد الى عشرة. منذ خمس سنوات

والوضع على هذا الشكل ونحن لانعرف الهزيمة. ان (پيشمرگه) واحداً في جباله يمكن ان يصمد بسهولة امام عشرة من الاعداء. لكن هنالك الطائرات ونحن نواجهها باثنى عشر مدفعاًجلها من عيار (١٠٥) ملميترات غنمناها من العدو في المعارك الماضية وسلاحنا مصدره بالدرجة الاولى انتصاراتنا فنحن لانملك مالاً لشرائها، ولو توفر لدينا المال فلا احد يوافق على بيعها لنا.

ـ بم يقتات البيشمرگه؟

ـ بما يحمله او مايجده. وطعامه الرئيسي هو اللبن والجبن والرز او البرغل (مطبوخ الحنطة المسلوقة المسحوقة المجففة) والحقيقة هي ان طعامه في معظم الاوقات قاصراً على الخبز اليابس وماء السيول والشلالات. وان تسنى له فهو يهّيء الشاي على نار من الحطب وفي ايام الصوم قد يمتع نفسه بسفود صغير من لحم الضأن المشوي. وستحكم انت بنفسك بعد ان تشاطره العيش...

ولم يكن ثم بد من ان ارسي على المشكلة الحساسة اعنى (الجاش) وفي الحال اتخذ الحديث طابعاً مثيراً بصورة خاصة. وكانت تتخلله لعنات وايمان غليظة بالانتقام. فالخونة في كردستان يعتبرون في مصاف القتلة والقاتل الذي يغتال ضحيته ينجر عمله اتوماتيكياً الى(توله) أي الثأر «فعدو الأخ لايمكن ابداً ان يكون صديق الابن» وهو مايؤكده المثل الكردي الذي يدعمه المثل الاخر« لخير ان يكون الدم في اليدين من ان يبقى في الذمة ديناً» وهذا ماينطبق بصورة خاصة على دين الشرف. ولقد علمت كذلك ان ملا مصطفى البارزاني في واحد من مجهوداته لتوحيد الصف واجراء المصالحة الوطنية اشاد بنبل وسمو فضيلة الصفح عن الاخوة الضّالين وكان دوما يرفض طلب اولئك الذين يريدون رؤوس الجاش الاسرى... هذا اذا كان ثم اسرى منهم حيث يؤكد المثل [والامثال هي قوانين الحياة في كردستان] «من لاشعور لديه بالشرف لايدخل الجنة» وعلى هذا الاساس فغالبا مايجرى في الجبل اجراء الحكم القطعي المقرر.

ترى كم هو عدد هؤلاء الجاش؟ هناك ارقام بغداد . العدو في الواقع يزعم انهم ثلاثون الفاً الامر الذي يخولهم حق الادعاء بانهم يمتلكون جيشا كرديا اكثر من القوات التي هي الآن تحت امرة (البارزاني) وبالتالي فهم ينكرون وجود الثورة. ان البيشمرگه يهتكون هذه الكذبة هتكا ويفضحونها بقولهم «مادام الامر كذلك فيجب ان يتغلبوا وهو العمل الذي نتقنه خير اتقان نحن الثوار في مقارعتنا الجيش والجاش معاً وفي عين الوقت. والجاش فيما يبدو فرحون بهذه الخدعة التي جعلت منهم مطايا لحكومة بغداد. والواقع هو ان هؤلاء الخونة يقاتلون تحت امرة زعمائهم التقليديين الذين يتقاضون خمسة عشر ديناراً او اقل شهرياً عن كل شخص يُسلح ويُجهز ويُطعم، مع حق النهب والسلب (وهذا المرتب في العراق ويعادل اكثر من ٢٥٠٠٠ فرنك فرنسي، هو مرتب جيد. لذلك كان لرؤساء الجاش كل الفائدة في تكثير عدد اتباعهم من اجل زيادة دراهم يهوذا[٦] ان الحاحي جرّ محادثي

٦ـ يهوذا في الانجيل احد تلامذة المسيح الأثني عشر خانه وسلمه لليهود لقاء ثلاثين قطعة من الفضة. ولذا صار مضرب مثل في الخيانة لقاء ثمن بخس.

الى ارض حساسة صاروا يقتربون منها باحتراس وحذر. فهؤلاء الجاش هم كما لايخفى من ابناء جلدتهم وعددهم في الحقيقة بين خمسة الاف وستة . والاعراف القبلية مازالت محافظة على مكانة وهيبة معينة في كردستان الا ان الوهن اخذ يعتريها بسبب تغلب الحياة العصرية.

وملحمة البارزانيين تقوم دليلاً قاطعاً، نزاعات تقليدية قديمة ومنافسة بين شخصيات تلعب كذلك ادواراً كبيرة في مجتمع طبقي الى اقصى حدود الطبقية. والزيبار المنطقة المجاورة لبارزان لاتمارس اية سلطة دينية او سياسية على منطقة الزاب الكبير التي يسودها نفوذ (الشيخ احمد) الاخ غير الشقيق لملا مصطفى البارزاني. ومن المعروف انه نشأ في الماضي منافسة ودية، وقدر لهذه المنافسة بالواقع ان تتعطر فيما بعد برائحة رومانتية لاجل اغواء الروح الشعبية وكانت ادوات الزينة التي تم الاتفاق عليها هي ان يتزوج ملا مصطفى البارزاني بواحدة من بنات (محمود آغا) زعيم الزيباريين (همايل) الزوج الثالثة التي قيل انها كانت الفضلى لديه. الا ان هذا القران لم يَحُل مطلقاً دون انحياز (محمود آغا) منذ بدء الاعمال العسكرية قبل خمس سنوات الى جانب الحكومة واجتذابه في مسار سفينته كل رجال عشيرته.

كل من كان برسم البيع او اولئك الذين اثاروا خلافات جوهرية حول اسلوب النضال لم يكونوا يجدون اية نتيجة ايجابية من المعركة فراهنوا على نصر بغداد فيها. وهناك آخرون اختاروا (بدافع اخلاص او لمطامع) ان يتحالفوا مع الشيطان نفسه للتخلص من وصاية ملا مصطفى. وهناك فريق ثالث راحوا يتاجرون بالمصالح الذاتية (لصوران) ضد قاطع الطريق البهديناني العجوز. فيحاولون تأليب الخواطر عليه. ان كردستان العراق تتألف من صقعين مختلفين هما (بهدينان) في الشمال و(صوران) في الجنوب ويفصل بينهما نهر الزاب. وكذلك اذا كانت الكردية هي لغة الطرفين (وهي هندواوروبية واخت الفارسية)، فان لكل من الصقعين لهجته المتميزة: الكرمانجي في بهدينان والصوراني في صوران. وروانـدوز تقع على حافة الاقليمين واهلها يتكلمون اللهجتين ولان ملا مصطفى البارزاني من اهل الشمال فهو يستشعر بانه غريب بعض الشيء في الجنوب حيث تدور المعارك. الا ان الذين لايحبونه يهابونه وهو موضع اعجاب من الاغلبية الساحقة . اخيراً ان هناك حكام بغداد المختالون المخادعون الذين يرون فيه مثيرا فتن وقلاقل ليس الا.

مع هذا فالجاش خصم لايستهان به. فهم كرد اي جبليون يتمتعون بعين كفاءات المقاتل البيشمركه الذين استهانوا بمقدرة عرب الصحراء والسهل القيادية. شجعان الى حد التهور، ولاينال منهم التعب والضنى. لقد برع الكردي في نصب الكمائن «وفي الهجوم» ايضا، وهو لايتولى الادبار في معركة نظامية بل يتقدم اذا انخي حتى يلتحم الجسد بالجسد الا انه يحاول جر المعركة الى ساحته المفضلة وهي اعالي الجبال فهناك لايخشى احدا سوى الطائرة وقنابلها ونار رشاشاتها اذا ماكتشفته. على أن شجرةً او صخرةً تكفيه للاستتار واجتنابها. جبلي مرح ذو حيوية ونشاط وفارس لايجارى في كل الظروف،

ملك القمم يقوم بكل ارتياح ورغبة بهجوم ليلي في السهل فينشر الهلع. وقوات العدو المحتشدة في القصبات والمدن لاتظهر نفسها الا في النهار. وحسبها ان تسيطر على محاور الطرق بوحداتها المدرعة. نسي «شير» ورفاقه منساقون في اعتزازهم الكردي، انهم يشركون (الجاش) في هذا الاطراء. وبامكاني الشهادة بانٍ وصفهم هذا لانفسهم لايتجاوز الحقيقة وهو وصف مشروع تماماً نظرا لمزايا القوم. عقّبتُ بقولي:

ـ اذن لابد وان يكون الاشتباك بين البيشمرگه وبين الجاش عنيفاً...

ـ نعم ولا. القتال الفردي هو اشد ضراوة بكثير مما لو كان الكردي ضد العربي. لكن بما انهم صاروا من المرتزقة فقد اوهنوا شجاعتهم الفطرية وفقدوا الايمان الضروري لكل نضال. انهم يشعرون بالعار والذلة المتأتية من عقدة الشعور بالخيانة. ونفس الشيء يصدق بخصوص تسديد الرسم «الگمركي» بتزويد البيشمرگه بالسلاح فانهم ينضمون الى صفوفنا عندما لايجدون فائدة من المعارك.

في غضون شهر نيسان وكان يتسم بهدوء نسبي انضم الى صفوفنا من الهاربين اربعة وسبعون معظمهم من (الجاش).

وقال الرئيس:

ـ الكردي لايستطيع ان يقاتل طويلاً في صف العربي ناهيك بالقتال من أجله.

ـ عندما يسلّم الجاش من تلقاء نفسه، ماذا تفعلون به؟

ـ اذا كان قد ارتكب ذنبا فمصيره مرهون بارادة من جنى عليه. الكفن والسيف في رقبته. أعني سيكون تحت رحمة المغدور به، لكن لايمكن ان يرفض طلبه في العفو. ان روح الانتقام قد زالت.

صرت افكر في هذه البلاد، بلاد البؤس والفاقة حيث لاوجود البتة للوقاية الصحية وحيث معدّل الاعمار لايتجاوز الثلاثين عاماً لمن يفلت من موت الطفولة المريع بكثرة. ربما هذا يفسر الجرأة والاستخفاف بالموت بل والاحساس الفوري به. هذا الاختيار للنهاية العنيفة... الموت هو الموت فلم العذاب؟... هذا مايقوله المثل ... يسمع هزيم مدفع. حاولت تحديد الموضع الذي انا فيه فسألت شير عن اسم القرية فاجاب بان هذا لايفيد، اذ لااحد يجب ان يعرف الطريق الذي سلكته. وغاب عن بالي اني كنت احد المراقبين المستورين لحرب مستورة. اقبل احد البيشمرگه برسالة ملفوفة بعناية كان يخفيها في طيات حزامه وقال الرئيس بعد قراءتها:

ـ في خلال اليومين الماضيين تكبد العدو خمسمائة قتيل على الاقل.

الرئيس لايتميز بشيء ما عن اتباعه وهو نبيل المظهر بوجه دقيق القسمات وشارب بالكاد يبين والجيش الكردي يجهل الاوسمة وشارات الرتب. وفي اثناء القتال ينام ملا مصطفى البارزاني نفسه في الهواء الطلق فوق بساط كأيّ جندي بسيط.

تقدمت سيارة الجيب ووقفت امام الخيمة وكل انوارها مشعلة. انها لاشكّ قد عانت كثيراً من الصدمات حتى بلغت الضربات التي نالتها الاربعمائة ووشمت بنوع من الجدري الذي كان بالامكان قطع الطفح العالق منه بصفائحها الحديدية. اتخذت مجلس

بجانب السائق، وانحشر شير بين اثنين من البيشمركه في المقعد الخلفي كانا جامدين كالتماثيل وكلّ بندقيته قائمة بين ركبتيه. واندفعت (الجيب) في الطريق المليء بالحفر تتلمس بصعوبة مكانها بين الوادي والكتل الصخرية العالية. ثبّتُ نفسي في ركيزة المقعد المهشم وانا موزع النفس بين الخوف الذي اشاعه فيَّ قِدم السيارة وبين فخاخ هذه المفازات الموحشة التي كانت تكشفها الاضواء لي بلا رحمة عند الخروج من كل عطفة طريق. على ان عقدة خوفي انحلت لتؤدي واجبها في الاعجاب بمهارة السائق وحذقه.

ان الخيول البخارية تتواجد هنا في الجبل وهي كالاخرى لاشكّ في وجودها. بعد ان نلنا حماماً مثلوجاً من مسيل ماء اساء تقدير حماسته في القفز على الصخرة المعترضة سبيل مساقطه، بلغنا سافلة الوادي أي النهر واخاه التوأم الطريق اوقفنا حرس على الجسر.. وادهشني العثور على قنان من الكوكاكولا في بيت نصف مهدم حيث يباع كلّ شيء على ضوء الشموع. نادى شير احد البيشمركه الذي اجاب باسمه الاول (محمد) الكثير الشيوع. كان الفتى يعلق رشاشه متصالباً فوق صدره. راعني مظهره الفتي فسألت عن عمره.

ـ سبعة عشر عاما على اية حال كما تقضي القاعدة التي وضعناها. وامثاله في الواقع يجب ان يتعمدوا الغش للانضواء في سلك البيشمركه وهنا الكثير ممن يُزيدون في اعمارهم للمشاركة في القتال. ومحمد هذا برز في معركة (سفين) الاخيرة وهي واحدة من اعنف المعارك في حربنا هذه.وايضا المحاربون القدامى الذين تجاوزوا الستينات يتبعون ملا مصطفى البارزاني منذ ثلث قرن...

واكد (محمد) انه يبلغ الثامنة عشر فكذب على نفسه وشيعنا بتكشيرة خبيثة بينما وثبت سيارة الجيب فوق الجسر. النهر الدفاق تحتنا صخّاب هادر. خيل لي انه لايخلو من جمال فقد بدا لي بشفافية وهمية عند انعكاس اضواء السيارة عليه... قطعان من الماشية أخذت تعرقل سبيلنا. الرعاة المهتاجون يستاقونها قبل انتشار نور النهار في الدروب المؤدية الى المراعي مبتعدين في عين الوقت عن المنطقة التي تدور فيها المعارك. هذا البحر الحيواني المتلاطم يعود ليسد الطريق بكل عناد امام (الجيب) وكان علينا ان نستبق القوافل اللامتناهية من الخيول التي كانت تنقل المخيمات. لقد علتها النسوة بوسيلة لايدرك كنهها واتخذن مجلسهن فوق اكداس من الاوعية المنزلية. اطفال نيام في خروج السروج تتمايل رؤوسهم. في كل فرجة من الطريق تجد عنزاً بشعره المسترسل او خرافاً ضخمة بصوفها الكثيف تشتعل عيونها في دجلة الليل بنار شوق المدلة الولهان فتقذف بانفسها الى جرف النهر او تتشبث ـ وقد بلّدها الضوء ـ باطناف الجبل. والكلاب الشرسة السريعة الهياج كالذئاب تزداد شراسة وعنفاً في ملاحقتها سيارة الجيب اكثر من اهتمامها بجمع واحتواء الموج الخرفاني. قابلنا ومرّ بنا فرسان من البيشمركه يقومون بالاتصالات الليلية فكانوا يفسحون السبيل للسيارة بعد تبادل كلمات القصد منها التأكد من الهويات.

فجأة انحرفت سيارة الجيب الى اليسار ووثبت ثم تركت الطريق العام وباشرت صعوداً حاداً. مررنا بحفرتين من عمل القنابل على جانب الطريق الزاخر بالرائحين والغادين باستمرار. الطريق محظورة على الماشية الاّ انها مفتوحة للمقاتلين. ومنها دخلت حضن

قرية كبيرة مضيئة انوارها تتلألأ كبهو الكنيسة في ليلة عيد الميلاد، وتزخر بحشود لاغطة شاكية السلاح. في كلّ جهة اعداد من السيارات مختلفة الانواع. مركبات طويلة على النمط (الميروفنجي)[٧]تجثم على عجلات صغيرة من الخشب المصمت. هياكل محطمة لاتوبوسات استخلصت من مقبرة بائع خرداوات الحديد. لاندروفر اجريت اصلاحات عليها واعيدت للخدمة. وايضاً كوكبات من الفرسان تثير الغبار بسنابك خيولها وافواج من الحمير تنوء براكبيها وزمر من البيشمرگه تخرج بلا نظام من احشاء الظلام بشكل عجيب مثل خروج الاشياء من كيس الساحر الاسود. سألت نفسي: ايّ شكل من العبادة يتسابق الناس لها في ديكور هذا المذود المرتعش من المصابيح؟ بابسط عبارة انه موعد الاجتماع الكبير لمجلس الحرب. قال شير.

ـ هذه «گلاله».

الاسم في غاية العذوبة. وله ايقاع توراتي لانجيل رهيب جداً. (گلاله) هي القاعدة الرئيسية للجبهة الداخلية. انها القلب الجبلي لكردستان العراق النابض على ايقاع المعارك الدائمى بضغط دم عال مزمن. هياكل من الابنية المتصدعة منها المدرسة والمسجد تصلح لتكون منظراً ممتازاً لفلم حربي في عهد اخر. ان المرء ليتملكه شعور الـ(پوالو) في كتاب «صلبان الغابة» لرولاند دورجيليه[٨] وهو امام خرائب القرى المريعة الاشكال في منطقة الموز[٩] الاعلى.

گلاله الخالية في النهار. تتلألأ الآن بنجوم صادرة من مئات المصابيح. وهي في حركة دائبة لانها في هذا الوقت بالذات مركز تعبئة وتنظيم للمقاتلين الراحلين الى جبهة القتال او القادمين منها وهي السوق الكبرى (البازار الشرقي) بحوانيته العميقة المعششة في اصغر الاكناف وبسلعها وبمقاهيها المبسوطة فوق الارض. هاهو ذا «نادي الجندي»: هيكل مبني بالاسمنت من غير تخطيط هندسي «نصف متهدم». ومرتادوه يتبادلون قصص المعارك التي لاتنتهي. مضمّخون برائحة قوية من سفافيد اللحم المشوي الذي يُدفع الى الجوف بالشاي او بالكوكا كولا او بالماء. ولايتفق هنا ان تفرّ الگلاليات المحتشمات من ازدحام الشارع الرئيسي الشديد وينسحبن الى مؤامرتهن في زوايا سطوح شرفاتهن.وعدا النساء المشروبات الروحية المحرمين دينياً بامكانك ان تجد كلّ ماتريد من الضروريات والكماليات: النافع منها والزخرفي، حلوى الوداع عند التوجه الى المعركة، والهدية بمناسبة سلامة العودة. باعة جوالون وتجار محليون هناك ايضا كغيرهم يتلاعبون بالاسعار تحت غطاء الحرب ويقبلون كل عملة من الدينار العراقي الى الريال الايراني ومن الجنيه الانكليزي

٧ـ نسبة الى سلالة ملوك فرنسا الاولى. التي تعرف بـ (ميروفيني) او(ميروفنجي) وقد ادالها شارلمان في العام ٧١٥م.

٨ـ رولاند دورجيليه (١٨٨٥ ـ ١٩٣٧) كاتب فرنسي وقد اشتهر بكتابه المذكور في المتن وهو عن مآسي الحرب العظمى الاولى في الجبهة الفرنسية. و(پوالو) هو اسم اطلق على الجندي الفرنسي اثناء تلك الحرب ومعناه كثير الشعر او الشعراني.

٩ـ نهر الموزينبع من جبال الالب ويمر بكل من فرنسا وبلجيكا وهولندا حيث يصب في القنال.

الى الدولار الامريكي. وحسبك ان لاتعترض على سعر الاستبدال. والپيشمرگه يتقاضى مرتباً شهرياً قدره خمسة دنانير (٧٥) فرنك مع اضافات ان كان عائلا لاسرة. ومن يكون من الكوادر ينال بالبداهة اكثر على ان كثيراً مايوجد من ذوي الاملاك والمصادر الشخصية التى تركوها بسبب الثورة.

بان الانزعاج على شير عندما سألته عما اذا كان لدور البغاء وجود فرد قائلاً:

ـ لاوجود للبغاء عندنا ولا للواطة. فقد تركنا ذلك للآخرين.

من سطح بيت الى سطح بيت ترى الناس ينامون ويسمرون ويأكلون في جو النجوم الرائع. بلغت مقر القيادة وكان بيتاً عارياً خالياً من الاثاث لكنه كان اشبه بخلية النحل مدخله غاص بالرائحين والغادين المستعجلين.الاوامر والبلاغات مفروشة على الارض فوق السجاد وليس هناك تلفون. ان مايوجد من اجهزة الاتصال هي لدى الوحدات العاملة في الجبهة: عدد محدود من اجهزة الارسال اغتنمت من العدو. اعصار من السعاة وناقلي رسائل مطوية مضغوطة باحكام مثل رسائل العشق. البحث يدور حول كل الامور وفي عين الوقت. الحرب وشؤون الحياة العادية متمازجين لان جبهة الحرب تشمل في الواقع البلاد كافة.

في گلاله اكتشفت تناقضا في مظهر منطو على مفارقة تاريخية. الا ان الحفر المحترقة بفعل قنابل الناپالم والصدوع التي احدثتها الصواريخ تنذر كرد فعل كل من يهمه الامر بخطر الطائرات الدائم ان علم الموت لايستثني الرعاة انفسهم. وگلاله المنهوكة نهاراً لم تعانِ مع ذلك الا غارة جوية واحدة: سقطت القنابل في آن واحد على المسجد والمدرسة الرمزين الثنائيين. في ليلة الجمعة المنشودة تلك، كان المسجد مكتظا بالمصلين يؤدون صلاة الجماعة. وجاء الله في عون الكرد فلم تنفجر قنبلتان من أصل ثلاث القيت. ولم تحدث المنفلقة منها الا اضرارا مادية. والآن لايجرأ الطيران العراقي على المغامرة بشن غارة فوق گلاله الا فيما ندر فقد تم نصب واحد من اربع مدافع مضادة للجو يملكها الجيش الكردي فوق قمة صخرية تشرف على القرية لتقوم بتمشيط سماء الوادي وبسبب هذه القمة فقد اضطرت الطائرات الى الاعتماد على حاسة خاصة اثناء هجماتها الغادرة. فالميگ والهاوكرهنتر لم تعدا تجرآن على الطلعات بكثرة لتنتحر.اما (اليوشناتهم) فقد راحت بعد هذا تحلق على ارتفاع كبير وان تتخلص من حمولتها من القنابل قليلاً قليلاً وكيفما اتفق. واحدة منها هبطت منقضة الى ارتفاع قليل لكنها لم تستطيع عبور الجبل فاصطدمت بالقمة وتحطمت مع حمولتها من المتفجرات. اقبلت لتقصف المقر العام لمكتب الثورة التنفيذي الذي كان في الوادي المجاور وكانت في الوقت نفسه تجهل وجود المدفع المضاد للجو المتواضع. تمكن (أمين) المدفعي من اصابة هدفه بالمقذوف الثاني، قال لي:

ـ لقد وعدت باشياء كثيرة في حالة اصابتي طائرةً. وعدني احدهم بحصان، وآخر تعهد لي بيد ابنته، وثالث بنصف متجره. وكلها كانت وعوداً في الهواء اذ لم يبر بها احد... الاّ ان ذلك سيان عندي. لقد اعطوني مسدس الضابط الطيار على سبيل المكافأة.

(امين) يدس هذا المسدس في حزامه كسائر القياديين وهو ايضاً يتقلد شكة سلاح كاملة

الا انه يلعن تلك الشيطانيات التي يبديها العدو الخالية من الشجاعة او الشعور بالخطر... كان ثم اربع جثث مشوهة مستقرة بين حطام طائرة الاليوشن. الضابط الطيار اسمه (خالد محمد) ورقمه (٦٠٦٩) عثر في جيبه على مفكرة يومية دقيقة الوقائع مكتوبة باللغة العربية فطلبت ترجمة محتوياتها: تسجيل مفصل للقصف المنظم الكثيف للقرى، واصلاء القطعان والماشية بنيران الرشاش، وهو اهم الاعمال العسكرية في كراسة الموت هذه.

ختمت ليلتي عند شفيق (آغا) وهو واحد من مفكري الثورة الكردية. يقطن في اعلى مكان من (گلاله) ومنزله متكيء على صدر الجبل ومن نافذة فيه شاهدت اول خيوط من نور الفجر مع اطفاء الانوار واغلاق السوق (البازار). (شفيق اغا) رجل ناضج العمر. ومن الطبقة العليا في مجتمعه، عليه هو الاخر بزة قتال بشكة سلاح كاملة. اسفاره الكثيرة اكسبته عمقا في التفكير ونظرات ثاقبة. وقد اكد لي أن مايجري الان في رواندور قد يسفر عن اعظم معركة خاضها قومه قلت له اني عظيم الاهتمام بان انصب نفسي شاهداً عدلاً على مايجري هنا. فاظهر شكاً في جدوى ذلك وقال متنهداً.

ـ اننا منسيون تماماً من العالم كله. والمقول انه لااحد يتجاسر على التصريح بالحقيقة عنا فهو ضرب من المحال. وحتى لو انكشف واقع الامور فانه لن يحدث ردة فعل عند احد ما.

عاهدته على ان اقول الحقيقة فعقب شفيق آغا بقوله وهو يمد يده. ليس ثمة عمل انبل واشرف من التعريف بشعب. وهنا صاح الديك بصيحة التذكير[١٠] وانبرى شير ليوضح بان الديك حيوان له قدسيته لانه موكل بايقاظ الشمس من نومها.

النبع المجاور اغراني بالاغتسال. وانا الان اذكر امرأة في ريعان الصبا. طفلها مشدود الى ظهرها وهي تمتار ماء بجرتها. كانت ترتدي سروالاً فضفاضاً يغطيه ثوب سابغ قفطان بدون ازرار محزوم على خصرها بشريط متعدد الالوان. شعرها منسدل بجدائل تعلوه قلنسوة صغيرة مطرزة يتوجها منديل رقيق ذا الوان قزحية. والمجموع كله يؤلف (سمفونية) على لحن الاحمر الصارخ والاصفر والاخضر وهذا احب واجمل الالوان في نظر الكرد. نساء الكرد لايحتجبن ولايسترن اوجههن بنقاب مع ان معظمهن مسلمات لكن يضعن على رؤوسهن غطاء ولايرفعنه... كل ايماءة او حركة من هذه المرأة الصبية تصاحبها رنات اساور وقلائد واطواق. ولحظت في مقدمة حزامها صفاً من المسكوكات

١٠ـ هنا اشارة اخرى الى واقعة وردت في الانجيل ففي العشاء الذي سبق القاء القبض على السيد المسيح مع تلاميذه الاثنى عشر. التفت السيد المسيح الى تلميذه (حواريه) بطرس وتنبأ له بقوله انك يابطرس ستنكر معرفتك بي عند صياح الديك وهكذا كان فقد لحق بطرس بالحرس الذي اقتاده السيد المسيح الى دار قاضيه اليهودي وجلس يصطلي وتفرست فيه احدى جواري المنزل فعرفته وهتفت هذا هو واحد من تلاميذه فدب الخوف في قلب بطرس واسرع ينكر ذلك وعند ذلك صاح الديك فتذكر قول سيده وانشأ يبكي نادما.

المعدنية خيط فيه. انها سمراء البشرة سوداء العينين دقيقة الانف ممتلئة الشفتين... جميلة فعلاً وهي تدرك ذلك. في اثناء انتظارها امتلاء الجرة كانت تروح وتغدو حول النبع لتهدئة طفلها المشاكس. حملها هذا العالي القدر ليس الحمل الوحيد الذي تتولاه المرأة الكردية فهناك اثقال اخرى اعتدن حملها الى جانب الاطفال على العواتق والرؤوس والمناكب. كان بعض شك واحتراز يساورها من اقترابنا الزائد نحوها الا انها وافقت مع ذلك على ان تبوح لي باسمها... (گلي) اي زهرة.

الطفل الذي لف في اقمطةٍ ملونة كثياب امه، كان كما تمليه العادات مثقلاً بالاحجبة والتعاويذ والطلاسم، كِسَرٌ من العقيق، شظايا من حجر الجزع، أكياس صغيرة غامضة المخبر مملوءة بمساحيق سرية، ادعية سحرية. آيات قرآنية وقاية له ومحافظة على حياته فقد جاء في الامثال الكردية ان البيت الذي فيه طفل لايدخله الشيطان. «والطفل الكردي الذي يفلت من غائلة الموت في سنواته الاولى يبسط الله عليه الحماية رغم تعرضه في بواكير عمره لحياة شاقة قاسية.

لم تبد «گلي» امتعاضا او نفاراً شديداً الامر الذي شجع «شير» على اللحاق بي. الا انها لم ترفع الكلفة ولم تباسطنا الحديث. فالمغازلة في كردستان امر خطير ولامزاح فيه والموت مآل الزانية اما بيد ابيها او بيد احد اخواتها. والعزوبة هي الاخرى نادرة مثل ندرة تعدد الزوجات. فقليلاً ماتجد من يمنى باكثر من واحدة. وهم يؤكدون بان من يتزوج امرأتين يغدو حاله كحال البواب. كما يؤكدون كذلك ان الزوجين وهما على العموم يعيشان في وئام واتحاد كاملين ـ وان يكونا مثل «المعول والمجرفة» لاتفترق هاتان الاداتان الا عند حفر قبريهما. والمرأة الكردية هي دعامة البيت تجدها تنجز منذ الصباح الباكر حتى حلول الظلام اشق الاعمال المنزلية. فهي التي تخبز وتحلب وتصنع الجبن وتستخلص الزبدة (بخض الحليب في قربة من جلد المعز) وتجمع الحطب وتعجن من روث الماشية كعكاً يستخدم وقوداً وتصنع اللبنْ من الطين للبناء. وتقوم باعمال الفلاحة والبستنة كما تشارك في كثير من الاحيان في الشؤون العامة وتحل محل الرجال اثناء غيابهم دونما حرج او تردد. وليس ثم مزاح في المسألة التالية وهي كما يؤكدها القول المأثور «لاجل ان تفوز بامرأة عليك ان تأتي بكيس من الريالات الفضية او بغرارة من الاكاذيب» اي عليك ان تدفع اما بالاصفر الرنان او ببذل الوعود مهراً كبيراً (يتراوح بين ٢٥٠ فرنك و ٢٠٠٠) وهو مبلغ يرهق دخلاً ثابتاً من الدلال والغنج.

ذهبت (گلي) وجرتها محمولة فوق عاتقها بمظهرها الفخم لبوهيمية الاسطورة. الذراع اليسرى مستندة الى الوراء تعلو الرأس ممسكة بعروة الجرة. الا انها في حركة قفطانها المثيرة تذكرني بكل النقوش البارزة التي ترى في المنحوتات القديمة والاثرية. رأس الطفل المحلوق يتمايل فوق ظهرها بايقاع متسق ومشية الام وفق نظام موسيقي مقطّع. قال لي شير ان زوج گلي يقاتل الان في جبهة رواندوز.

حامية گلاله واهاليها يتفرقون الآن جماعات صغيرة في منعطفات الجبال. والى الشرق

تكتسي القمم بلون احمر وتعطي الثلاجات انعكاسات فضية مذهبة. الى الغرب مدفع يعلن قدوم النهار. تقدمني شفيق اغا[١١] فسرنا لنجتاز مرجاً محروقاً مشققاً بفعل قنابل الناپالم. واحضر احد البيشمرگه ابسطة مع مايلزم لطعام وجبة الغداء. وتابعنا سيرنا الى كهف صغير ضيق المنعطفات يكاد لايبعد اكثر من ثمانمائة متر عن (گلاله). البلدة خالية لاتجد فيها غير بعض الكلاب السائبة والدواجن. والمدفع المضاد للجو يتشمم السماء التي اخذت تتألق بالالماس الازرق. اشعل البيشمرگه ناراً من اغصان الشجر لتهيئة الشاي وقام شفيق اغا وشير بفرش الابسطة والاغطية ثم دعياني الى الاستلقاء لاغفاءة تتخللها الاحلام لان الليلة التالية ستكون حافلة بالحركة. لم اجد عندي رغبة في النوم، فلقد شعرت وانا في هذا الصمت المنير بروح الكشاف الفتيّ الذي يهم بلعبة حرب صغيرة. ان (گلاله) بمنازلها ذات الاسطح المستوية ولونها الاغبر التي تتعلق بسفح الجبل لهي اشبه بفطيرة من الرمل مبتكرة. اول طائرة (ميگ) مرت خفاقة الجناح قبل السابعة بقليل. لاشك انها اقبلت للتحقق من اخلاء البلدة.

١١ـ شفيق احمد آغا احد رجال الثورة الكردية المعروفين باخلاصهم وتفانيهم ورجاحة عقلهم. صديق حميم لمعرب هذا الكتاب. عضو المكتب التنفيذي لقيادة الثورة واحد خلصاء المغفور له البارزاني وذوي المكانة عنده تعرض لحادث اغتيال في ١٩٦٧ فنجا باعجوبة وقد قتل حارساه في كركوك. عين مديراً عاماً لمعمل التبوغ في السليمانية بعد اتفاقية آذار ١٩٧٠ ولجأ الى ايران بعد توقف الثورة في العام ١٩٧٥. انه آثر العودة الى العراق ليعيش في عزلة. ولكن يد الاغتيال التي راحت تمتد الى رجال الثورة السابقين لم تخطئه هذه المرة فراح ماسوفا عليه في العام ١٩٨١.

الفصل الثالث

شعب نسيه التاريخ

(شيري پيس دوجاره شه ر دخوازي)
الاسد الخامل يقاتل مرتين
(مثل كردي)

ادى المدفع المضاد للجو واجبه من النباح وراء ثلاثي من طائرات هاوكرهنتر وهي تقوم برسم لوحة من طيران كجوارح الطيور مرّكز على سافلة الوادي. هذه الطائرات الانكليزية الصنع هي اخوف مايخافه الكرد، فانها اقل سرعة من طائرات الميگ السوفيتية واكثر مرونة واطوع للمناورة. انها تستنفذ «سلم لحن التعاسة»[1] والتدمير من صليات رشاشات الى القصف بقنابل الناپالم الى قذف الصواريخ كل ذلك في آن واحد. ويحكم الخبراء بانها خيرة ما وجد للقتال في الاراضي الوعرة.

كان (شفيق آغا) يعبث ساهما بمسبحته الكهرمانية. وهي اداة تساعد الشرقي على قتل الوقت. وبهدوء وكلمات موزونة رسم قرار اتهام قاس ضد اعداء شعبه ودعم قراره هذا بالشواهد التاريخية بالامثال التي لابد من ايرادها في المناسبة «لاتقل لهم اهلاً وسهلاً ابداً. انهم سيجلسون فوراً على فروتك ومعطفك». فيما وراء القمة حيث اختبأنا كان هزيم المدافع يتناوب القصف الجوي. والطائرات في طلعاتها الجهنمية فوق جبلي (زوزك) و (هندرين) قلب المعركة تقبل منعطفة لتحوم فوق (گلاله). راح (شير) يعبث ببندقيته بصورة الية. الكردي المقاتل التابع ملا مصطفى البارزاني لايدع بندقيته مطلقاً، وهي معه في فراش نومه. وهو يفضل البندقية الچيكية ذات السبطانة الطويلة لدقة تصويبها وقوة اثرها. وعليه في الواقع ان يحرص كل الحرص على ذخيرتها من الرصاص وان يصيب هدفه بكل اطلاقة. وجدت نقشاً على مغلاق بندقية شير.. سلاح قرصان حقيقي. هذا النقش يمثل اسداً قائمته العظيمة مرفوعة فوق قرص شمس وهو شعار الامبرطورية الفارسية.

استمتع رفيقاي قبل النوم بتدخين سيگارة. كانا مشغولي البال في واقع عزلتهم التامة فوق الارض وجهل الاوروپيين لكفاحهم. قلت لهما ان بعض الفرنسيين ـ باستثناء عدد من

١ـ السلم الذي يقصده المؤلف هو المدرج اللحني الموسيقي ويتألف كل سلم من نغمات متصاعدة وباستعارة هذا التعبير لوصف (التعاسة) يريد ان يقدم صورة دقيقة لصنوف البؤس والتعاسة المتدرجة بالصعود كالسلم الموسيقي.

المختصين بقضايا الشرق ـ يتذكرونهم لعلاقتهم بمذابح الارمن في اول حرب عالمية، وبقضايا الدروز. مقرين بان التبعة فيها تقع على عاتق الترك، وبعضهم الآخر يحتفظ بذكريات باهتة عن قضية الموصل. واستطردت اقول:

ـ فإذاماتسرب بعض الصدى من هذا الصراع الفعلي فان الدهشة ستعتريهم بمعرفتهم عن وجودكم في هذا الجزء من العالم، وسيدينون مبدئيا اعمال الشغب والاضطراب الذي تحدثوه، انكم تزعجون هؤلاء الناس الشرفاء وتقلقون راحتهم. لقد جسست نبض محيطي وكثيراً من اصدقائي الصحفيين الخلصاء.. انكم والحق يقال، شعب اهمله التاريخ.

كان (شفيق آغا) و(شير) يصغيان اليّ وعليهما علائم الحزن والكآبة لتأكيدي لهما هذه الحقيقة القاسية. في الوقت الذي تحظى دولة «مصطنعة» اصطناعاً[٢] برعاية القوى العظمى وتشجيعها فتقوم الان باستخدام كل الوسائل لابادة هذا الشعب من فوق هذا الكوكب ذلك لان ارضهم تستبطن منابع بترولية. ان الولايات المتحدة وانكلترا وروسيا ولانستثني فرنسا هم والحالة هذه شركاء في التواطؤ على هذاالقتل الجماعي.

خمدت نظراتهما مع خمود نار سيگارتهما وتركاني وجهاً لوجه امام تاريخهم في هذا الكهف المهتز الذي كان مأهولا منذ اول وجود للبشر باجدادهم وربما باجدادنا نحن. يعيشون مكابدين ومقاتلين ومكافحين تاريخ العظمة والبطولات لامنافس له يوحي بالاحترام والاعجاب الواجبين لكل شعب يناضل من اجل حريته.

في البدء هناك الاسطورة... المؤرخون العرب الأقدمون يعزون أصل الكرد الى كونهم من نسل (الجن) هؤلاء الجن القاطنون الجبال افترعوا اربعمائة من اجمل بنات الغرب اللاتي جيء بهن الى حريم (الملك سليمان) فاستشاط الملك غضباً وطردهم فعدن ليضعن نسلهن العجيب في بقعة موحشة من الارض قيل انها مقر الجن الدائمي فكان الشعب الكردي سليل هذا التزاوج وحياته مزيج متلاحم من القسوة والتشرد اذ نفخوا فيه هذه الطبائع، أخيراً كان ذلك لهم أم شراً.

والواقع يؤكد الاسطورة. ان اثر الانسان في كردستان محفور في التربة ومنقوش على الصخر في ليل من الزمن. هناك الواح آجرية تذكر ان (اداد نيراري الثالث) الزوج السعيد لـ(سميراميس) الجميلة ملكة آشور الاسطورية[٣] كان قد شن حرباً على القبائل الثائرة في البلاد. ولو نحن استنطقنا الاصول الموغلة في القدم للشعب الكردي وعلى ضوء لغته

٢ـ القصد هو الدولة العراقية التي جمعت اطرافها جمعاً مصطنعا دون النظر الى الواقع الجغرافي او الاثنوغرافي والتاريخي والاجتماعي ارضاء لمطامح الدول الكبرى واطماعها بعد الحرب العالمية الاولى.

٣ـ سميراميس (حوالي ٨٤٠ ق.م) لم تعد اسطورة بل حقيقة تاريخية بعد اكتشاف تمثالها في تنقيبات نمرود وهي فعلا ملكة اشور واسمها (شموراما) تزوجت اداد او (هدد) نيراري قائد جيشها وشاركها الحكم وقد ملكا معا في زمن حزائيل ملك يهودا حيث اكتشفت مسلة تؤيد غزوته لدمشق اثناء ملك (حزائيل) هذا.

الخاصة فسيتضح بشكل قاطع ان اجداد هذا الشعب الذين رسا عليهم شبه اجماع هم الميديون. جبليو زاگروس العتاة الغلاظ هؤلاء كانوا السباقين الى ان يصنعوا من بترولهم سلاحاً حربياً قبل ان يقدر للنار اليونانية[٤] الاشتعال. النار الميدية كانت الاولى في التاريخ وقد استخدمت بنجاح. ونحن الان نظراً لحساب الباحثين الكرد في العام ٢٥٧٩ من تاريخهم حيث ابتدأ عصرهم في العام (٦١٢ ق.م) عندما خرب (كيخسرو) ملك الميديين مدينة (نينوى) وقضى على الامبرطورية الاشورية واذا كان استياجيس (هشتاسب) حفيده في القرن التالي قد فقد نهائياً استقلاله على اثر نزاع داخل الاسرة فلم يكن الغالب المنتصر غير ابنه الصغير (كورش) الكبير ملك الفرس [٥].

لكن مهما كان مآل الاحداث فان الكرد الشديدي الحرص على قوميتهم وعاداتهم ظلوا كما كانوا شعباً متمايزا نقياً. ويشهد (هيرودوتس)[٦] على طبيعتهم الثائرة. و(كزينفون)[٧] لم يسعه الا الاشادة بهؤلاء (الكردوجي) المقاتلين العتاة نتيجةً للمضايقة التي لقيها منهم مماجعل رجعته الشاقة بـ(العشرة آلاف) صعبة للغاية. فقد ذكر في (الاناباسيس) يقول ان الاذى الذي سببوه له والخسارة التي الحقوها به تعادل كل ماعاناه جنوده من كل المعارك التي خاضوها ضد الجيوش الايرانية مجتمعة. ذكر ذلك عرضا في يومياته المشهورة تلك. لقد مر (كزينفون) من جوار راوندوز (يصعب على بني البشر احياناً اختيار سبلهم) وهو الموضع الذي تدور في ساحاته بعد الفين وثلاثمائة وستة وستين عاما اعنف معركة واقساها بين الكرد والعرب.

٤ـ عرفت النار اليونانية في كتب المؤرخين القدماء وهي مزيج كيمائي من مواد ملتهبة حارقة استخدمها اليونانيين ومن بعدهم الرومان البزنطيون في حروبهم البحرية لاحراق سفن الاعداء او لصبها من الاسوار على ادوات حصار المهاجمين.

٥ـ في الواقع ان كورش الكبير لم يكن ابن (استياجيس: هيشتاسب) اخر ملوك الميديين (٥٢٩ ق.م) وانما كان واحداً من احفاده لقد تغلب كورش الكبير هذا (٦٠٠ ـ ٥٢٩ ق.م) واسس السلالة الاخمينية الفارسية بعد تخريب عاصمتها اكباتانا.

٦ـ هيرودتس (حدود ٤٨٥ ـ ٤٢٥ ق.م) مؤرخ يوناني وصاحب اقدم كتاب تاريخ ولهذا عرف بأبي التاريخ. يدور كتابه الذي وصلنا كاملا حول حروب اليونان والفرس (٤٩٠ ـ ٤٧٩ ق.م) والاحداث التي سبقتها وسببتها. ويعتمد كتابه على مواد جمعها اثناء رحلاته في مصر وسوريا واسيا الصغرى واليونان وبلاد فارس ومابين النهرين وقد اختلطت فيه الحقائق التاريخيةوالجغرافية ببعض الاساطير والخرافات.

٧ـ كزينوفون (حدود ٤٣٠ ـ ٣٥٥ ق.م) قائد ومفكر يوناني تلميذ الفيلسوف الكبير (سقراط) وله فيه كتابان. في كتابه الثالث (اناباسيس) وصف دوره في حملة كورش الأصغر (٤١٠ ق.م) ضد خصمه ارتحشتا، وقيادته العشرة آلاف مرتزق من الجنود اليونانيين الذين خاضوا حروبا عدة ضد الفرس في اواسط البلاد العراقية ثم اضطر الى قيادة انسحابهم الى سواحل البحر الاسود عبر كردستان.

وبتعاقب القرون ظلوا متمسكين مطورين خصائصهم منشغلين في نزاعاتهم الاقطاعية الداخلية اكثر من تصديهم لمداخلات العالم الخارجي واقتحامهم جبالهم واذا كانوا قد ابدوا مقاومة شديدة للعرب واقتبلوا الاسلام ديناً مطوراً وفقاً للصوفية التي طبعوا عليها، ومن بعدهم المغول، فانهم ماعرفوا كيف يفيدون من هذا ويستغلونه لمصلحتهم ولا استطاعوا ان ينتفعوا من النزاعات بين الامبرطوريتين الفارسية والعثمانية ولا من شهرة وبطولات رجالهم العظام امثال صلاح الدين ابن ايوب اول من وحد العالم الاسلامي. ان شهرة هذا الرجل مازالت حية باقية في العالم المسيحي بفضل انتصاراته على الصليبيين في (طبرية) واستيلائه على (القدس) في القرن الثاني عشر: استعادة للاحداث غر يبة! الحكومة العربية في بغداد الآن تريد احتكار سمعة هذا الخصم العظيم المجيد لفيليب اوغسطس وريشارد قلب الاسد (٨) ليطلق اسمه على الكرد الجاش المنشقين الذين يحاربون الى جانبها ضد ملا مصطفى البارزاني وحلفائه المسيحيين فتخلع عليهم اسم «فرسان صلاح الدين»!

الّا ان نظام الاقطاع الكردي هذا رغم انقسامه على نفسه فقد كان يستبطن جرثومة قومية قوية جداً ما لبثت ان نشطت من عقالها عندما ترآى للاتراك واضعي اليد على الجزء الاكبر من كردستان بان يخضعوهم لسلطانهم وقوانينهم. وفي هذا الصدد ذُكر ان كسوفاً شمسياً في ٢١ آب ١٥١٤ ادىّ الى تغيير حاسم مؤبد في وجه الشرق الاوسط. مثل هذه الظواهر الطبيعية التي تشيع الرهبة في النفوس هنا، تفسر مثلاً بان غولاً او تنيناً ابتلع هذا الجرم السماوي ولكي يفزعوه ويرغموه على ترك غنيمته هذه تراهم يشعلون فوق الارض نيراناً شديدة كثيرة. ويضربون على القدور وينقرون الطبول وتنطلق الحناجر بالزعيق والصراخ،وفي ايامنا هذه تطلق العيارات النارية في الهواء. لقد وجدت الممارسات نفسها والعادة بعينها لدى شعوب الشرق الاقصى وبالاخص في (لاووس). اذن فجميع الظواهر الطبيعية الخارقة للعادة تُحْدثُ في كردستان ردود فعل غريبة. ان توازن الكرة الارضية مثلاً يتوقف على حركة ذبابة تضايق الثور الاحمر الذي يحمل عالمنا هذا. هذا الثور يتحرك من حين لاخر لذبها عنه وعن حركته هذه تنجم الهزات ا لارضية والزلازل كتلك التي وقعت في آب ١٩٦٦ وراح ضحيتها الالاف في اقليمي (ار ضروم وبتليس). واذا ماخطر ببال الذبابة ان تذيق الثور قرصةً شديدةً فانها ستلجئه الى اسقاط الكرة الارضية وبها سيكون

٨ ـ صلاح الدين يوسف ابن ايوب (١١٣٨ ـ ١١٩٣) نزح ابوه من كردستان وولد في تكريت (العراق) وتوفي في دمشق. مؤسس الدولة الايوبية. واكبر ملوك المسلمين وسيدهم في ايام الحرب الصليبية الثالثة. انتصر على الزنكيين واحتل سوريا ولبنان وفلسطين ومصر والموصل واستولى على طبرية وهزم الصليبيين قرب (حطين ١١٨٧) واسر ملك القدس وفتح بيت المقدس اشتهر بانسانيته وحسن معاملته فكسب احترام خصومه. فيليب الثاني الكبير (اوغسطس) ملك فرنسا (١١٦٥ ـ ١٢٢٣) شارك في الحملة الصليبية الثالثة ونازل السلطان صلاح الدين بمشاركة ريشارد قلب الاسد ملك انكلترا (١١٨٩ ـ ١١٩٩) وكان لكلا الملكين علاقات احترام واكبار لخصمهما الكردي المسلم.

نهاية العالم.

وهكذا، ففي الحادي والعشرين من آب ١٥١٤ تهيأ للنزال جيشان عظيمان بالقرب من (چالديران). اشاع الكسوف الاضطراب والرعب في نفوس الفرس الذي كان شعارهم (الشمس) وافعم خصومهم حبوراً وتفاؤلاً اذ وجدوا فيه فألاً طيباً فانتصروا. وقام السلطان سليم الاول الفاتح [٩] بتقسيم كردستان الى خمس امارات تحكم وراثياً وتدين من حيث المبدأ بالطاعة والخضوع التامين له. الاّ ان هذه الامارات في الواقع لم تلبث لتصبح كلّ منها دولة داخل دولة. ومارس سلاطين آل عثمان سياسة مركزية اتخذت قرناً اثر قرن طابعاً استبدادياً قمعياً مطرداً. وعبثاً حاول الشاعر الكردي الكبير (احمدي خاني)[١٠] يدعو شعبه الى الوحدة لمقاومة الترك والعرب والفرس معاً في آن واحد. كانت على الدوام دعوة لاطائل منها لدعم الكفاح لاتستطيع ان تمضي الى ابعد من ذلك بسبب التركيب الاجتماعي. فالكردي لايعيش الا لقبيلته وبقبليته كالنحلة التي تقاوم من يهاجم قفيرها والنملة تدافع عن بيت نملها. وذلك عندما يغدو الاتراك مصدر تهديد التوازن الجماعي للشيوخ والرؤساء الكرد ذوي السلطان المطلق. فبقاء هذا الرباط القبلي القوي هو في الحقيقة مصدر قوة كردستان اليوم وهو في الوقت عينه مصدر ضعفها. وهذا الرباط مع ذلك ينشىء ذلك الشعور القومي الذي ينقل النضال من الخصوصيات الى العموميات ويخلق تضامنا فعالاً.

في العام ١٨٠٥ اعلن (عبد الرحمن باشا بابان) السليماني اول ثورة عظيمة. وسار على نهجه في النضال امراء وشيوخ من بعده الاّ أن تلك الانتفاضات مع ما تخللها من اجراءات قمع وتنكيل واضطهاد ومذابح. لم تتوقف حتى العام ١٩١٤ وفي خضم ذلك الصراع دقّ اول ناقوس ليقظة قومية حقيقية اضطلع بها بالدرجة الاولى امير الجزيرة السابق (بدرخان بك)[١١] الذي كان قد هاجر وعاش في القاهرة حيث اسس اول حركة موحدة نشطة باسم (هيڤي كورد: الامل الكردي) هذه الحركة او الجمعية اخذت تغذي وتنعش الطموحات المشروعة الكردية بعد عزل السلطان عبد الحميد الثاني وانتصار ثورة الـ

٩ـ سليم الاول تاسع السلاطين العثمانيين (حكم ١٥١٢ ـ ١٥٢٠) قضى على دولة المماليك في موقعة (مرج دابق) وبذلك استولى على سورية ومصر وفلسطين ثم اخضع البلاد العربية لحكمه وفي العام ١٥١٤ وفي معركة (جالديران) الفاصلة انتصر على جيوش الشاه اسماعيل الصفوي الاردبيلي (١٤٨٧ ـ ١٥٢٤) الذي ينسب الى الامام موسى الكاظم. قبض على زمام الامور واستولى على اذربيجان وفارس ووسع ممتلكاته الى (هراة) شرقا وبغداد جنوبا وفرض سيادته على كربلاء والنجف ونشر المذهب الشيعي. الا ان معركة جالديران ارغمته على التخلي عن الجزء الاكبر من كردستان.

١٠ـ اشهر الشعراء الكرد (١٦٥٠ ـ ١٧٠٨) ولد في بلدة بايزيد (في كردستان تركيا) وتوفي فيها وقبره الان مزار.

١١ـ من احفاده الأمير كامران بدرخان الاستاذ في مدرسة اللغات الشرقية بباريس مواصلاً معركة اجداده.

(جون ترك)[١٢] كما ان كثيرا من زعماء الكرد وشيوخهم آثروا الانحياز الى جانب الحلفاء في غمرة الحرب العظمى الاولى وانضموا الى القوات الروسية الذين تقدموا حتى جبال زاگروس. ثم وعند توقيع الاتراك هدنة (مودروس) في ٣٠ تشرين الاول ١٩١٨ اعلنت «جمعية وطنية» دستوراً لكردستان مستقلة والانكليز الذين اشتموا رائحة بترول في بلاد مابين النهرين لم يعارضوا من جهتهم في قيام دولة كردية مستقلة برئاسة الشيخ (محمود البرزنجي) وعملوا كلّ مافي وسعهم لتجنيب مصطفى كمال سيد القسطنطينية الجديد ثورة عارمة ضده.

وبالفعل ففي العاشر من آب ١٩٢٠ وبمعاهدة (سيڤر) ارسى الحلفاء بكثير من الضجة والتباهي قواعد كردستان وارمينيا المستقلتين. ان المادتين (٦٢ و ٦٤) من الفصل الرابع من هذه المعاهدة لاتتركان ايّ مجال للبس او الابهام. اذ كشفتا اوراق كلّ وطني كردي. لقد كفلت هذه الوثيقة الدبلوماسية الهامة لاول مرة مع شديد الاسف الوطن الكردي لأعين العالم ولهذا تستأهل ان نذكر بها الراي العام العالمي الظلوم الضعيف الذاكرة.

ان لجنة مقرها القسطنطينية تتألف من مندوبين تعينهم الحكومات الثلاث البريطانية والفرنسية والايطالية كل من جانبها. ستقوم خلال ستة اشهر اعتبارا من بدء تنفيذ هذه المعاهدة بوضع مشروع حكم محلي للمناطق التي تسكنها اغلبية كردية وهي تلك المناطق الواقعة شرق نهر الفرات وجنوب حدود ارمينيا الجنوبية التي سيتم تثبيتها فيما بعد وشمال حدود تركيا مع سوريا وبلاد مابين النهرين (المادة ٦٢).....

وبعد اجل مدته سنة واحدة من تاريخ تنفيذ بنود هذه المعاهدة. اذا ماطلب الاهالي الكرد في الاقاليم التي تم تحديدها في المادة ٦٢ من مجلس عصبة الامم وبعد اقامة الدليل بأن اغلبية سكان هذه الاقاليم ترغب في ان تكون مستقلة عن تركيا واذا ماوجد مجلس العصبة بناءً على هذا با ن هؤلاء السكان خليقون بهذا الاستقلال واذا ماأوصى بان يمنحوا ذلك. فان تركيا تتعهد منذ الآن بتأييد هذه التوصية وان تتنازل عن كل حق او حيازة لها في تلك الاقاليم. ان تفاصيل هذا التنازل سيكون موضع مداولة في مؤتمر خاص للدول الحليفة الكبرى مع تركيا. واذا ما اقتضى هذا التنازل وتم او عندما سيتم فلن يقوم اي اعتراض على الدول الحليفة الكبرى بسبب ضمّ هذه الدولة الكردية المستقلة الى الكرد القاطنين في ذلك الجزء من كردستان الذي يقع حالياً في ولاية الموصل...

ولان هذه الولاية المشهورة ولاية الموصل كانت بيد الانكليز الذين عهد اليهم بالانتداب على فلسطين والعراق فقد بدأوا يروجون للأسرة العربية الهاشمية الحجازية فأجلسوا في ٢٣ آب ١٩٢١ على عرش بغداد الامير (فيصل) الذي كان قد طرده الفرنسيون من سوريا.

١٢ـ السلطان عبد الحميد الثاني. (حكم ١٨٧٦ ـ ١٩٠٨) واستبد بالحكم وعطل الدستور الا ان عصبة من ضباط الجيش التركي بزعامة انور ونيازي وآخر (طلعت) وهو موظف مدني الفوا فيما بينهم جمعية سرية باسم (جون ترك او تركيا الفتاة) وغرضها اعادة الدستور. زحفوا بقطعات عسكرية من مقدونيا الى استنبول واجبروا عبد الحميد على التنازل.

واسرع الشيخ محمود البرزنجي ليرفض الاعتراف بسيادة بدوي من الصحراء. فاعلن نفسه في مدينة (سليمانية) حكمدارا (ملكاً) لكردستان. فانزلت به (لندن) العقاب الصارم. وقد شجع هذا العمل القمعي شاه ايران (رضا بهلوي) الذي كان يعمل جاهداً لتحكيم قبضته على البلاد فاقدم على نفي كل الزعماء الكرد في ايران. وفي القسطنطينية راح (مصطفى كمال) يغازل الجمهورية الروسية البلشفية الجديدة ويتقرب منها وشق عصا الطاعة على معاهدة (سيڤر) وقذف بالمحتلين اليونان الى داخل حدودهم. فتملك دول الغرب ذعر لم يسعهم ازاءه الا ان يوقعوا معاهدة لوزان في ٢٤ حزيران ١٩٢٣ تلك التي الغت سابقتها بغدر مابعده غدر بكل من الكرد والارمن حين حاولت تبرئة ذممها واسكات تأنيب ضمائرها بهاتين المادتين.

تتعهد الحكومة التركية بان تضمن لجميع السكان القاطنين في تركيا الحماية الكاملة والتامة لحرياتهم ووجودهم بصرف النظر عن قوميتهم وولادتهم وتابعيتهم ودياناتهم. (المادة ٣٨)...

وانها لن تضع اي قيد على حرية استعمال لغة اي من الرعايا الترك او على ممارسة شعائرهم الدينية او على الصحافة او المطبوعات بمختلف اشكالها ولا على جمعياتهم السياسية (المادة ٣٩). واعلن عصمت اينونو رئيس الوفد التركي [١٣] المفاوض بنفسه للعالم اجمع ان تركيا هي بلد الشعبين التركي والكردي وان لهما الحق في حكم البلاد معاً. بعد ذلك بسبعة اشهر فقط قام مصطفى كمال بنفي الزعماء والمثقفين الكرد دون ذنب او جريمة ارتكبوها. ثم حظر التخاطب باللغة الكردية.

اذا كان الشعب وحدة ثابتة فان فكرة الدولة ومفهومها يتضمنان بناء متحركاً وعلى حد قول الامير بدرخان «اجتماع غير منفصم بين الارض وجماعة من البشر احدهما يثبت كينونة الاخر بالتقابل وعلى هذا فمع وعود الحلفاء الرسمية كانت المصالح المالية والاطماع السياسية لرؤساء الحكومات تقرر في اغلب الاحيان حدود الدول وتخطيطها دون الاخذ بنظر الاعتبار الواقع العرقي والتاريخي والجغرافي والانساني. اذن فقد تم استخدام كل الوسائل للحيلولة دون خلق كردستان وتعسرت ولادتها وهي التي كانت تصبو الى الاستقلال والتمتع بامثال تلك الحقوق التي منحت لعدد من الدول الوليدة نتيجة لتفكيك الامبرطورية العثمانية ولتمخضات الشرق الاوسط السياسية.

لو اظهرت انكلترا شعوراً روحياً ولو ان فرنسا تحملت في خضم النزاع الامپريالي سهمها الكبير من المسؤولية فربما كان لكليهما التأثير الحاسم بتصريحهما المشترك في ٨ تشرين الثاني ١٩١٨ الذي اكدا فيه بشكل لايقبل التأويل بان ليس لديهما اي اهداف في هذا الجزء من العالم... غير التحرر التام الناجز لشعوب ظلت امداً طويلاً ترزح تحت نير الترك،

١٣ـ عصمت اينونو (١٨٨٤ ـ ١٩٧٣) سياسي تركي من اصل كردي ـ اقرب المقربين الى مصطفى كمال خلفه في رئاسة الجمهورية التركية (١٩٣٨ ـ ١٩٥٠) وكانت له ادوار هامة في الحركات القمعية التي جرت بحق الكرد في تركيا رغم كرديته.

و اقامة حكومات وطنية وادارات تستمد سلطتها من ذات نفسها ومن الاختيار الحر لسكانها المحليين... في حين انه بعد ختام الحرب العظمى لم تبق الاّ كردستان المجزأة رغم اظهارها الولاء لقضية الحلفاء وتمسكها الصريح بمطلبها المشروع، فلم تر نور الحياة بل وجدت نفسها مرة اخرى مجزأة بين خمس دول هي تركيا وسوريا والعراق وايران والاتحاد السوفيتي. هذا الوضع الخطر الشبيه تماماً بوضع (پولندا) في القرن الاخير تكمن فيه عناصر ثورة (١٤). ولن يلبث ان يكون سبباً من مضاعفات امنية كبيرة في احضان الشرق الاوسط هذا المعّرض دائماً لكل الحميات الخبيثة بسبب الافراط في البترول.

لقد ساعد البترول كثيراً في الواقع على اغراق افضل القرارات وخنقها. ولم تنفك انكلترا عن الترويج لدعواها القائلة بان ولاية الموصل يجب ان تضم الى العراق. كما اسرعت القوة الجوية الملكية البريطانية لاخماد ثورة الشيخ محمود الجديدة. وفي عين الوقت اخذ مصطفى كمال يطالب هو ايضا بمنابع الذهب الاسود، الذي اخمد ثورة الشيخ سعيد پيران بوحشية وبعد دفع الثمن الغالي باعلانه التعبئة العامة. وقام بتعليق ثلاثة وخمسين من زعماء الكرد على اعواد المشانق. واوقع بالكرد مذابح راح ضحيتها مائتان وخمسون الفاً من الرجال والنساء والاطفال وهجّر قسرا السكان المتمردين. بقيت عصبة الامم غير مبالية وكأن الامر لايعنيها. ويُذكر ان (كليمانصو) اجاب (لويد جورج) (١٥) الذي ضايقه كثيراً في الحاحه بالحصول على مساندته -الموصل ؟ اين تقع؟ اتريدها؟ طيب خذها. وعندما اكد له بان هذا الاقليم يستبطن بترولاً رد على هذا بالنكتة التالية:

ـ بترول؟ عندما احتاج الى بترول فانا اذهب الى بائع عقاقيري.

ولتساهله هذا حصلت فرنسا على ٢٥٪ من اسهم شركة النفط العراقية (آي. پي. سي). وفي ١٦ كانون الاول ١٩٢٥ وفي اثناء انعقاد الجلسة السابعة والثلاثين لمجلس عصبة الامم صدر القرار بضم ولاية الموصل الى العراق. لاحظ تقرير اللجنة الموكلة بدراسة المشكلة في (ص ٥٧ من التقرير)..

اذا وجب استخلاص نتيجة من واقع التركيب السكاني على حدة. فالكرد يؤلفون خمسة اثمان السكان في الولاية وهذه الحجة القومية لوحدها تؤدي الى الايصاء بخلق دولة مستقلة للكرد...

الا ان عصبة الامم اقتصرت على اشتراط ضمانات للنزول الى رغبات الكرد وهي تعيين الموظفين لضمان حقوقهم الادارية والقضائية والتعليمية وجعل اللغة الكردية اللغة

١٤ـ فقدت پولندا استقلالها في القرن الثامن عشر وقسمت بين امبرطوريات روسيا والمانيا والنمسا والمجر حتى نهاية الحرب العالمية الاولى حيث التأمت اجزاؤها.

١٥ـ جورج كليمانصو (١٨٤١ ـ ١٩٢٩) سياسي فرنسي. رئيس حكومة فرنسا ابان الحرب العالمية الاولى وقد لقب بأبي النصر. كان احد المنظمين لمعاهدة فرسايل ومن ذوي الراي القاطع في التبدلات السياسية التي حصلت في العالم بعد الحرب. لويد جورج (١٨٦٣ ـ ١٩٤٤) سياسي انكليزي وزعيم الاحرار ورئيس حكومة بريطانيا اثناء الحرب وبعدها. كان له عين دور زميله كليمانصو في مفاوضات الصلح وتقسيم العالم.

الرسمية في تلك الادارات والمعاهد. لكن هذا الشرط كان كصنوه في تركيا وثيقة ميتة في العراق.

وتعاقبت الانتفاضات والثورات الكردية في فترة ما بين الحربين متخذة الى حد ما شكل القضية العامة.

وفي ربيع العام ١٩٣٠ استخدم الترك افظع الوسائل واشدها بربرية لاخماد الثورة الكبرى التي قادها احسان نوري پاشا في منطقة جبال ارارات، منها انه وُضع مائة من المثقفين الكرد في اكياس خيطت عليهم والقوا في مياه بحيرة (وان) وهم احياء. وعند قيام الدولية الاشتراكية الثانية المتأثرة بهذه المجزرة بالاحتجاج رسمياً (على عملية الهيكاتوم)[١٦] هذه، اجاب (محمد اساد) وزير العدل التركي بكل صلافة:

ـ هؤلاء ليسوا اتراكاً خلصاً في بلادنا. ولذا فليس لديهم حقوق وانما هم مجرد عبيد.

ولكي يقنن خط السير هذا بصورة افضل سنت حكومة انقرة في الخامس من ايار ١٩٣٢ قانونها المعروف بقانون التبعيد.. لاسباب صحية ومادية وسياسية وثقافية واستراتيجية وعند وضع هذا القانون موضع التنفيذ انقلب جزء من كردستان الى صحراء يباب.

واصبح اسم (كرد واكراد) غير قانوني وفرض ان يستبدل بمصطلح (الاتراك الجبليين) وهكذا بقي الى يومنا هذا. وتطبيقاً لهذا فان المثل المشهور (قوي كالكردي) الذي يشبهون به عتالي المدن الاشداء قد شوه وقلب.

حتى بعد ان تخلى الانكليز عن انتدابهم على العراق قبل الاجل المحدد فقد قاموا لوحدهم بسحق ثورة جديدة للشيخ محمود الصعب الترويض بقنابل طائراتهم. ومن ثم دخل المنظر في العام ١٩٣٣ ملا مصطفى البارزاني مع اخيه غير الشقيق (الشيخ احمد) ولم يترك الساحة قط. واختلطت دماء المسيحيين بدماء الكرد لاسيما ابان مذابح الاثوريين الوحشية في (سميل). ولاجل ضمان اخضاع كردستان وابادة سكانها اتفقت تركيا والعراق وسوريا على اغلاق الحدود. وعبثاً طلبت فرنسا الساخطة بلسان (پول بونكور) في عصبة الامم منح الادارة الذاتية للكرد. وبلغ الترك بارهابهم اقصى درجاته عندما اقاموا محارق ضخمة في (درسيم) واحرقوا بنارها خمسين الفاً من النساء والاطفال والشيوخ وهم احياء! حادثة مزعجة حقاً بسبب رائحة اللحم المشوي ادت بالاخير الى اثارة مشاعر الغربيين. وقام (جلال بك) وزير الداخلية بتهدئة القلق والوساوس الغربية اذ قال «من الضروري ان نمدن قطاع الطرق بالقوة».

لكن رغم المكابرة والعناد في انكار وجود شعور قومي كردي فقد اقر العراق وتركيا وايران بهذه الحقيقة بصورة غير مباشرة عندما وقّعوا فيما بينهم ميثاق سعد اباد في العام ١٩٣٧ اي قبل ثلاثين عاما بالضبط. في ذلك الزمن كان في العالم قطط اخرى هائجة. فقد قام (هتلر) باعادة احتلال (الراين) وتطلع الى ارض السوديت متلمضاً. وراح موسوليني

١٦ـ هذا المصطلح وهو لاتيني يعني تقديم قرابين للالهة عند اليونان والرومان مقدارها مائة ثور.

يصعد من هريره و مفاخرته بعد فتح (الحبشة). واليابان رسخت قدميها وحققت مطامعها في آسيا. واستعرت الحرب الاهلية الاسبانية لتكون بمثابة مختبر لأسلحة الحرب العالمية الثانية التي كانت تجتاز دور المخاض. في هذا الوقت من كان يهتم بما يجري للكرد؟

وحيدون بلا ناصر او معين الا انهم مليئون بايمان عظيم مدمر كان السبب في مضاعفة اضطهادهم عشر مرات. اننا لنجدهم ينتفعون بالاحتلال الثنائي لايران في العام ١٩٤١ من قبل الروس والانكليز ليؤسسوا الحزب الديمقراطي لكردستان ذلك الحزب الذي كان طليعة نضالهم. في ٢٢ كانون الثاني ١٩٤٦ اعلنوا في حافة منطقة الاحتلال السوفيتية بشمال البلاد اول جمهورية كردية. الجمهورية الوحيدة التي ظهرت في الوجود بعاصمتها (صاوچبلاغ) او مهاباد مدينة القمر او مدينة الميديين . كان لها رئيسها وهو قاضي محمد الشجاع القويم الخلق الرجل الفذ سليل اسرة دينية عريقة. وكان لها ايضا قائدها العسكري (الجنرال ملا مصطفى البارزاني)الذي انسحب مع قواته من العراق بعد ان ارغمه الانكليز على ذلك بتدخلهم مرة اخرى حماية لبترولهم. وكان لها علمها ذو الشرائط الطويلة من الاحمر والابيض والاخضر مع شمس في الوسط انه ليرى اليوم ايضا خفاقاً في كردستان العراقية. ولم تلق محاولة هذه الجمهورية في مناشدة منظمة الامم المتحدة لاول مرة اي صدى. وعجل العراق وتركيا في عقد ميثاق تعاون متبادل وكان على ملا مصطفى البارزاني ان يواجه القوات العسكرية الايرانية التي ارسلتها طهران للقضاء على المحاولة الانفصالية. وفي الغرب الشديد الحذر شاع الخوف من قيام دولة كردية ـ ارمنية تحت نفوذ السوفييت بحسب تقدير العقيد (اسفنستون) رئيس الاستخبارات في دول ساحل البحر الابيض المتوسط . الا ان الروس قايضوا بمهاباد لقاء اتفاق نفطي مع طهران عند مغادرتهم ايران. وفي اواسط كانون الاول ١٩٤٦ اغمض العالم عينيه كعادته عن المجزرة التي اوقعها الايرانيون ـ هذه المرة ـ بالكرد اذ شنقوا كل المسؤولين الكرد ومن بينهم قاضي محمد. ولم ينج غير ملا مصطفى البارزاني مع رجاله. وقد جدت القوات العراقية والتركية والايرانية في اثره ولاحقته دون انقطاع لكنه شق طريقه الى ارمينيا السوفيتية بالأخير بعد خوضه المعارك المتواصلة ولجأ اليها بعد اجتيازه شعبا ومفازات جبلية بين القمم المكللة بالثلج وكتل الجليد. ان هذه المأثرة البطولية ستبقى فصلاً رائعا في تاريخ الكرد خالداً امد الدهر. انها لتوضع في صف مسيرة ماوتسي تونغ الكبرى.والان فان العالم المعادي للشيوعية يستخدم هذا الحدث كحجة لتبرير قمعه لحركات التحرر فقد اشيع بان ملا مصطفى البارزاني اعطي رتبة جنرال في الجيش السوفيتي ولذلك اطلقوا عليه لقب (الملا الاحمر). والواقع ان هذا الرجل الارستقراطي المعادي للماركسية كان في ذلك الوقت يضرّس اسنانه كمداً وغيظاً في منفاه. في تلك الفترة التي لم يعد للكرد فيها جيش منظم نقل نضالهم الى الساحة الدبلوماسية. نداءات الى رؤساء دول هيئة الامم المتحدة، فعاليات ثقافية احياء لفلكلورهم، تمجيد لتاريخهم، نشر لادبهم. وكانت مدينة السليمانية القلب النابض لاحاسيسهم الوطنية. مع هذا فقد بقيت تخوفات تركيا وايران والعراق وتأيدت في العام ١٩٥٥ عندما عقدت هذه الدول مع انكلترا الحلف الذي عرف بحلف بغداد وهو

نسخة ثانية من حلف(سعد آباد) تحت غطاء استحداث حلقة اخرى من سلسلة الاحلاف ضد السوفييت.

وفي اثناء ذلك اخذ الافق السياسي تتسـع دائرته اذ لم يعد متمركزا في اوروبا وعلى الاخص في انكلترا وفرنسا. فالشرق الاقصى حقق تحرره من الوصاية الاستعمارية وساعد على قيام الصين الشيوعية واخذ المرجل الافريقي يفور ويغلي. وتصدرت الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفيتي الحلبة وازداد اهتمام موسكو بالشرق الاوسط الذي كان لذلك الحين ارض صيد مخصصة لدول الغرب. واذل (جمال عبد الناصر) البريطانيين والفرنسيين والاسرائيليين في (قناة السويس). لقد اتخذت دعوته الى الوحدة العربية طابعاً دينياً وكنت تسمع البلاد الاسلامية قولة شائعة ان الله ارسل لنا شخصين فذّين محمد (ص) قبل اربعة عشر قرناً وجمال عبد الناصر اليوم. وباهتمامه باقحام التوازن المزعزع في الشرق الاوسط ضمن اطار طموحاته فقد وجد امكانية للعمل في حقل القضية الكردية اذ بادر ليعترف رسمياً بواقع وجودها وحكم ـ بحسب تعبيره نصاً ـ بانها واضحة الوجود كوجود النيل في ارض مصر وفي ايار ١٩٥٨ افتتح راديو القاهرة برنامجاً كردياً خاصاً كان له صدى واسع. وفي ١٤ تموز اندلعت الثورة في العراق واسقط الجنرال (قاسم) الأسرة الهاشمية الموالية للغرب ووطئت الجماهير جثتي الوصي عبد الاله ورئيس وزرائه (نوري السعيد) وأعلنت الجمهورية والغي حلف بغداد واقرت المادة (٣) من الدستور الجديد المساواة في الحقوق بين العرب والكرد. وسمح لملا مصطفى البارزاني بالعودة من روسيا ظافراً بعد اثنتي عشرة سنة من النفي ليتولى رئاسة الحزب الديمقراطي الكردستاني بعد قرن ونصف قرن من الكفاح تمتع حزب سياسي كردي اخيراً بالشرعية فكان بمثابة حافزاً عظيم لاخوانهم الذين بدؤوا بالتحرك في نواح اخرى من كردستان وفي وسط القلق الذي انتاب الغرب بادر الى الاستعاضة بمعاهدة السنتو عن حلف بغداد تحت الوصاية الاميركية وراحت تركيا وايران تزجان بالمئات من الزعماء السياسيين والمثقفين الكرد في السجون. وفي ١٦ تشرين الثاني ١٩٦٠ اطلق الجنرال (كورسيل) علنا في انقرة هذا التهديد «ان لم يخلد الاتراك الجبليون المشاغبون الى الهدوء فسيكون بانتظارهم حمام من الدم يأتي عليهم وعلى بلادهم» وهذا ايضاً مايعادل الاعتراف الضمني بواقع بلاد كردستان.

لكن ما ان توطد حكم (قاسم) حتى اطلق العنان لتعصبه العربي وعدل عن سياسة المشاركة والتعاون فالغى اجازة الحزب الديمقراطي الكردستاني وعطل الصحف والبرامج الاذاعية الكرديتين وشرع في عمليات قمع شديدة واضطر ملا مصطفى البارزاني الى ان يلوذ بجباله ونشبت الثورة في ١١ ايلول ١٩٦١ فلقيت اجماعاً حماسياً وكانت الحماسة التلقائية التي ابداها المسيحيون في كردستان معوضاً عن احجام بعض القبائل. وبدأت حرب منظمة لاتعرف لها نهاية ولم يدخر (قاسم) اي وسيلة وآلة حربية. المدفعية والمصفحات والطيران. وفي اثناء ذلك قام ملا مصطفى البارزاني ببناء جيش الثورة مستفيداً من الضباط الكرد والجنود العراقيين الملتحقين بالثورة. وتوالت

انتصاراته وقام حزب البعث والجنرال عبد السلام عارف بانقلاب عسكري مستغلين روح التذمر والاستياء المتفاقم في البلاد بعد ان حققا اتصالاً سرياً مع الثورة الكردية وتعهدا في حالة نجاح انقلابهم ان ينجزا الوعد المقطوع بالحكم الذاتي. وخر (قاسم) صريعاً تحت ضربات المتآمرين في ٨ شباط ١٩٦٣ وعلى اثر ذلك قبل ملا مصطفى البارزاني بوقف اطلاق النار. الا ان النظام الجديد كسابقه لم يكن يهدف الا الى كسب الوقت. فقد تجاهل الاعلان عن قيام الجمهورية العربية المتحدة من مصر وسوريا والعراق المصير الكردي وعندها بادر ملا مصطفى بتقديم مذكرة حددت مفهوم الحكم الذاتي تحديداً واضحاً. قوانين محلية. ادارات مستقلة. المشاركة في الحكم. جيش وشرطة محليان. حصة عائدات النفط بالنسبة الى السكان. ادخال كركوك والموصل (اي منابع النفط) ضمن المنطقة الكردية ذات الحكم الذاتي. فاجابت الحكومة في العاشر من حزيران بانذار تأمر فيه ملا مصطفى البارزاني بتسليم اسلحته ووضعت جائزة لمن يأتي برأسه وصرح وزير الدفاع (صالح مهدي عماش) بان حملته «ستكون بمثابة نزهة عسكرية بسيطة» متباهياً ومستقوياً بانضمام الزيباريين خصوم البارزاني وبالمساعدة العسكرية الجزائرية والسورية وجمهورية اليمن الشمالية. وزادت المعارك الطاحنة الوحشية في المذابح والفظائع المرتكبة بحق الكرد كما جرى في السليمانية مثلاً. واستخدم الطيران العراقي قنابل الناپالم ونار رشاشاته لابادة منظمة لارواح المدنيين وقطعان الماشية الا ان الشعب الكردي قاوم قوى بغداد وحلفاءها وانتصر وان كان بثمن المعاناة التي فاقت طاقة البشر الشبيهة بحملة ابادة هتلرية بحسب النداءات التي وجهتها الثورة الى الضمير العالمي. ورسخت في الاذهان اسطورة ملا مصطفى البارزاني الذي لايقهر. الا انه لايحاول هو نفسه اخفاء خيبة امله من صمت القوى العظمى التي استنجد بها ولاسيما فرنسا. حتى ان الجنرال ديغول. فقد اصم اذنيه، هكذا كان يقول متنهداً للمرة الثانية ايضاً صارت هذه الحزب القاسية الباهظة الثمن مكروهة عند العراقيين فهناك تظاهرات في قلب بغداد تدعو الى السلام ووضع حد لها. ان دكتاتورية حزب البعث وطغيانه بلغا حداً مابعده حد.

في الخامس عشر من تشرين الثاني ١٩٦٣ تسلم (المشير عارف) مقاليد الحكم فبادر الى نصب أخيه الجنرال (عبد الرحمن محمد عارف) رئيسا لاركان حرب الجيش العراقي. وسرعان ما اخذ الحكم الجديد بسبيل المهادنة والتهدئة مما حمل (ملا مصطفى البارزاني) على اصدار امر بوقف القتال في العاشر من شباط ١٩٦٤. هذا القرار فجّر في كيان الحزب الديمقراطي الكردستاني أزمة كادت تنقلب الى حرب داخلية.

بتأمل هذا الموضوع في كردستان وبالضبط عندما تكون في المحل الذي دارت فيه معركة (رواندوز) فانك تجد تحفظا مشوبا بالقلق يخيم على مزاج ابطال هذه الدراما الداخلية. (ملا مصطفى البارزاني) الزعيم التقليدي العتيق واعظم محارب فذ أنجبه العصر، لم يتردد في توجيه ضربته الى تلك الكوادر الشابة التي تسربت بفكرة وجوب انجاز الاصلاحات التقدمية الاشتراكية قبل حمل السلاح والدخول في معارك حربية. هذا الصراع الفكري على المفاهيم ضاعف من المسافة التي تفصل الجيلين وسعّر من حدة

التنابز فيما بينهما ولكن هذا العجوز (لايعترض على تلقيبه بهذا) وهو الآمر المطاع والشديد الاعتداد بنفسه معاً لم تلن قناته. على انه كان يبدو من الصعوبة بمكان في مثل ازمة ١٩٦٤ ان يقوم باعباء معارضيه الايديولوجية والمطمحية. وراح عدد من كوادر الحزب ان لم يكن اغلبهم ينحون باللوم عليه لانه امر بوقف اطلاق النار دون ان يرجع اليهم للمشاورة، واعلنوا استمرارهم في القتال. اما هو فقد دافع عن وجهة نظره بقوله انه لن يُفلت اية فرصة تعن لاجراء مفاوضات مستنداً في مدافعته على مايعانيه الشعب. وقد ذاع صيت مثله الاتي:

ـ يحكى ان اسيراً رجا من حراسه ان يفكوا وثاقه. ولما سألوه عن السبب أعرب عن رغبته في أن يتمشى الى شجرة البلوط المجاورة، فوافق حراسه. وبعد ان حقق بغيته بالسير اليها، سألوه عما حفزه الى هذا فأجاب الأسير بدون تردد «اني مشيت ثلاثين خطوة» ونحن اولاً علينا ان نفسح المجال لشعبنا حتى يمشي خطواته الثلاثين.

وفي مؤتمر الحزب حضر (ملا مصطفى البارزاني) فأُلقيتْ في وجهه تهمة العمل على تصفية الثورة. وبادر هو فورا الى اقصاء قواد جبهاته الثلاثة (عمر مصطفى) و(علي العسكري) و(جلال الطالباني) الذين كانوا يعتبرون بمثابة أمل كردستان الكبير. وعلى أثر ذلك انخرطوا في صفوف (الجاش) مما اورثه حزنا عميقا. بعد هذا اقام لجنة مركزية جديدة تستقيم مع ذوقه وخطّ تفكيره. واذا كان بعض كوادر الحزب قد ابدى شيئا من التردد فان اغلبية الشعب الساحقة كانت تظاهره وتدعمه. ولما كان من الواجب فضح الخائن بصورة علنية فقد نبذ (ملا مصطفى البارزاني) جعجعة الكلام جانبا وشرع يطارد معارضيه حتى لجأوا الى ايران. في الواقع ليس هناك من يعتد بنفسه وبمقوماته الى الحد الذي يؤهله لالقاء اي درس من دروس الوطنية على ذلك الرجل الذي رفع راية النضال فوق ذرى جباله منذ ثلث قرن من الزمن، فهو والحالة هذه لامشبه له بكثير من اولئك الزعماء الشرقيين الذين يعيشون حياة زاهية ناعمة في قصور غربية فخمة.

لم يتردد المشير (عارف) من استغلال هذا الانشقاق فأخذ يتقرب من (ملا مصطفى البارزاني) و يتبصبص له بصورة مكشوفة ويشجعه على اجراءاته ضد اولئك «المشاغبين»ومثيري الفتن. وهكذا بدا فجأة وكأنه يفضل الاتفاق والتآخي مع اقطاعية «العجوز» التي تطبعها العنعنات القبلية والسلطان العشائري المطلق بطابع غلاب، على مفاهيم الشباب الثورية. الاّ انه اساء تقدير صلابةوعمق تلك الوطنية البعيدة عن المساومة التي يتحلى بها الزعيم الكردي. وكان من ادعى الاسباب الى هذه التأجيلات المضنية هو ادراك موسم الحصاد في كردستان واكمال قطع «الخطوات الثلاثين» فبعد الفراغ من هذا، اقدم (ملا مصطفى البارزاني) على احلال مصالحة وطنية مثيرة للاعجاب فاستحدث «المجلس الاعلى لقيادة الثورة» وهو بمثابة برلمان فعلي الأول من نوعه بعد مجلس (جمهورية مهاباد). وفيه وجد (جلال الطالباني) ومن يلوذ به محلاً. وعادت الاشتباكات في الجبال واعيد تشكيل جبهة الكفاح وفي العاشر من شباط ١٩٦٥ قدم (ملا

مصطفى البارزاني) الى حكومة بغداد مذكرة تتضمن مطاليبه وكانت بمثابة اعلان الحرب مجدداً. ومرة اخرى زجت الحكومة العراقية بكل مااستطاعت حشده من القوات واستخدمت جميع الوسائل التي اعتقدت بانها تؤدي الى نصر حاسم، فلم تنل بغيتها وانهك القتالُ البلادَ. وفي الخريف التالي فشلت مؤامرة عسكرية ضد المشير (عارف) الذي انقذه اخوه منها وللمرة الاولى وُضع الشخص المدني الليبرالي (على ماقيل) على رأس الحكومة وهو (عبد الرحمن البزاز). الّا ان الجيش وهو القوة المسيطرة الوحيدة في العراق كما كان في معظم البلدان العربية. أبقى رجاله في مراكزهم لاسيما الجنرال (عبد العزيز العقيلي)[١٧] الد اعداء الكرد. فقد ظلّ وزيرا للدفاع. وكُلف بأن يعد خطة هجوم ضدهم يكون فيها فصل الخطاب.

وفي الواقع انه لم يكن ثمة هدنة طوال خريف ١٩٦٥ ـ ١٩٦٦. وكان تردي الوضع السياسي في العراق قد بلغ حد النقمة. فالحرب تبتلع معظم موارد النفط والاوضاع الاقتصادية تزداد سوء وهناك خمسة آلاف ديمقراطي معتقلا في السجون والمعسكرات ولاسيما في سجن نقرة السلمان[١٨] الواقع في قلب الصحراء القاصية. وكانت بغداد تعيش في جو غير صحي من عدم الاستقرار في العلاقات الخارجية والتناحر في المسائل الداخلية. وكان الانكلوسكسون يبذلون الجهود الكبيرة للفوز باتفاق نفطي جديد يخفف من غلواء وصرامة اجراءات قاسم التي اتخذها بهذا الخصوص قبيل مقتله. ويعملون كذلك على فصل العراق عن مجموعة الدول العربية التي عرفت بالدول ذات الانظمة الثورية. واما موسكو فانها على سبيل الحيطة وتحقيقاً منها لموازنة الضغوط الاوروبية، راحت ترسل الاسلحة بنطاق ضيق جدا مثل قطارة الدواء!. واستغلت ايران فرصتها فأحيت من جديد مشكلة النزاع على الحدود فبدا الامر وهو أشبه بمراهنة على الحرب الكردية التي أصبحت اعلى الاوراق قيمة في لعبة ماكرة بساحة مشاكل الشرق الاوسط. ولم تتردد بغداد عن المجازفة باضفاء صفة الدولية على نزاع كانت حتى ذلك الوقت تبذل

١٧ـ بعد ان استتب الامر للحكم الحالي في العراق قبض عليه واتهم بالتجسس وبعد كثير من التعذيب اجريت له محاكمة سرية في وقت ما وحكم عليه بالموت ولايدري احد هل أبدل هذا الحكم بالسجن المؤبد الا انه مايزال حيا. ولقد تدخل ملا مصطفى البارزاني شخصيا بدوافع انسانية لانقاذ حياته بعد الحكم عليه ومما يؤثر انه كاد يصبح رئيسا للجمهورية في العام ١٩٦٦ لولا تدخل القاهرة ويقال انه غير رأيه في الثورة الكردية تغييرا تاما بعد اعتقاله الاخير (المترجم).

١٨ـ كانت بالاصل قلعة حدود بنيت في ١٩٢٧ بمعرفة واشراف الكابتن كلوب (ابو حنيك او كلوب باشا رئيس الاركان الاردني فيما بعد) ايام كان من ضباط الاحتلال البريطاني في العراق وتقع في منخفض من ارض صحراوية (ولهذا سميت بالنقرة) مترامية تبعد عن اقرب العمران بحوالي مائتي كيلومتر وعملت لصد هجمات البدو والوهابيين قبل تخطيط الحدود. في اواخر الثلاثينات بدأت الحكومة العراقية تستخدمها لحجز واعتقال خصومها السياسيين ولاسيما الشوعيين منهم وظل عدد نزلائها بين مد وجزر حتى اعلن حكم البعث الحالي في العراق والغاءها كسجن في اوائل آب ١٩٦٨.

(المترجم)

اقصى الجهود لحصره في اطار المسائل الداخلية. فاتهمت ـ بهجوم اعلامي كبير منها ـ كلاً من اسرائيل وايران بمساعدة (ملا مصطفى البارزاني) وكان هذا وهو في جبهة (پنجوين) يوالي توجيه النداءات الى هيئة الامم المتحدة للتدخل دون اية نتيجة. وفي الوقت نفسه زاد المشير (عارف) تباهيا وتبجحا فكتب في الرابع من كانون الثاني بمناسبة يوم الجيش [١٩] «ان العصاة الكرد لم يعد لهم وجود». ولما كانت دعوة (عبد الناصر) الى الوحدة العربية تلقي صدوداً في السعودية والاردن. فقد وافق على عرض وساطة القاهرة «لانهاء التمرد» الا ان (عبد الناصر) حمل المشير (عارف) على النظر الى المسألة الكردية بوصفها قضية سياسية قدر ما هي مسألة عسكرية. اما في ساحة القتال فقد افلح (ملا مصطفى البارزاني) في صد الهجوم العراقي بالقرب من الحدود الايرانية وعاد الى احتلال (پنجوين) وقام رئيس الوزراء (البزاز) بزيارة للموصل لتشديد العزائم الخائرة وبث المعنويات فيها، فمد يده علنا الى الكرد ودعاهم «للتعاون الاخوي» ورفع اليد الاخرى مهددا بهجوم الربيع الذي كان الجنرال (العقيلي) يواصل التخطيط والاستعداد له بكل دقة. وفي العاشر من آذار وصل كركوك المشير (عارف) ليترأس بنفسه اول اجتماع لـ(مجلس الدفاع الاعلى) الذي استمر خمس ساعات وحضره كل قادة الجيش ولم يكتم أي واحد منهم رغبته في «تصفية الثورة والقضاء عليها».

ثم استخدم الغاز السام لشل حركة الانصار واشاعة البلبلة فدفعت به الريح الى ماوراء الحدود الايرانية. هذه الحادثة الدبلوماسية حثت (ملا مصطفى البارزاني) على طلب قيام الصليب الاحمر الدولي بالتحقيق الا ان بغداد رفضت. واخذت كل الدلائل تشير الى قرب حلول يوم (ج) [٢٠] وهو اليوم المضروب للهجوم المرتقب. واعلن المشير (عارف) عن اتخاذ اجراءات صارمة بحق المواطنين المتخلفين عن الخدمة العسكرية وصادقت الحكومة على قرارات التعبئة ودعوة صنوف الاحتياط التي شملت كل من لم يبلغ الخمسين من العمر، ممن لم يؤد الخدمة بعد. وصدر اعتراف ملفت النظر من رئيس الدولة عند زيارة الجبهة حين ندد «بالافتقار الى الحماسة ونقصان الضبط والربط في الجيش في حين كان اربعة اخماسه يحارب الكرد منذ أربع سنوات». وكان ان لقي التأييد العام التام عند عودته الى بغداد من جلال الطالباني وكوادر الحزب الديمقراطي الكردستاني الذين قطعوا كل صلة لهم (بملا مصطفى البارزاني). قيل انهم ارادوا اجراء مفاوضات سلم وراحوا يبذلون جهودا كبيرة لاثارة السكان المدنيين على (الپيشمرگه). وتحدثت الدعاية الرسمية نفسها عن استسلام جماعي لهؤلاء. لكن «صوت كردستان الحر» كان في الوقت نفسه يرفع عبر الاثير، المعنويات بنشر الانباء عن معركة الخريف مشيرا الى الخسائر الفادحة في المال والرجال التي يُمنى بها الجيش. والى نجاح

١٩ـ يحتفل الجيش العراقي كل سنة في هذا الموعد بتاريخ تأسيسه ويجري عادة استعراض عسكري وتلقى الخطب وتكتب المقالات من قبل كبار ضباط الجيش بهذه المناسبة. (المترجم)

٢٠ـ في المصطلح العسكري انذار (ج) يتضمن وضع الجيش في اقصى حالة الاستعداد للهجوم.

البيشمركه[٢١] في صد هجوم وحدات الكوماندوز (والمغاوير) العراقيين الذين تلقوا تدريبا خاصا في الحروب الجبلية في اسكتلندا. على ان حدثا عظيما دخل تاريخ الشرق الاوسط في شهر نيسان هذا.

في العراق يندر ان يموت رؤوساء الدولة ميتات طبيعية. ولم يخالف المشير (عارف) هذه القاعدة. ففي عصر يوم الاربعاء الموافق ١٣ نيسان اصطدمت بالارض طائرة الهلكوبتر التي تقله واحترقت بالقرب من قرية (نَشْوه) في محافظة البصرة حيث يلتقي نهرا (دجلة والفرات)، فلقي حتفه من جراء ذلك وقتل معه عدد من الشخصيات كانت في الطائرة ومنهم (عبد اللطيف الدراجي) ووزير الصناعة (مصطفى عبد الله). وقد عُزي الحادث رسميا الى هبوب عاصفة رملية سلمت منها طائرات الهلكوبتر المرافقة باعجوبة. وتحدثت الصحف الايرانية عن «انقلاب مدبر في الخفاء» واشاد راديو كردستان في الحال بهذا العمل التخريبي الذي أنجزه واحد من كوماندور البيشمركه. كانت برقيات وكالات الانباء في الوقت نفسه تعزو الى (ملا مصطفى البارزاني) تصريحا زعمت فيه انه لم ينكر مسؤوليته عن الحادث ولما سنحت لي الفرصة للسؤال منه عن هذا الموضوع شجب تلك المزاعم بقوله لادخل لي مطلقاً في موت (عارف) ولكني بالتأكيد لم اترحم عليه ولم أسف لموته فقد كان شديد القسوة علينا أبدا. حتى انه استخدم ضدنا الغاز السام. وعند تسلمه مقاليد الحكم اقسم بان يقضي علينا في اسبوع واحد. ولم يتردد في سبيل انكار عدالة قضيتنا في اطلاق هذه الكذبة الكبيرة «ان الكرد ماهم الّا عرب» فاضحك عليه العالم أجمع ولاسيما اتباعه. اني لم اصرح مطلقا للصحافة بما يضعني في موقف المسؤولية عن موت (عارف). لكن لما كانت ظروف الحادث غريبة غير معقولة فقد اسرع العراقيون على البديهة ليقولوا «فتش عن الكرد» ان الناس كافة اصدروا احكاما عجيبة شاذة على هذه الحادثة التي يحف بظروفها الغموض مستخلصين اسبابا غير معقولة ومنها انهم نسبوا اليّ المشاركة فيها. هنا، كل شيء ممكن وهو يجري مجرى الاحكام الغريبة التي تستبطن هذا النظام الحالي.

خلق موت رئيس الدولة العراقي اشاعات مختلفة تداولها الشرق الاوسط. واسرع شقيقه بالعودة الى بغداد من موسكو (حيث كان يفاوض على صفقة اسلحة) ليقبض على زمام الجيش. واما (عبد الناصر) الذي كان قد فقد بسقوط (بن بيلا) آخر صديق له وان كان يصفه (بالصبي) صراحةً وهزءً فقد ارسل الى بغداد ساعده الايمن (المشير عبد الحكيم عامر) وكانت اوامره هي الابقاء على الوضع الراهن في العراق. فتمكن من فرض (الجنرال عارف) على رأس الدولة رغم تفضيل (الجنرال العقيلي) في الترشيح. وسارع رئيس الجمهورية الجديد يصرح بوجوب «حل القضية الكردية على أساس من الحكم الذاتي يضمن للكرد ممارسة اللغة والعادات والمحافظة على التقاليد. ان الكرد اليوم

٢١ـ بصورة تقريبية هذه الكلمة تقابل لفظة (الفدائي) وتتألف من كلمتين كرديتين (پيش) و (مرگه) ومعناها الحرفي (المتقدم للموت). (المترجم)

اخوان لنا وهم مخلصون جدا لوحدتنا الوطنية باستثناء البارزاني فهو الانفصالي الوحيد.

لم يعلن (ملا مصطفى البارزاني) اية هدنة خلال شهر من الزمان (وكان هذا بعد نظر منه) الا بعد ان تمت تنحية (الجنرال العُقيلي) ونصب (الجنرال شاكر محمود شكري) السفير السابق في لندن وزيرا للدفاع في محله. وبات من المفهوم ضمنيا بان بغداد أرجأت هجوم الربيع واحلت سبيل بعض الموقوفين والغت قرارات الاقامة الجبرية التي كانت مفروضة على بعض الشخصيات الكردية وخولتهم المباشرة في المفاوضات التمهيدية. ثم وعلى حين غرة انكر الجنرال (عارف) تصريحه السالف وقلب ظهر المجن فقال في الثامن والعشرين من نيسان بمؤتمر صحفي ان:«القضية ليست قضية منح الكرد الحكم الذاتي ... هناك عدد من الشخصيات الكردية لايشك في ولائهم يقومون فعلا بالاتصال بالثوار في الشمال لاقناعهم بالقاء السلاح. ولاعلاقة للحكومة مطلقاً بهذه الاتصالات لانها لاتفكر ابدا بالتفاوض. ولن يكون هناك حكم ذاتي للكرد. الا ان الحكومة مستعدة لتؤمن لهم حياة كريمة مستقرة أسوة بسائر المواطنين الاخرين». وفي اليوم التالي صدرت صحف بغداد معلنةً انباء هامة عن انتهاء التمرد وكان هذا اشارة الى عقاب مقنّع! هو هجوم الربيع الماضي الذي كان قد حُدد الخامس عشر من نيسان بالأصل للشروع فيه فأُجّل لموت المشير (عارف).

ونشبت المعارك في أول يوم من ايار، من قاعدة (رواندوز) في قطاع من الجبهة يسوده الهدوء عادة خلال أشهر الشتاء من نقطة يقصدها الفرنسيون القادمون من بغداد للتزلج على الجليد والثلج في (حاجي عمران) وهو الهدف النهائي للهجوم الحكومي. ووقعت الضربة على الكرد الا انهم لم يفاجأوا بها. وقعت في وسط الهدنة التي اعلنها (ملا مصطفى البارزاني) وقبلتها حكومة بغداد ضمنا باعلانها تأجيل تنفيذ خططها الهجومية. وبعدما ايد لي يوماً المكتب التنفيذي للثورة الكردية هذه الاتصالات التي جرت بينهم وبين الوفد في نهاية نيسان عقبوا قائلين:

- ربما كان (عارف) مخلصا في البداية ثم ارغم على تبديل رأيه بضغط من الجيش الحريص على «حربه»!. فبعد الكثير من الهزائم التي مني بها، نما الحقد والثأر في قلبه. والعسكري على العموم لايرغب في ان ينازعه أحد نصر محتمل. والواقع على اية حال هو ان (عارف) كسلف (قاسم) وكأخيه، كانوا عند تسنمهم السلطة يحاولون كسب الوقت لتوطيد سلطانهم فيعمدوا الى تخديرنا بالوعود لمباغتتنا الا اننا كنا ملتزمين ابدا جانب الحذر واليقظة. قد يُستغرب منا احيانا قلة ثقتنا هذه. لكن كيف يمكن ان نضع ثقتنا بمثل هؤلاء الناس البعيدين عن الاتزان مهما كانت تلك الثقة قليلة؟ لقد انهكهم التناحر والتنافس وجمعتهم جامعة واحدة فحسب وهي خداعنا وغشنا... لامفر من اتخاذ المثل التالي قاعدة ومبدأ هنا:

الاسد الخامل يخوض المعركة مرتين «و معناه» ان المغلوب يرفض الاعتراف بالهزيمة رفضا قاطعاً.

الفصل الرابع

«انها لتشعر بالموت....!!»

(هه تا توجهنمي نه بيني، جنت به تو خوش نابي)
ان لم تر جهنم بعينك فانك لن تعرف للجنة لذة
(مثل كردي)

كان الجبل يهتزّ تحت انفجار القذائف والقنابل. وراح جاري القروي وزوجته يفتشان لهما عن ملجأ في احشاء الكهف. لقد جمّد الرعب ورهبة الموقف اطرافهما فشلّ حركتهما. هو، صورة من ثوب بلغت كثرة الرقع فيه حداً اصبح معه متعذراً ان تتبين فيه الاصل من الترقيع. وهي،مشتملة برداء من الخرق المهترئة لفرط الغسل ورؤية الماء. لقد كان يصعب تحديد عمريهما لما احدثته صروف الدهر في وجهيهما من اخاديد التعب والضنى. وانتهز القروي فرصته من فترة هدوء، فزحف منزلقا تحت اشجار العنب الجبلي التي كانت تطرز مدخل وفتحة السد الصغير المقام على نبع ماء. كان الماء الدفاق ينحدر نحو بستان في الاسفل تنتشر على اديمها براعم الباقلاء كما تنتشر النجوم على رقعة السماء. ففي التوزيع الآلي لموسيقى الحرب يوجد دائما موضع لمظهر واحد هارموني من مظاهر الحياة. وعاد (شفيق آغا)و(شير) في ساعة الغذاء (الزمني) الذي كان يعده البيشمرگه في زاوية جيدة الاخفاء يتصاعد منها دخان الطبخ؛ بصل وارز وشورباء مفلفلة مع لحم الخروف وجبن ولبن ممزوج بالماء. كانت الطائرات قد اختفت من السماء فهذه ايضا ساعة العشاء في القاعدتين الجويتين بالموصل وكركوك. إلّا المدافع فقد أبت إلّا مواصلة القصف بعناد. ودبت الشجاعة في نفس القروية اثناء ماكان البيشمرگه يقدمون الشاي فعرضت علينا شيئا من التين المجفف في وعاء من القصب المنسوج ونفثت في اعماق صدرها هذه العبارة الضارعة التي كان عليّ ان اسمعها مرارا وتكرارا.

ـ يجب ان يقال كل شيء للاجانب.

ان الشعور بالعزلة والاهمال يكتنف كل افراد الشعب الكردي ويضغط على صدرهم. انهم بنفوسهم الساذجة التي لاتشوبها شائبة من الميكافيلية السياسية يعزون حالتهم الراهنة الى جهل العالم بما يقاسونه من نكال وبنفس الوقت فان مقدرتهم على التغاضي والتسامح مع ذلك مما لايمكن فهمه فيهم. لم يكن البيشمرگه ليتوقفوا عن استبدال اقداح الشاي التي تفرغ باقداح اخرى من الشاي الثقيل المكرور بالغلي بنسبة ثلث منه الى ثلثين من الماء الفائر. والعادة ان لايرفض المرء قبل ثالث دورة من الاقداح. تعودت الاذن على انفجارات القنابل فلم تعد تهتم. وتجاهلت العين تحويم الطائرات كذلك. ان التعود على احداث الحرب وعلى الخطر هو بلاشك اول شكل من اشكال الشجاعة. اني اشاهد بالقرب

من الدغل ذي الاشجار المشتبكة والعنب الجبلي الذي تكسوه الاغصان الخضر تماماً، جنودا مستلقين تحت الاشجار وهم مستغرقون في نومهم. وفي زاوية من الساحة اطفال يتواثبون لاعبين فيما بينهم كما تتواثب الضفادع وعلى حين غرة ملأ الفضاء دوي صاروخ منفجر في احد جوانب الوادي فقال (شير) يعقب على ذلك ان العرب يقصفون جسر (چومان). و علق (شفيق آغا) على ذلك بلهجته الهادئة.

ـ معنى هذا انهم فقدوا الامل بالنصر. فهم الان يقصفون الطريق الذي توقعوا الاستفادة منه فيما بعد وكانوا يحافظون عليه حتى اليوم.

وراح المدفع المضاد للطائرات يرسل قذائفه بغضب جنوني الى طائرة (هاوكر هنتر) كانت تقوم بحركة انقضاض نحو قاع الوادي لترتفع عمودياً في السماء مثل طائر السماني. وأدار (شير) مفتاح راديو الترانزستر. فخيم علينا صمت تام واصخنا سمعنا. وامسى هدير الراديو الرتيب وطقطقاته أليما موجعا. لكن... هاهو ذا نداء «صوت كردستان الحر» يلعلع معتذرا عن توقف الاذاعة الفجائي «بسبب القصف الجوي». فقعب (شفيق آغا) ساخرا وهو يهز عطفيه مزدريا،

ـ ان هذا لايمنع بغداد من الزعم باننا نذيع من اراض غير عراقية.

ولف سيگارة من التبغ الكردي المسحوق سحقاً خشناً ثم ثبتها في مبسم خشبي طويل تنتشر حوله عقد هي اصول الاغصان التي قُدّت عنه. كان اشبه بالقوس المصغر وكانت الحلقة النحاسية المحيطة بالفم المصقول تبدو وكأنها حلية زائفة. سحب (شفيق اغا) انفاسا من مبسمه الصلب الخشن فقرقر الدخان وتصاعد سحبا ليغشى اقواله. وسار بي في جولة فكرية سريعة حول آفاق الشعب الكردي. قال انه يقدر عدد الكرد باثني عشر مليونا. نصفهم يعيش في تركيا وأربعة ملايين في ايران ومليونان ونصف مليون في العراق وهم ثلث مجموع سكانه تقريبا. وهناك خمسمائة الف في سورية كثرة منهم نزحت الى تلك البلاد تخلصا من المعاملة السيئة التي يلاقونها من حكومتي بغداد وانقرة سواء أفي ارض اسلافهم ام في دمشق وحلب. ولم يكونوا في ظل الانتداب الفرنسي وفي اول عهد الاستقلال السوري موضع اضطهاد او هدف تفرقة عنصرية. على ان الحالة اخذت تسوء شيئاً فشيئاً

ففي العام ١٩٦٢ تبنت دمشق سياسة التعريب في المناطق الكردية. باطلاق يد البدو العرب فيها فتفشت اعمال السلب والنهب على الحدود. ثم اخذت سوريا بعد اعلان الوحدة مع مصر في العام ١٩٦٣ تمارس سياسة مدروسة ومنظمة للارهاب والتفرقة العنصرية فوصفت الحركة الكردية بانها «اسرائيل ثانية». وارسلت وحدات من جيشها لمشاركة الجيش العراقي في قتالها واصبح الكرد السوريين في الواقع عرضة للاعتقال[١]

١ـ نجد من المعتقلين الكاتب المعروف «نور الدين زازا» الذي يعيش اليوم لاجئا في بيروت والذي قررت السلطات اللبنانية ابعاده عن بلادها على اثر ضغط دبلوماسي مارسته عليها حكومتا بغداد وسوريا (المؤلف) نقول. ان الدكتور نور الدين زازا يعيش اليوم في سويسرا ويقوم بواجبه كمواطن مخلص على قدر امكانه (المترجم).

والتعذيب والاضطهاد والقتل. وفي الاتحاد السوفيتي حيث لايعد الكرد اكثر من مائة الف منتشرين على طول حزام الحدود الضيق يعاملون دوما على قدم المساواة مع المواطنين السوفييت الاخرين. لقد امتصوا وتمثلوا في المجموع السكاني فعلا. الا انهم بقوا محافظين بحرص واصرار على لغتهم وتقاليدهم. كل ذلك جرياً على الاسلوب السياسي الذي تتبعه الحكومة السوفياتية ازاء الاقليات القومية. وفي العام ١٩٦٣ ايدت الحكومة السوفياتية القضية الكردية في هيئة الامم المتحدة. ثم سرعان ماتبدل موقفها على ضوء التقلبات السياسية في الشرق الاوسط. ولهذا السبب ترى طائرات «اليوشن»و «ميگ» في سماء كردستان العراق باعداد كبيرة. اما ايران. فلأسباب تاكتيكية ولاجل المحافظة على الاستقرار الداخلي، أحاطت اقليتها الكردية بلون من الرعاية. الحق يقال ان هذه الاقلية لاتتمتع بمساواة تامة في الحقوق الا انها ارتضت طمأنينةً طالما صَبَتْ اليها منذ زمن بعيد. واما بالنسبة «للاتراك الجبليين»[٢] المطوقين من كل الجوانب والمحروسين كانهم لاجئون في معسكرات، فبعد ان ذاقوا من المصائب والنكبات ألواناً اخذت تركيا تبذل اقصى الجهود لتضعهم في زاوية النسيان وتغلق عليهم غطاء صندوق محكم حتى ان اتفاق بغداد ـ انقرة كان موجها ضدهم بصورة رئيسية.

قال (شير) باعتزاز وكبرياء:

ـ الا ان اخواننا هؤلاء قد شخصوا الينا بالأبصار. وهم يدعون لنا بالنصر.

كان (عصمت شريف وانلي) الذي اوفده (ملا مصطفى البارزاني) الى اوروبا لايفتأ يقول: ان تجزئة كردستان هو نتيجة لسيطرة الامبريالية والرجعية على الشرق الاوسط وقد قام التعصب القومي العربي باكمال الباقي.

وفي حوالي الساعة السادسة عصراً بدأ البيشمرگه ينحدرون نحو (گلاله) بحذر واحتراس وبأرهاط صغيرة العدد. كانت الشمس المائلة للمغيب تنفذ عميقاً في احشاء الكهف لتكشف لي عن مستودع عتاد وذخائر حربية تحتل مشكاة واسعة. حرر القروي حصانه وجاموسه ونصف دزينة من الخراف فراحت الحيوانات تجري مهتاجة صخابة وكل منها يمني النفس بفترة راحة حالمة خيالية! ودنونا من سياج مغمور بالماء. وكان ثم ممر جميل تطرزه الازهار الجبلية لاشك انه كان موطىء اقدام اجيال من المحبين والعشاق. ماكدنا نشارف اول بيوت البلدة حتى لمحنا طائرة (ميگ) تحاول ان تلدغ بحممها،وقد تأخرتْ عن موعد عودتها واخذت تحوم حول افق (گلاله) بجرأة الدبور وخوفه. فقبل المدفع المضاد للجو تحديها واجبرها على الانحراف والتحليق بدون انتظام. وبالاخير كفت واعلنت عن تراجعها باطلاق صلية اعتباطية من مدفعها الرشاش تبريرا

٢ـ هكذا يطلق على كرد تركيا. والوصف بالاصل يعزى الى مصطفى كمال اتاتورك وعصمت اينونو حين ذُكّر هذا في عصبة الامم بحالة الكرد في تركيا فرفض كلمة (الكرد) بقوله ليس عندنا كرد بل هناك ترك جبليون وأرجح سماجه هذا الجواب وحرارته كانت متأتية من خوف عصمت اينونو نفسه من افتضاح اصله الكردي الذي كان يحرص على كتمانه وكأنه وصمة عار (المترجم)

للعناء الذي تكلفته. احتلت (گلي) نبع الماء للمرة الثانية. كانت تقوم بواجبها مع جرتها بطقوس «دنيوية» ان كل حركة من حركاتها الموزونة والماء الناضح ينسل رقاقا فوق الحصباء، كان عندي معاني حافلة بالدلالات على ان المشكلة الكردية هي واحدة من المشاكل الجوهرية في امر تحقيق التوازن في الشرق الاوسط ومن ثم في السياسة الدولية. لقد ادركت بقليل من العجب اني مزمع ولوج باب حرب خارجة عن حدود الزمان حيث تُطلق الطائرات الحديثة ضد اوعية الماء العتيقة. ان (گلي) في ضوء الغسق المُعتم تمثل احتجاجا لنساء عشيرتها على الطريق الوعر اللعين الذي لايعرف له عمر. ان جرتها التي تنضح من اديمها قطرات الماء تجمّل مشيتها الرشيقة بمجرى من تلك اللآلي المتساقطة عليها. وتمتم (شير) قائلا:

ـ لقد تكّون العالم بالاناة والصبر وليس بالشدة والعنف.

خمس ساعات مرت على حصاني وهو يتوغل الجبل تطبق عليه الوديان وتحصره ويعبر غدرانا من الماء الزمردي حيث كنا نقف احيانا لنروي عطشنا منه. حصان صغير كُميت ذو رأس مشمخر وعرف ارعن وذيل منتصب. هو سلالة زاگروسية عريقة وذكية من ذات القوائم الثابتة والحوافر التي لاتزل او تزلق، فصيلة يسمونها خطأ بالفصيلة العربية. أرخيت له العنان فسار على هواه ولم اكبح جماحه الا عندما كان يسرع في عدوه فوق الارض السهلة . لقد وضعت فيه ثقتي وكانت غريزته لاتخطىء وهي افضل من الرادار، ها اني اتدرب. وأول دروسي هو ادراكي بان كردستان كانت موطنا للسناطير[٣] في الايام الخوالي! عقبنا طريقا متعرجا طويلا جدا ووعرا جدا لنصل الى الجبهة قبل ان يدركنا الليل، منظر مزدوج: الصخور واشجار البلوط الثمينة والخضراء التي تراها في كل مكان تنتج حلوى المن [٤] وجوز العفص[٥]. ان الكردي هو مغن طروبادوري [٦] مطبوع وكثيرا مايتغنى في اشعاره الغنائية بالشجرة فهو يجد فيها الحماية والملجأ فضلا عن منافعها الاخرى.

واجهنا قبيل انبلاج الفجر سيلا متعاكسا من كتل بشرية راحلة نازحة كما في خروج اليهود من مصر. اسر وقطعان من المواشي تفر من المعارك وتبتعد عن القرى القريبة من الجبهة لتجد لها الملجأ في الوديان العليا المنغلقة والممتنعة تماماً عن الغارات الجوية. شيوخ واطفال يتدافعون بالمناكب فوق المطايا من خيول وبغال وحمير، النسوة ينئن بأحمالهن وقد

٣ـ كائن خرافي يوناني نصفه انسان ونصفه حصان (المترجم).

٤ـ سائل سكري تفرزه حشرة المن فوق أوراق البلوط ويجمع ليعمل منه أطيب حلوى وتدعى بالكردية (گژو) (المترجم).

٥ ـ يستعمل العفص للدباغة وتصنعه حشرة فوق أغصان واوراق شجر البلوط على شكل كرات (المترجم)

٦ـ طبقة من المغنين الجوالين الفرسان نبغت في القرون الوسطى (القرون ١٠ ـ ١٣) في فرنسا واسبانيا وبعض البلدان الاوروبية وقد حيكت فيهم اساطير كثيرة (المترجم).

ربطن بظهورهن مهودا ريفية ساذجة الصنع. او يهدهدن الاطفال ويحملن فوق افخاذهن مجموعات من الدجاج الخائف مشدود بعضها الى بعض فتخفق اجنحتها عند كل خطوة تخطوها الحاملة وكذلك يحملن فوق مناكبهن الحملان التي ولدت في الليل! والرجال يشرفون بكل رزانة وجدية على هذا التوقل الحزين بأعين يقظة وببنادق مهيأة. وفي الوقت نفسه يقوم الصبيان والصبايا الذين بلغوا الكفاية من العمر بمعاونة الكلاب في عملها على اعادة الحيوانات الشاردة او الخارجة عن الصف بصيحات عالية. الا ان قطعان المواشي بهدي من غريزتها كانت تتبع الانسان وتتأثر خطاه شاعرة بأن ملازمتها له هو اكبر ضمان لسلامتها. كان الصدى المضخم لدوي المدافع والقنابل يرتفع على الصوت الأصلي، وكان حصاني عندما تدنو الطائرات وتحوم في تلك الانحاء يتوقف من ذات نفسه ليلتصق بصخرة او ليبحث له عن ملجأ تحت شجرة. ان ملازمة الموت تشيع في حواس الحيوان انعكاسات غريزية مناسبة للحال باسرع من لمح البصر، فالخراف تترامى بعضها فوق بعض وتحشر نفسها في أيكات مرتفعة وادغال طويلة الساق او تتشبث باطراف المضيق. والكلاب تنطرح تحت بطون الخيل او تلوذ باعقاب الرجال اسيادها.

ساد السلام ثانية الا ان الرعب الناجم عن مرور الطائرات الخاطف ظل فترة طويلة يخيم على ارواح عالم الحيوان في كردستان.

لقد استغربوا وجودي بين ظهرانيهم فشرعوا يستجوبون مرافقي. اخذت النسوة يتوسلن بي من تحت خمرهن وجلابيبهن الطويلة الملونة. وخفّ بعضهن الي ووقفن بمحاذاة ركاب حصاني ومددن نحوي ايديهن المعذبة ليعرضن كلّ استشهاد شعب، حتى احمله معي من هنا واعبر به الجبال والبحار. كان في أعينهن السوداء الشبيهة بالتوت الاسود التي تلتمع كالجمر، ضراعة كل النساء اللاتي عانين ويلات الحرب. متحجرة جافة لنضوب الدمع منها. كان كل وقفة وتأخير مني مخاطرة الاني لم اعبأ. وانصرفت الى العناية بأم في مقتبل العمر مقلتاها تحترقان بالحمى، وانفاسها ضيقة لاهثة زاد في حالتها سوء نضوب معين دمعها. كانت قد وضعت وليداً ميتا قبل يومين تحت وابل من القنابل المنفلقة. انها الآن تشعر بالموت يهصر النبات المحيط بها ويتركه هشيماً. على انها كرهت البقاء وحيدة مدفونة في قمة الجبل. تحدثت عن جبّانة قريتها واشجار الاسپندار التي ستظل قبرها وعن بلاطتين منحوتتين فوق لحدها المؤقت. ورغبت كذلك أن يوضع امام الارض التي تثوي فيها آنية مملوءة بالماء لتشرب العصافير وكل وحوش البرية على ذكراها. وكان من الواجب ان تُحط حواليها دائرة لتحميها من الروح الشريرة فالكرد يؤمنون بقوة الدائرة السحرية ومفعولها، اعطيتها بعض المسكنات وزودت زوجها بشيء من الڤيتامينات في حالة نجاحها في القاء (صليبها) عن ظهرها. ثم استلقت لتنام فترة قرب نار صغيرة اشعلت لاعداد الشاي ولم تعد تصغي لازيز طائرات «الميگ» وهي في عملية حصد قطعان المواشي في اعلى القمة. كان يقف عند رأس المحتضرة صبي وصبية يقضم كل منها قطعة من الخبز.

ـ ما اسمك؟

ـ رزگارْ.
ـ وانت؟
ـ خبات

رزگار معناها «تحرير» وخبات معناها «نضال». وقد وقعت وانا سائر على اسماء اخرى مشابهة اطلقت على الصغار مثل «كردستان» و«آزادي» اي حرية و«شورش» أي ثورة، وهكذا تتجسد ارادة الشعب في الاجيال القادمة.

اتمت الطائرات دورتها بكل دقة وارتفعت محلقة فوق ذروة الجبل ثمّ انقضت خلف المنظر المنبسط أمامنا كالسهم الثاقب فملأ الجو دوي انفجار هائل. وهكذا اصبح طريق تقدمنا محفوفا بالخطر ووجب علينا ان نتفرق ونسير وحداناً بمسافات متباعدة كتدبير من تدابير السلامة. واخذ (شير) اثنين من البيشمركه الى المقدمة للكشف والاستطلاع. تركتُ حصاني يسير على هواه منتبها الى الرسائل التي تنتقل من اذنيه الي لتعلن لي اشارة الخطر. وعندما رمحني من فوق السرج وطرحني ارضا اقبل علي وهو يتشمم بمنخرية ليخبرني بنهاية فترة الحذر والتوجس. توقف فجأة عند مشارف دغل كثيف في نشز من الارض ثم انكفأ الى الخلف ورفع رأسه الى الاعلى، ولم افلح في سحب قدمي من الركاب. كلفتني السيطرة عليه جهودا غير قليلة، وراح يصهل ويدير عينين جاحظتين فيما حوله ووجدت مرافقيَّ يعانون مع خيولهم نفس ماعانيه لكبحها وتهدئتها. وهتف واحد من البيشمركه قائلا:

ـ انها لتشعر بالموت!

كانت الريح التي تهب من القمم، تبعث الى انوفنا رائحةً كريهة تعافها النفس تغشاها رائحة ماسخة هي رائحة الدم الحار. وكان ثمة بقع حمراء تلطخ الحصى، واحشاء حيوانية متناثرة مثل لفات اجسام الافاعي ومساحل طويلة قانية فوق المرعى المنتهك الحرمات. وثم اكداس من جثث الحيوانات مبعثرة هنا وهناك شذر مذر. خيول وخراف ومعزان وبعض الجواميس مبقورة البطون مقسومة نصفين، مجزورة، مقطومة الرؤوس، ممزقة الاشلاء، حيوانات مشوهة في نزاعها الأخير. تطلعنا اليها باستسلام وبعيون لاترى. كان ثمة فرس تقف جامدة من الحزن وهي تتأمل مهرها المقطوع القوائم وكانت الاحياء من المواشي قد حشرت نفسها في اكداس تحت حماية موهومة لبستان من اشجار البتولا وقد ركبها الذهول، والصمت والسكون يسودها كأنما تتوقع عودة الطائرات. وراح حصاني ينكت الارض بحافره دليل نفاذ صبره. وبرز اربعة من الرعاة كانوا قد استتروا في تيه من الصخور الگرانيتية ليقصوا علينا قصة مرور طائرات (الميگ)، قائلين:

ـ انها اطلقت مدافعها لفترة طويلة. حتى انها كانت تنقض على الحيوانات كلما أقدمت هذه على حركة او كلما حاولت الفرار. ولاحقت احداها بصورة خاصة، جاموسةً انفصلت عن القطيع وشردت باتجاه قرية (چومساك) فمزقتها النار شلوا شلوا وستشاهدون بقاياها امامكم. اخرجوا من هنا حالا لانها ستعاود الغارة وان لمحتكم فلن تخطئكم. ان السهل رحيب ولذلك فانها ستنقض زوجاً زوجاً، جنحاً مقابل جنح. وستكتسح كل شيء تحتها

اكتساحا.

اخذت اشعة الشمس تتراقص فوق ظروف الرصاص النحاسية الفارغة فالتقطت اثنين منها. انها واردة من (براغ) وورودها مستمر. لاعقبة ثمّ توقف هذه الطائرة. واصلت دورانها ومدفعها موجه الينا مهيئا ماسورته الثقيلة لضربنا واخذ الرعاة يحثوننا ويتوسلون بنا قائلين «اسرعوا بالخروج من هنا» كأنما يخشون وجودنا. فولينا الادبار مهطعين نطأ عشبا كثيفا طويل الساق في هذا (الزوزان)[٧] الوادع الهادىء في الايام الاعتيادية الذي انقلب الى مرسح مأساة من مآسي الغرب الاميركي[٨] ووقعت انظارنا فجأة على رأس جاموسة مستقرا بين بعض الشجيرات بدا وكأنه يمثل «فنطازيا قبرية» بقرنيه المتكئين على الارض كأنه قيثارة، واخرج لنا لسانا دمويا قانيا. تعقبتنا طائرة (الميگ) في طريقنا المنحدر المكشوف الذي بلغ بنا قرية (چومساك) الجميلة التي تجثم على كوع مجرى ماء تحف به صفوف من اشجار الحور المتراقصة. لقد تأخرت الطائرة في رؤيتنا خلال دورتها الاولى. فقامت بدورة اخرى لتعيد الكرة فوقنا فاحتثثنا مطايانا فوق السفح الحاد المرتقى والصالح للاستتار واخذنا ندفع بها دفعا الى طنف صخري خارج زاوية محور الوادي. وواصلت (الميگ) البحث عنا باصرار لمدة دقيقة خلناها دهرا. ثم افرغت مافي جوفها فوق قرية (چومساك). كانت طلقات المدفع الرشاش تتبع خط ازهار السوسن على طول مجرى الماء.... وانحرفنا معقبين طريقنا الاصلي لنصل باي ثمن كان قبيل حلول الظلام الى عتبة كعبتنا وخاتمة مطافنا، الى المقر العام لمكتب الثورة التنفيذي. ولاحظنا مجموعة من طائرات (هاوكر هنتر) تحوم حول القمة العليا التي تتوج هضبة مستوية مائلة نحو الشمس الغاربة. وسرعان مااتخذت وضع الانقضاض وافلتت شيئا من حمولتها ثم عادت ترتفع لتطلق مسحال الموت. وهاجمت قريتيْ (سرگلي)و(بونكريسكي) بوحشية. ان فكرة العثور على هدف لها، كانت تستحوذ عليها بشكل جنوني فلم تتوجه الينا ونحن نكاد نشارف القمة. كنا قد ربطنا خيولنا الجزعة تحت اشجار البلوط الخضراء ورحنا نزحف تحت ادغال كثة من الشوك. ماكدنا نبلغها حتى فوجئنا بنفار زوج من طائر السماني (القبج) من احشائها. ماأحسا باقترابنا حتى انتفضا وحلقا في طيران الخائف المضطرب. وفي دوي الانفجارات ورعودها اخذنا نصعد في طريقنا لناتي حفلة موسيقية اختلط فيها عويل البشر بصراخ الحيوانات. مرت الطائرات على ارتفاع قليل منا بحيث امكنني تمييز خيال الطيارين الاسود منعكسا على معدن مقصوراتهم الشفافة. وارتفعت سحابة كثيفة من الدخان وغبار الفحم لتخنق قاع الوادي. واكد لي (شير) انه لايوجد اي موقع عسكري لافي (سرگلي) ولافي (بونكريسكي) خلا مراكز حراسة صغيرة. واطلق زفرة مكروب يائس وندد بالحكام في بغداد «اولئك الذين

٧ـ اعني المرعى الصيفي الذي يقع في اعالي الجبال ويمتاز بالعشب الاثيث والماء الغزير (المترجم).

٨ـ اي افلام هوليود حول قصص الغرب الأمريكي (المترجم).

يقدمون على كل اعمال التدمير والحرق ليضاعفوا مصائبنا ولتجويعنا وسحق معنويات شعبنا».

ثم استطرد يقول:

ـ الحق يقال ان الجميع ينادون بوقف هذه الحرب والعرب اول المسؤولين عن هذا القتل الجماعي الذي لاطائل منه ان الدكتاتورية الغاشمة المسيطرة على العراق والحكومة كانتا تَعِدان الشعب كل مرة بأنهما في سبيل وضع حد لهذا النزاع.

واضاف قائلاً :

وهنا يتصاعد الشعور القومي ويشتد عوده لان الشقاء الذي يعاني منه الجميع باستسلام . موزع توزيعا عادلا فيقوي من الامل. ان لدينا مثلا قديما نردده في ساعات الضيق ووهن العزيمة لقد برهن على فائدته في درب الكفاح الطويل واننا لنعتقد بانه لايلبث ان يلقي مسوغّه:

اذا وجد ثمّ طريق، فلا يهم ان كان طويلا

اذا وجدت ثمّ مخاضة،فلا يهم ان كانت عميقة

ان كان ثمّ عذراء، فلا يهم ان بلغت من العمر عتياً

ان كان ثمّ حامل، فلا يهم ان تأخر وضعها

ومعنى هذا اننا لانبالي بالآلام والمشاق مادام الامل موجوداً.

بعد ان روى الموت غليله انسحب اخيرا من قريتي (سرگلي)و(بونكريسكي) وراحت طائراته بعيدا تبحث عن فرائس اخرى في سلسلة جبال (مامه روت) حيث عسكر قبل نصف قرن من الزمان فرسان قوزاق القيصر الروسي الذين كانوا قد حققوا انتصارا على الترك، ايام استخلاف (لينين) أضطروا الى الانسحاب، لقد اثرت الثورية الروسية تأثيراً عميقا في مصائر كردستان. وفي الوقت الذي كنت افكر في هذا كانت جبهة رواندوز تمتد امامي حيث يلعب الحظ الكردي لعبته الان. مقابلي يشمخ جبل (كاروخ) الاشم عموديا ملبدا بالغيوم كانه فطيرة حلوى بكتله الثلجية. موقع دفاعي منيع للطريق بعيد منعزل عن جميع القمم التي تكتنفه ولذلك كان الموقع الوحيد الذي استحكم فيه البيشمرگه منذ فترة غير طويلة من الزمن بعد خسائر دموية. جبل اقرع اجرد مكشوف يبدو خاليا من اية موانع طبيعية يصعب الدفاع عنه كما انه ذو قيمة استراتيجية زهيدة في الوقت نفسه وعلى مسافة ما الى اليمين كان عتو المهاجمين قد حشد قواه فوق جبل (هندرين) بقمتيه المتناظرتين الشبيهتين بالسنام يرتفع في الفضاء الى مايزيد عن الفين وثمانمائة متر. اكره البيشمرگه على اول تراجع تحت ضغط الهجوم العنيف التمهيدي. فحُصروا في قلب هذا الجبل الصخري واحشاء الغابات المتفحمة بفعل قنابل الناپالم. وفي الجانب الاخر من الطريق عزلوا في جبل (زوزك) فانسلخوا عن البقية وقصت أجنحتهم وانكشفت من كل صوب لتعرضات العدو ولحركات التفافه، كانت قمة (زوزك) جرداء صلعاء تعيد الى الذاكرة صلعة جبل (فانتو Ventoux) وكان من العسير ان يحتفظ به وهم يدقون دقا لاهوادة فيه ولا انقطاع بالمدفعية والطائرات. كانت طائرات (اليوشن) القاذفة تحوم

كالجوارح التي تقتات الجيف فوق تلكم القمم فتفري الجسور فرياً وتنثرها نثراً. وكانت ظروف القذائف والرصاص المغبرة وشظايا القنابل الكبيرة تكسو أديمه. كانت الشمس ساطعة من جهة فرنسا. الساعة هناك تشير الى وقت القيلولة بعد وجبة الظهر. لم اعبأ كثيرا بالجوع لعدم تناولي الفطور اذ كان جوعي متأتيا من احساسي بالخزي والعار فحسب ومن وجهة النظر هذه، ففي فترة رائعة رائقة حيث جمال المنظر يجعل الشعور بوحشية المأساة والحنين الى السلام اشد وقعاً على النفس وايلاما. لقد حلمت بازعاج تلك المخلوقات المتخمة الشرهة لهذا العرض الوحشي لآثار الحرب ومآسيها وبمثل هذا المشهد الشامل.

يلوذ المقر العام السياسي ـ العسكري للثورة الكردية في حمى شُعب ضيق يخترقه مجرى سريع دفاق من الثلوج الذائبة. يقع في اراضي (اكو) وهي القبائل التي يتزعمها (عباس آغا) الشهير احد المستشارين المخلصين لـ (ملا مصطفى البارزاني). كان ثم مدفع مضاد للطائرات ومدفع رشاش ثقيل منصوبين في رأسي المضيق يحميان المعسكر المتألف من خيام متباعدة جدا حسنة التعمية. هنا المركز العصبي الذي يمسك بكل ضربات نبض الجبهة باتصال مباشر، وكذلك (والفضل لمحطة ارسال واستقبال لاسلكية) لايُفلت اية رسالة من رسائل العدو تمر به. جلست فوق العشب في ظلّ شجرة اتحدث الى (حبيب)[٩] السكرتير العام للمكتب التنفيذي وهو مجاز دبلوم في الحقوق من جامعة بغداد والى العقيد (قاضي) [١٠] رئيس الاركان، ومساعده دكتور(نافذ)[١١] وكلاهما من الضباط السابقين في الجيش العراقي، و(علي سنجاري) ورفيقه (محمد امين علي) المشهور بانه صاحب اجمل خطّ، وعرفان (الطالباني) المحامي والقاضي، والدكتور (حكمت) وهو كبير اطباء عسكري و(سامي) وهو مهندس مسؤول بصورة خاصة عن الاعلام. كان معدل الاعمار لايزيد عن الاربعين. وشرع (حبيب) وهو شاب اسمر ممتلىء البنية حاد النظرات سريعها. يشرح لي الموقف باللغة الانكليزية فقال ان الجيش العراقي يعاني خسائر متزايدة والپيشمرگه ثابتون صامدون في اغلب المواضع. ولكن مع هذا فالمرء لايدري كيف ستؤول اليه الامور. نصبت خيمتي تحت الاغصان المشتبكة فوق مايشبه الحفرة لتؤمن لي افضل حماية ممكنة اثناء الغارات الجوية وعينّ لي الپيشمرگه (احمد) حارسا خاصا وجيء لي بأسير يُدعى (ابو سمرة) ليقوم على خدمتي. وكان للسرير السفري الذي جيء لي به صرير كثير وكانت المنضدة مقوسة الارجل والكرسيان مفككي المفاصل. وعمد ابو سمرة الى تزيين بيتي هذا بازهار جبلية. وفي المساء اشاع نور المصباح النفطي فيه جوا

٩ـ حبيب محمد كريم السكرتير العام للحزب الديمقراطي الكردستاني (البارتي) (المترجم).

١٠ـ العقيد عبد الرحمن القاضي اصبح سفير العراق في اندونيسيا بعد اتفاقية آذار ١٩٧٠ (المترجم).

١١ـ هو المقدم (المأسوف عليه) نافذ جلال الحويزي عين وزيرا للزراعة بعد اتفاقية آذار وقتل في حادث اصطدام سيارة في محافظة كركوك في حزيران ١٩٧٢ (المترجم).

من الراحة والطمأنينة وكان اقرب جار لي كاهن مسيحي هو (بيير بول بيدار)...

كان صغير القد يقزل على رجل اقصر من اختها ويغطس عائما في سرواله الكردي الفضفاض وسترته الطويلة الواسعة جدا. بذلة سوداء اللون تضاعف من بياض لحيته الناصع وقلنسوة من اللباد الوبري تزيد وجوده النحيف نحافة وهزالا. كانت نظراته اشبه بنظرات ابن عرس والكل ينادونه بـ (أبونا) وهي كلمة عربية تقابل لفظة mon pere وهو عضو في المكتب التنفيذي وفي المجلس الاعلى لقيادة الثورة ويمثل المسيحيين ويحيطه (ملا مصطفى البارزاني) بكثير من التقدير والاحترام. انه مواطن كردي من منطقة (زاخو) واسمه الحقيقي (بولص بيداري) يُدل ادلالا بعمره البالغ سبعا وسبعين سنة ويعتبر المرشد الروحي للمقر العام نشأ في الموصل وتعلم عند الآباء الدومينكان ومكث فترات طويلة في اوروبا، فعاش في (روما) و(لندن) و(بروكسل) و(باريس) قبل ان يعود ليُمضي حوالي الثلاثين عاما في بلدان الشرق الاوسط وهو يتكلم فرنسية فصحى وبكل طلاقة. اخذ يعبث (دون صلاة) بمسبحة ذكرياته ويمكن القول انه كان يرغب في أن ينفض في الحال كل مافي جعبته قبل ان ينسى شيئا منها قال:

ـ لقد حملت مسيو پوو M.puaux المندوب السامي الفرنسي في سوريا على البكاء يوما عندما ذكرته اثناء حديث جرى بيني وبينه بفرط حب المسيحيين هنا لفرنسا... لقد نفضتم ايديكم منا عندما تركتمونا تحت رحمة الدول العربية والان انظر كيف يهتم الجنرال ديغول بهم ويرعاهم في حين يلتزم جانب الصمت ازاء نداءاتنا هاهو يمالي الدول العربية ولايفعل شيئا في سبيل الكرد والمسيحيين؟

ثم راح ينزل سيلا من اللعنات على الكائنات بأسرها لاسيما اولئك المعتدين السوريين والعراقيين ثم انتقل الى الترك اللاانسانيين الذين طردوا وهجروا عائلاتنا واولادنا دون اي شعور بالاثم او الخجل فرارا من قصفهم الجوي. كان الايرانيون وحدهم يلقون حظوة عنده...

ـ والپاپا؟ هل اهملكم يا أبت؟

ـ اقول بكل اسف ان رسالتنا الى قداسته في الخامس والعشرين من تشرين الاول ١٩٦٣ لم تلق جوابا حتى ولا اشعارا بسيطا بتسلمه الرسالة. ومع هذا قدمنا للسفير الپاپوي في بيروت قائمة مفصلة ضافية بشهدائنا. يسكن العراق اكثر من مائتي الف مسيحي[١٢] اكثرهم يعيش في مناطق العمليات العسكرية على منحدرات جبال كردستان ومشارفها وفي سهول كركوك واربيل والموصل. من بين قراهم المائة والثمانين، دُمرت مائة وخمسون على الاقل واصبح سكانها الذين يناهزون الثلاثين الفا لاجئين لايملكون من حطام الدنيا شيئا. ركبهم الشقاء وهاموا على وجوههم وصاروا يتنقلون في ضواحي المدن الكبرى حتى وصل بعضهم بغداد. لايعرف بالضبط عدد الضحايا الابرياء من الشيوخ و

١٢ـ يبلغ عدد المسيحيين في مختلف انحاء العراق مابين ٨٨٤ و ٩٥٠ الف بينهم (٣٥) الف كلداني في العاصمة بغداد. وقد نزح نصفهم تقريبا في السنوات الاخيرة بسبب الحرب (المترجم).

في الاعلى: ممر شينوك الجبلي في نهاية «طريق هاملتون».
الهدف الاكبر للهجوم الحكومي، بقي دائما بيد البيشمركه.

في الاسفل: كوخ فلاح لايختلف بناؤه عن الاكواخ الاخرى.
في باحته شرفة تستخدم للنوم مفتوحةومقامة على اعمدة.

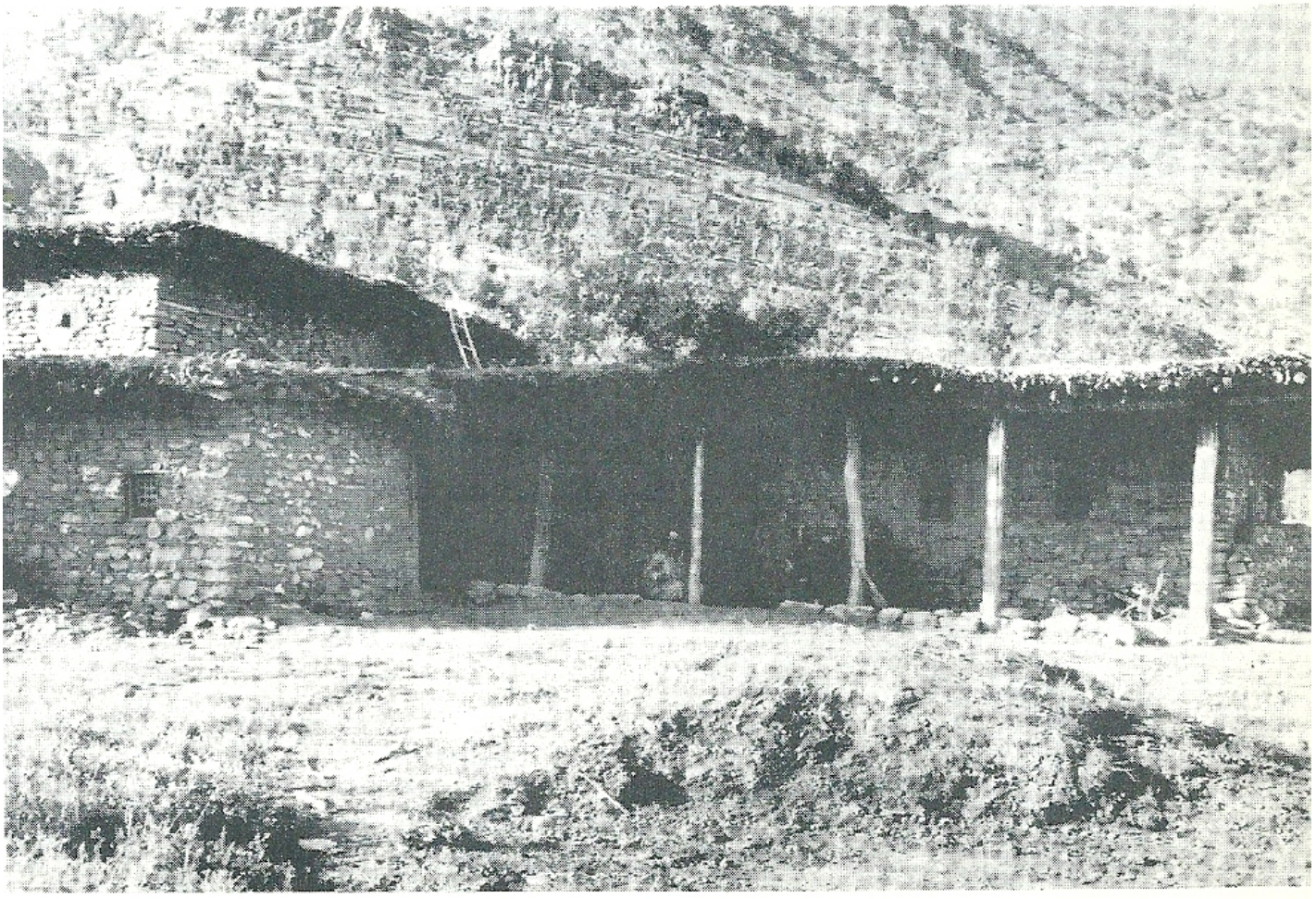

سمراء دعجاء العينين ممتلئة الشفتين (كلي) جميلة وهي تعرف ذلك.
ان المرآة الكردية لها دور اساسي في الاسرة.

في الاعلى:
آلاب پولص بيدار «ابونا».. المرة الوحيدة التي رأيته فيها وهو في ثيابه الكهنوتية من اجل تفقد وجبة من الاسرى (المترجم ـ يرى الى جانبه محمد عزيز قادري مدير ادارة المكتب التنفيذي لمجلس قيادة لثورة).

في الاسفل: الى اليسار صورة البطل المسيحي الذي استشهد وهو بالزي التقليدي. كثيرا ماتجد صورة ملا مصطفى البارزاني معلقة الى جانبها في المنازل الى يمين الصورة.

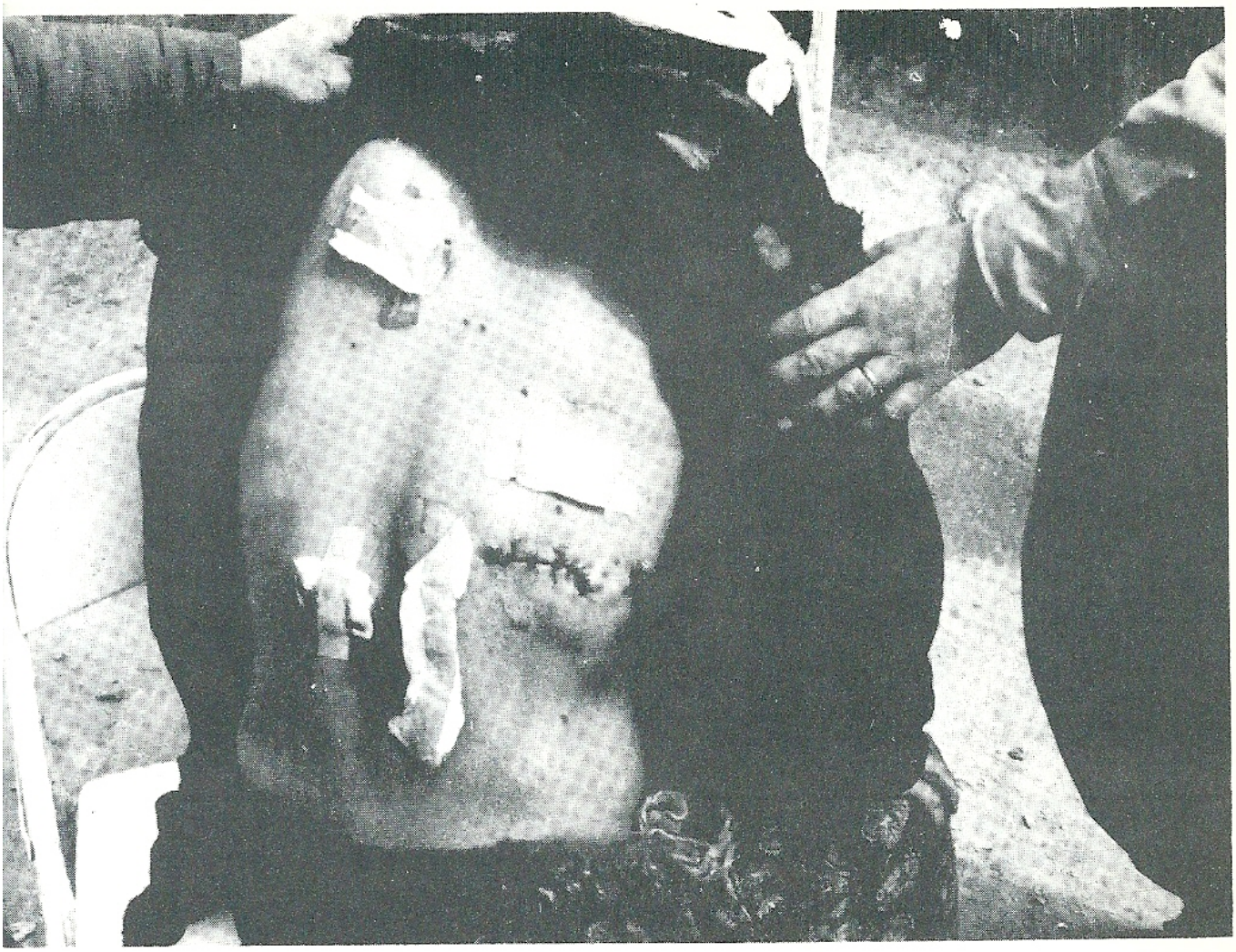

بعد التعقيم يظهر اللحم الحيّ في الجنب الممزق.

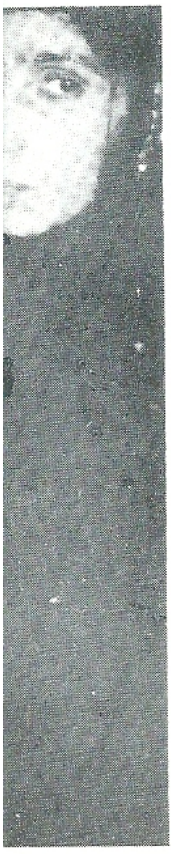

في الاعلى: الدكتور حكمت ينظف ماامكنه محجر عين فارغ مستخدما مرهم البينسلين. ويضع فوقه ضمادا سميكا من الخز والقطن.

في الاسفل: الناپالم! اظنها تنتظر شيئا لايقل عن معجزة، احسست بالخزي والعار لان هذه النار الآكلة تاتي من اوروپا ايضا.

في الاعلى: هنا وهناك اكداس مختلطة من بقايا جثث الحيوانات المنتنة. مقطعة نصفين، ممزقة اشلاء، مبتورة الاوصال، مفصولة الرؤوس.

في الاسفل: كانت مغامرة فاشلة لطائرة اليوشن هذه. التي حطت حتى كادت تلمس حافة القدمة وارتفعت ولكنها عجزت عن عبور الجبل فاصطدمت بالقمة وتحطمت (في الصورة جزء من محركها النفاث).

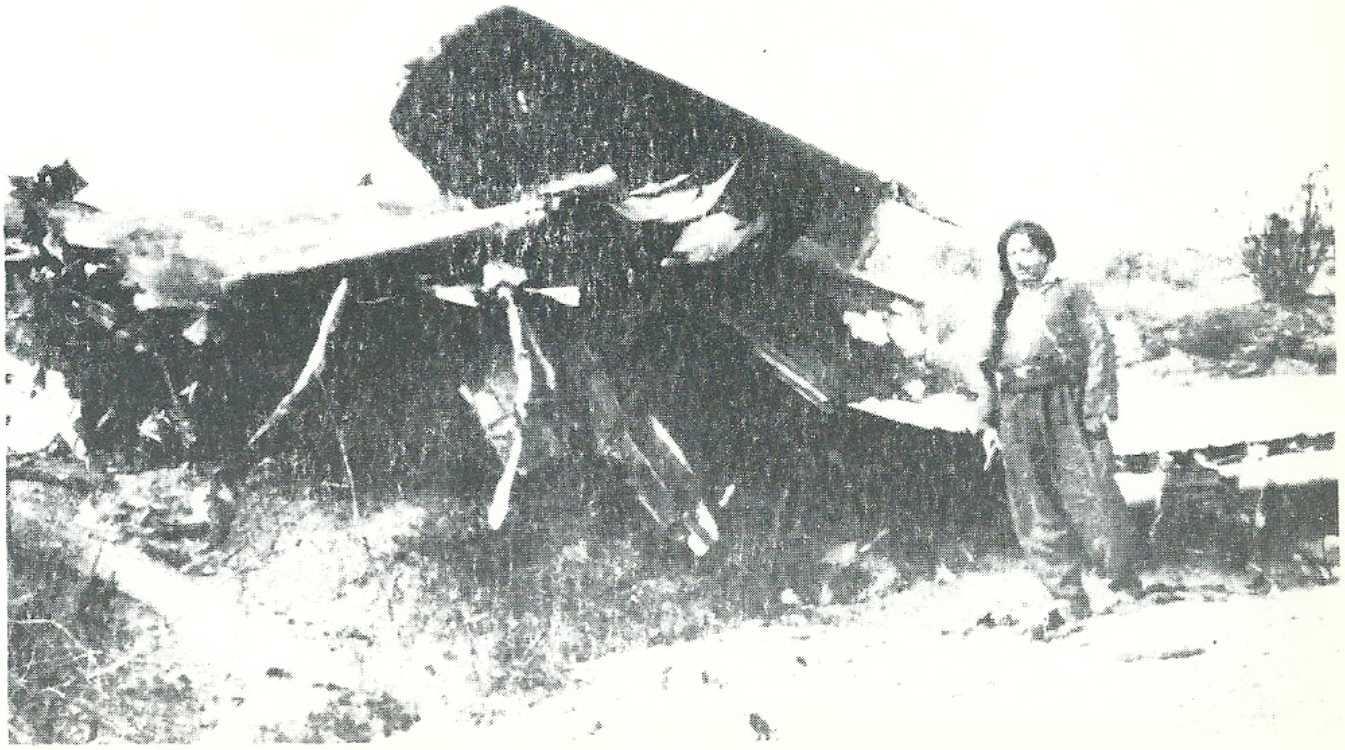

في الاعلى: منظر من منطقة المعارك والقرى المقصوفة. الاسر وقطعان الماشية يترك لها المجال للبحث عن ملجأ في التلال العليا. النسوة يتابطن الصرر والدجاج المرتعب.

في الاسفل: الاطفال والشيوخ فوق الخيل والبغال والحمير اكداساً.

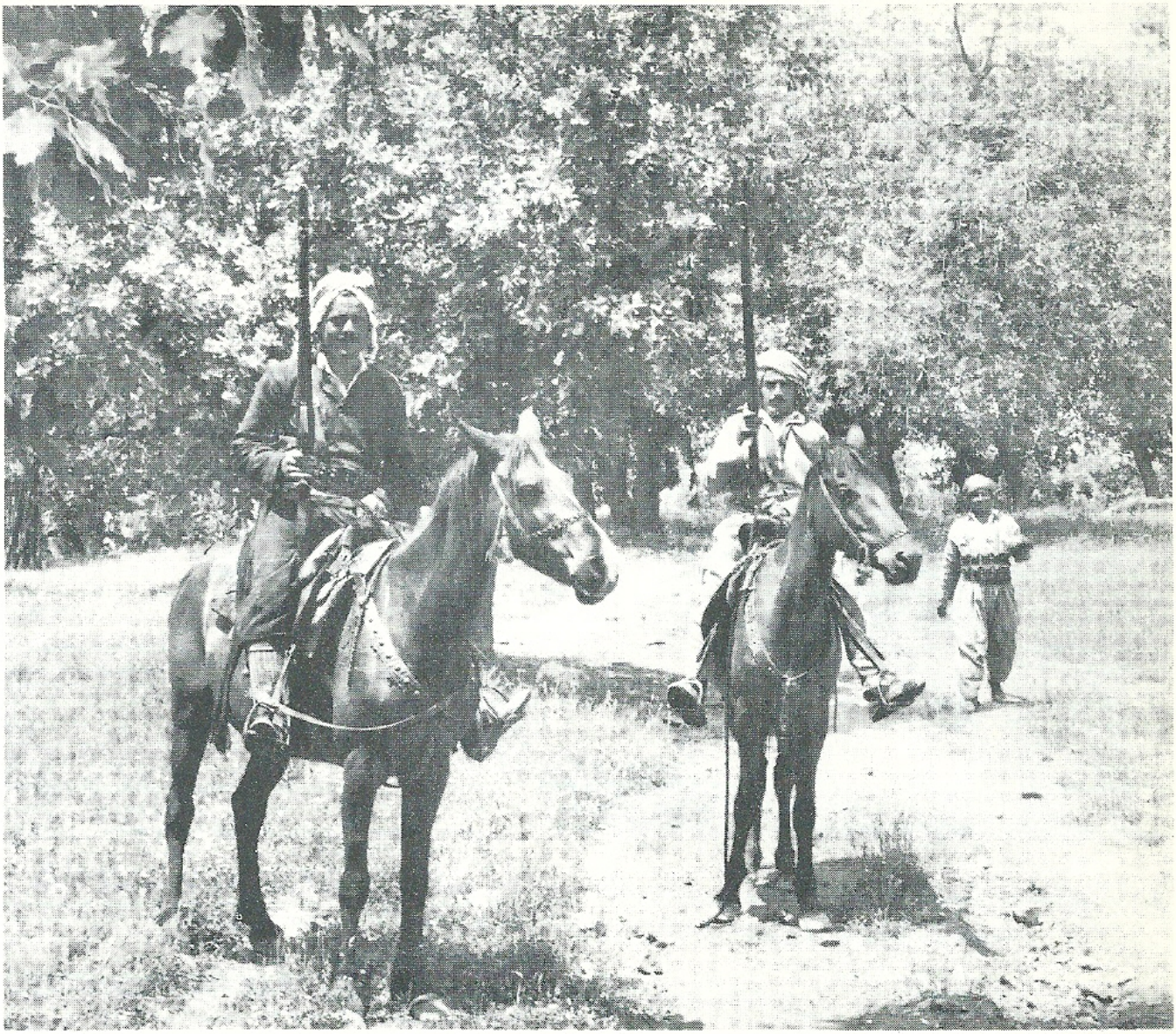

في الاعلى: سباق الخيل في زاكروس على الطريقة العربية بلغ نهايته يرى المتسابقون واقدامهم في الركاب المحكم ...وبنادقهم العتيقة الطويلة السبطانة التي لاتخطىء المرمى.

في الاسفل: هؤلاء المصارعون المعممون في معركة الحرية التي صارت لهم بمثابة عقيدة دينية. (محمد) الى اليمين كذب في الادلاء بعمره الحقيقي ليتاح له المشاركة في القتال.

النساء والاطفال والعجز الذين قتلوا او فقدوا بسبب القصف. اما عن العقوبات التي تنزل بهم وأما عن تدنيس المقدسات والتهجير والارهاب والتعذيب وهتك الحرمات فحدث ولاحرج. انه يفوق الحصر وأورد على سبيل المثال قضية المونسنيور (رافئيل شوريز) الرئيس العام لدير الرهان هرمز[١٣] فوق بلدة (القوش) فقد حكم عليه بالموت شنقا وخفض الحكم فيما بعد الى الاشغال الشاقة المؤبدة. لم يبق لنا شيء غير الامل بالنصر في هذا الكفاح حتى الموت. ان البيشمركه المسيحيين يندفعون بحماسة واقدام عندما يثار النقع ويحمى الوطيس. على اية حال فالدين في هذا النضال لاتأثير له كبير. ان الايمان والعقيدة واحدة فهي عند الكرد كما هي عند المسيحيين وتلك هي كردستاننا.

كان الاب (بيدار) يلوك باستمرار قطعا من الحلوى يخرجها من صندوق عتيق لپاستيل (ڤالدا) و قال انه سيعتزل في بغداد بعد انتهاء هذه الحرب، لينضم الى اهله وبني قومه مطلقا بسبب تقدمه في السن حياة البيشمركه الخشنة المحفوفة بالمخاطر. وهنا لمع وميض انفلاق قنبلة في اثناء قصف دفع نحوه كعب حذاء فاقنعته هذه الصدفة بان البركة الالهية تمنح رسالته عنايتها. كان موضع احترام الجميع وهم لايفتأون يلهجون بحيويته الاسطورية وبلحيته. انه ليصمد في كل الاحوال اماشيا كان ام راكبا بقوة احتمال مذهلة. والكل في كردستان يميزونه بخياله الذي يتقدم شخصه. اني لم اراه في ثيابه الكهنوتية الا مرة واحدة وذلك حين كان يرحب بوجبة من الاسرى، بالنسبة لاولئك الذين كانوا يُرسلون اليه فيرعاهم وفق مبادىء العدل والانسانية والاحسان المنصف. لذلك فكرت اني قدمت للاب (بول بيدار) هدية شخصية عندما اعطيت (أبو سمرة) قميصا وزوج جوارب وشيئا من المال. مثل هذا الراهب ـ الجندي الذي لاكنيسة لديه، المترحل والمتنقل بحسب تقلب اوضاع الجبهة ترى خيمته اشبه بكنيسة مصغرة وفيها كرسي اعتراف[١٤]. كانت خيمتي آخر صالون له يقضي فيه شطراً من الليل الطويل بتبادل الاحاديث طالما لايفتقد وجود صحفي اوروبي في الجبهة يقوي في هذه الايام الحواسم الفرصة اليائسة بشهادة وبدليل ملموس عياني.

كان (أبو سمرة) في مساء ذلك اليوم يحوّم مختالا حول وجبة عشاء فائقة للعادة. شورباء مركزة ودجاج مسلوق ودوله وهو اوراق عنب ملفوفة حشيت بالارز عمّد بكل

١٣ـ هو في الحقيقة رئيس جميع الاديرة الكلدانية. لقد صدر عليه الحكم من محكمة عسكرية في الموصل بتهمة ايوائه ومساعدته للانصار الكرد وخفض حكمه الى الاشغال الشاقة المؤبدة بعد اسبوعين من الحكم عليه (قيل ان ذلك تم بتوسط رئيس الجمهورية اللبنانية فؤاد شهاب) واطلق سراحه في تموز ١٩٦٦ بعد ان قضى زهاء ثلاث سنوات في السجن وهو الآن راعي الابرشية الكلدانية في الولايات المتحدة الاميركية (المترجم).

١٤ـ من الجدير بالذكر انه يعتز بتلميذ نابغ من تلاميذه هو الاب توما بوا P. Thomas Bois. الاوروبي الوحيد الذي له وقوف واسع عن الشعب الكردي واحوال كردستان. وقد نشر منذ مدة ليست بالطويلة دراسة عن الكرد بعنوان التعريف بالكرد Connaissance de Kurdes طبع في مطبعة خياط ببيروت (المؤلف).

ماتيسر من الخضار المناسب. أما اسيري الذي كانت مراسيمه الطباخية مكبرة في هذه المناسبة اضعافاً عشرة فانه لم يحقق شيئا لاجتذاب اهتمامي وصرف افكاري لمظهرين فيه بنوع خاص، انف ضخم لايمكن احتماله فوق قدمي معاون طباخ مما جعله اشبه بالمهرج او المسخرة واستخدام غريب للأنكليزية، ينطق آلياً بعبارة جدا very much كلما قلت له شكرا thank you شاركني (الاب بيدار) طعام العشاء وحدثني عن (حبيب) فقال انه ذكي جدا وهو يبلغ من العمر اربعة وثلاثين عاما أعزب اختاره (ملا مصطفى البارزاني) للسكرتارية العامة. كنت قد لاحظت ان الناس المطلعين في الخارج يعدون (جلال الطالباني) الذي عُرف بكفائته العظيمة زعيم الكرد المقبل. فادرت الحديث عامدا الى الدراما الداخلية الكبرى التي تسربت انباؤها قبل اشهر. فمسد الاب بيدار لحيته ومضغ افكاره في فمه الادرد وتنازل للادلاء باعترافه قائلاً:

ـ كنت اعتنق نفس هذه الفكرة عنه. ولكن قضي الامر وهو الان خائن. انه وصولي حسود طموح بقدر ماهو ذكي. انه من اولئك الاشخاص الذين ملكوا ذكاء شريرا. ذلاقة لسان وانتهازية المغامرين غالبا مايكونان نسيجا كاذبا أووهما. لقد كان سقوطه مدعاة لأسف (ملا مصطفى البارزاني) المتكرر فقد كان يعتبره في مقام ابن روحي له. وانا شخصيا حاولت مع غيري اصلاح ذات البين. لقد اراد ان يحل محل رئيسنا الاعلى فتآمر على عزله. ان المرء لايجرؤ على التفكير فيما كان يريد بـ(ملا مصطفى البارزاني) الذي هو تجسيد للقضية الكردية. فبدونه ستنقلب الحركة الى ملهاة وتسلية للمثقفين والمتحذلقين، ولعبة مذابح دموية. فشلت مؤامرة (جلال الطالباني) الانقلابية وهرب الى طهران في شباط الماضي. لم يكن احد يظن به الخيانة حتى تلك الساعة وهو الان في بغداد يتعاون مع حكامها ويعمل على اثارة بعض القبائل الصورانية ضدنا[١٥]. وقيل ايضا انه وضع يده في يد الجاش. وانا شخصيا لاتصور سوء طوية في كل من يهوي الى هذا الدرك. فقد وقع (جلال) تحت تأثيرين مدمرين روحه و(ابراهيم احمد) السكرتير السابق للحزب الديمقراطي الكردستاني، اردنا الحيلولة دون ذلك جهد امكاننا. و(ملا مصطفى البارزاني) نفسه كان متأثرا للغاية وان كظم ذلك في نفسه فلم يظهر عليه واضحا. فسألته:

ـ قيل انه اكثرية الشباب تميل الى (جلال الطالباني).

ـ الشباب؟ هناك اولئك الذين يريدون القتال وليس بينهم من لايستجيب الى نداء الواجب. ثم هناك الاخرون: اولئك الذين يشككون ويفلسفون. اولئك الذين يضعون اولا قضية الضمير فيقولون متسائلين «على أي شيء تقوم الثورة» وهناك من يتجهون بانظارهم غالبا الى المخططات والمباديء السياسية الاجنبية ماركسية كانت ام غير ماركسية وهي مخالفة لتقاليدنا التي تبقى رغم رجعيتها احياناً عمادَ الضبط والربط. وهم بذلك يكثرون

١٥ـ ان الخط التقريبي الذي يفصل بين القبائل الكردية البهدينانية (نسبة الى بهدينان) التي تتكلم اللهجة الكرمانجية من اللغة الكردية والقبائل الصورانية (نسبة الى صوران) التي تتكلم اللهجة الصورانية هو مجرى نهر الزاب الاسفل او الى الجنوب منه قليلا (المترجم).

من مشاريع الاصلاح وفرضياته ويتهمون (ملا مصطفى البارزاني) بانحيازه الى جانب الاقطاعيين وممالأته الرجعيين... فلماذا تقوم الثورة على العبودية والذل قبل توحيد الكلمة وتوفير السلاح؟ كذلك يجب تهيئة الشعب القليل الثقافة وتزويده بأولويات المباديء الديمقراطية وتكوين كوادر نشطه وتثبيت الاقتصاد على دعائم مكينة. ان الديمقراطية هي شيء ممتاز جدا لشعب غني منظم، وكذلك الاشتراكية لو طبقت تطبيقا صحيحا.

ألا قل لي أكان من مصلحة الدول الافريقية التي نالت استقلالها دون ان تخوض أصغر معركة بتضحية عنعناتها وتقاليدها على مذبح الكتابات والدراسات والفلسفات السياسية لنخبة لااتجاه لها. ان السياسة هي ثمرة عملية هضم وتمثيل عقلي، فيه يتحتم مزج التطبيق والتجربة بالنظرية والمباديء وليس هذا كل شيء ولكن هناك عدا هذا كثير ليصح الادعاء بالقابلية على قيادة مجتمع وادارته. ان الشباب المندفع بسرعة سير الحياة يحلم بسيارات سباق في حين مازال الحصان يتحكم في حياة شعبنا. ماأشبه السياسة بالدين فكلاهما ينتفع من الحاجة ومن ارادة الفداء اكثر مما ينتفع بمطلقات العقائد.

دلف (حبيب) الى الخيمة وبيده بندقيته ساعة تناول الشاي. كان قد انتخب سكرتيرا عاما للحزب الديمقراطي الكردستاني وبعدها انتخب سكرتيرا للمكتب التنفيذي في ابان الازمة الكبرى للعام ١٩٦٤ فقص عليّ كيف وجب قبل كل شيء ان يكون (ملا مصطفى البارزاني) زعيما للشعب فوق كل المفاهيم السياسية. وكيف ان الحزب يرى نفسه الاداة الكبرى لثورة وطنية ضد الاقطاع وضد الاستعمار، ثورة ذات اتجاه تقدمي. لقد ثبتت اصول هذا الحزب شيئا فشيئا بخلقه خلايا حتى لدى القبائل المترحلة ورفع شعار زعامة (ملا مصطفى البارزاني). وقد ازداد المعارضون افرادا وقبائل وضاعفوا المفاهيم المختلفة للنضال من حيث الشكل والموضوع. وصعد نجم (جلال الطالباني) في سماء الكرد ثم انه استطرد قائلا:

ـ ان (ملا مصطفى البارزاني) هو قائدنا العظيم ونحن لانستطيع الاستغناء عنه وهو بدوره لايستطيع الاستغناء عنا ومثلنا في هذا مثل (غاندي) و (حزب المؤتمر الهندي). ان المقارنة بحد ذاتها تثير مشكلة للفرق الواضح اليسير بين التصوف الكردي وقرينه التصوف الهندي في أن الاول لا ينطوي على تلك الروح الاستسلامية اللاعنفية مثلما يفترق (ملا مصطفى البارزاني) عن (غاندي) ويتفقان بمدى الصبر الذي يتحليان به. ان مستهل الاعمال الحربية المدعمة بالحماسة الشعبية في ١٩٦١ قوت من مركز الرجل «العجوز» ازاء الحرب الذي كان بطبيعة الحال يخضع لنظام قيادة متسلسلة خضوعا متينا. الا ان الحزب تحوطا منه وتحسبا ترك امر المبادأة في الصدام المسلح لقبيلة بارزان في العام ١٩٦٢ او ربما كان بعض زعمائه السياسيين يتوقعون نتيجة فاشلة من هذا الصدام قد تؤدي بالاخير الى الاطاحة بزعيم تقليدي والتخلص منه؟ لقد حاولوا على اية حال ـ وهم عاطلون، سرقة النصر الذي خطط له وعملوا على ابتزازه منه فبذلوا الجهود لكساء الجيش الثوري الطابع السياسي، فثارت نفس البارزاني لهذا التدخل في شؤون رجاله. ومهما يكن من امر فقد انفرجت الازمة في العام ١٩٦٤ باعادة تنظيم الحزب

الديمقراطي الكردستاني على ماتراه اليوم. واصبح العجوز على رأس كل شيء: على رأس الحزب والمكتب التنفيذي والمجلس الاعلى لقيادة الثورة. والجيش الثوري لايركن الا اليه. وهو في وضعه هذا يملك التصرف بكل السلطات التي يمارسها تحت اشرافه كل من المجلس التنفيذي وهو يتألف من سبعة عشر عضواً، خمسة سياسيين من اعضاء اللجنة المركزية للحزب وخمسة عسكريين وخمسة من زعماء القبائل الكبيرة واثنين من الشخصيات البارزة منهم الاب بيدار الناطق باسم المسيحيين، وممثل عن المثقفين. والمجلس الاعلى لقيادة الثورة الذي يتألف من ثلاثة وستين عضوا يدخل فيهم سائر اعضاء اللجنة المركزية والمكتب التنفيذي والقادة العسكريون ورؤساء القبائل وعدد من الشخصيات البارزة. وهو يجتمع عادة مرة واحدة كل اربعة اشهر. ويجتمع كذلك في الظروف غير العادية اما بناء على طلب من (ملا مصطفى) او بطلب ثلثي الاعضاء. والواقع ان المكتب التنفيذي المزود بالصلاحيات الكاملة يأخذ على عاتقه كل المسؤوليات.

يمارس الحزب الديمقراطي نشاطا في الخارج ايضا رغم ان ذلك غير قانوني في كل مكان. فيجمع الأعانات من سائر الكرد ومن اصدقائهم. اذ ليس في الامكان ان تجبى في العراق رسوم دورية منتظمة من سكان حلت بهم صنوف الارزاء فضلا عن دفعهم اغلى ضريبة وهي ضريبة الدم. وفي اوروبا قام (عصمت شريف وانلي) ممثل (ملا مصطفى) الشخصي بتشكيل منظمات ثلاث ناشطة هي (جمعية الطلبة الأكراد في الخارج)و(لجنة الدفاع عن حقوق الشعب الكردي في العراق)و(الجمعية الكردية الدولية). توصل بهذا الى بعض المساعدات الثمينة. وقد ابعد مؤخرا عن فرنسا بطلب من السفير العراقي الا انه تمكن من تجديد اقامته وبقي. وفي القاهرة نزل (جمال عبد الناصر) عند طلب بغداد فطرد (عقراوي) الممثل الكردي في القاهرة. وقد وجدته بلحمه ودمه بالقرب من (ملا مصطفى). وعند التحدث حول ايفاد مندوب للثورة الى الولايات المتحدة ذكر لي مهندس يدعى (سعدي دزه يي) الذي اكمل دراسته في المانيا. ان (حبيب) يعتبر انشقاق (جلال الطالباني) حدثا داخليا صرفا كما يحصل عادة في سائر الثورات. وهو حدث اليم الوقع اكثر مما هو خطير الاثر.

وقال ان هناك ثلاث مجموعات قتال (جيوش). واحد في بهدينان وظل مرابطا فيها. اما الاثنان الآخران فكل منهما وحدة ذات استقلال يدعمها المفوضون السياسيون الذين يتولون تثقيف المحاربين معنويا ومدنيا. واصغر وحدة مقاتلة هي الـ (پل) وتتألف من خمسة وثلاثين رجلا. يليها الـ(لق) وهو اربعة پلات وبعده يأتي البتاليون (الفوج) ثم الهيز (اللواء). والمهم في الامر هو استثمار ظروف معركة حامية قاسية افضل استثمار باقصى قابلية للحركة مع قلة العدد وضعف التسليح. والى جانب هذه التشكيلات يوجد تحت قيادة (البارزاني) المباشرة وحدة مقاتلة تتألف من ستمائة مقاتل منتقاة من قلب قبيلته.. ويبلغ مجموع الكل خمسة عشر الفا من البيشمرگه. لم يكن بالامكان تجهيزهم بافضل مما يملكون في الوقت الحاضر. والواقع ان مايفتقرون اليه هو المال والاعتدة لاالرجال. وفي العادة تلقى الوحدات التي تشتبك كثيرا مع العدو عناية خاصة في

التجهيزات والعتاد بحكم الضرورة. قل لي من اين نأتي بالمال لتأمين ما نحتاج اليه؟ وفي حالة ما لو امنا المال واشترينا تلكم المواد فكيف تنقل الى وحدة جبلية تحيط بها بلاد عدوة احاطة محكمة، ودول تتمتع بدبلوماسية ماكرة جدا. ويقدر (حبيب) ان البيشمركه يغتنمون من خصومهم يوميا حوالي خمسين قطعة سلاح من كل الانواع والاحجام. وقد اتحفني (ملا مصطفى البارزاني) يوما بهذه الدعابة فقال:

ـ من كل المساعدات العسكرية التي تتلقاها بغداد ليس هناك من يستفيد سوانا!

على ان هذا لم يمنع في عين الوقت من ارسال مندوب الى لندن هو (الدكتور محمود عثمان) عضو المكتب التنفيذي. للمطالبة بوقف ارسال المعدات العسكرية الى العراق مقابل عدم التعرض لسلامة منشآت النفط في كركوك. الا ان الورقة الرابحة في لعبة المصير التي تمثل كردستان اخطأت موضع الثقة. وقال لي (حبيب):

ـ إذا كان الدين هو اعلى شكل من اشكال تحرر الانسان فان نضالنا هو عمل ديني.

ان معظم الضباط والفنيين والخبراء في جيش الثورة هم كرد هربوا من الجيش العراقي. وكان يوجد حتى اوائل العام ١٩٦٤ معهد تدريب عسكري في (ماوه ت) وكان تابعا لـ(جلال الطالباني) حتى صار في الصف المعارض (الملا مصطفى البارزاني). وقد حول بعدئذ الى معسكر للاسرى وانضمت كوادره الشابة المتخرجة فيما بعد الى اخوانها الكبار السن.

يمتاز الكرد باصول فنية في الحرب لاتجدها في كتب (كلاوشقيتز) أو(ماو ـ تسي ـ تونغ) التعليمية فمنذ العام ١٩٦١، وهو عام الثورة حتى معركة (رواندوز)، لم يستخدم في اي ميدان من ميادين القتال اكثر من ألف وخمسمائة مقاتل وهو عشر المجموع الثابت للجيش العامل. ولقد تجاوز عدد الضحايا من المدنيين الخمسة والعشرين الفا بموجب احصاء رسمي فضلا عن تدمير (٢٠٠٠) قرية بينها (٢٦٠) مسحت من وجه الارض مسحا وعفي على اثرها في شهري آذار ونيسان. واما بخصوص الاقليات (عربا وتركمانا ومسيحيين ويزيديين) فلهم عند الكرد المسلمين احترام مضاعف لانهم يعانون التفرقتين العنصرية والسياسية. ان الحقوق والواجبات في كردستان هي واحدة متساوية على الجميع وللجميع.واستطرد (حبيب) يقول:

ـ اننا نحب المسيحيين كما نحب اخوتنا وهم يقومون بدور فعال في الثورة. ان ميثاق دم ابدي يربط بعضنا ببعض. وفي محاولة لفصم هذه الرابطة قام واحد من بني جنسنا هو (اسماعيل اغا سمكو) زعيم الشكاك بنقضه فاغتال في العام ١٩١٨ (مارشمعون بنيامين) بطريرك الطائفة الاثورية. الا ان العدالة الالهية اقتصت منه فدفع ثمن جريمته بعد زمن. فقد قتله الاثوريون بطعنة جنجر [١٦]. والحق يقال ان حركتنا النضالية ليست معصومة

١٦ـ في الواقع ان (اسماعيل آغا شكاك) الملقب (سمكو) وهو تصغير كردي لاسم (اسماعيل) قد قتل بكمين نصبته له القوات الايرانية في العام ١٩٣٠ وان الذي قتل بخنجر آثوري هو ابن له فضلا عن ابن ثان اردي بالرصاص على أثر حملة انتقامية للاثوريين بعد اغتيال مارشمعون مباشرة تجد تفاصيل ذلك في كتابنا مهد البشرية ـ الحياة في شرقي كردستان بغداد ١٩٧١ دار العروبة للنشر والتوزيع. وانا ارجح ان ثم خطأ وقع فيه المؤلف عند نقل اقوال (حبيب محمد كريم) (المترجم).

من الاخطاء. ونحن نشق طريقنا خلالهاونتعلم. ان هناك زوايا مخجلة في وقائع تاريخ كل الشعوب، ولاخلص من الشرح الطويل لأذكر لك فحسب هذا المثل السائر عندنا «بيننا وبين المسيحيين قيد شعرة. وبيننا وبين الارمن قيد جبل».

وذكر (حبيب) ان اضطهاد الحكومات العربية واذلالها للشعب الكردي هو الذي قدح شرارة الثورة وعمل لتوجيه الاذهان واعدادها للاستقلال... الا انه استدرك بقوله:

ـ غير اننا بالاحرى لسنا مجانين لنجري وراء هذا المطلب بالعمل على نيل استقلالنا او جمع شمل الشعب الكردي قاطبة. ان العالم لن يقبل مطلقا اجراء تعديل في حدود خمس دول لمصلحتنا اننا نريد فحسب حكما ذاتيا (اتونومي) ضمن الاطار السياسي العراقي. نوع من النظام الفدرالي على الاسلوب السويسري او الامريكي. يكون لنا فيه نائب رئيس جمهورية كردي. ونسبة عادلة من عوائد النفط. وادارة ذاتية ـ مدنية وعسكرية لاقليمنا. واستعمال لغتنا القومية بدون قيد او شرط.

لقد روى لي احد اعضاء المكتب التنفيذي ان مندوبين من كرد ايران وتركيا اقترحوا على (ملا مصطفى البارزاني) توسيع رقعة النضال لتشمل مناطقهم فكان رفضه باتا جازما لانه بهذا العمل يفقد قضيته الصحيحة كل امل لها بالنجاح، ان تدويل هذا الصراع الحربي سيضع في الواقع مشكلة كردستان في اطارها المجموعي ويصيبها بنكسة لاقيام من بعدها. وبعبارة اخرى لو اعلن الكرد الترك والايرانيون الثورة وإذا تكللت قضية أخوانهم الايرانيين بالنجاح التام. أتراهم سينالون نفس المساواة في الحقوق بدورهم؟ اني لااعتقد بذلك. بسبب طرز الحياة التي يعيشها كل مجتمع من ناحية. ولانه لايوجد الا (مصطفى بارزاني) واحد منح شعبه عند الامتحان تنظيماً سياسيا ـ عسكريا مكينا فعالا في واجبه النضالي. ان كرد العراق المطاردين بلا هوادة، والمعمدين بالنار، الممزقين بالنابالم، المنحصرين في ارضهم داخل جبالهم هم صورة حية لقائدهم. فهم والحالة هذه مستسلمون لحياة تكتنفها الاهوال. زروعهم تجتاح بلا انقطاع. جنودهم يذبحون، بيوتهم تدمر، بلاطات حجرية تزرع باستمرار في المقابر. ان عقيدة نظام كنظامهم يؤكد التآخي الطبقي امام الخطر والنكبة ليسمح باستذكار مثلهم القائل. «ان لم ترجهنم بعينك فانك لن تعرف للجنة لذة» وعلى سبيل الافتراض اننا لانستطيع تقدير فرصهم في البقاء اذ من يستطيع ولو بصورة محدودة ان يتكهن بما سيؤول اليه امر استشهادهم الطويل عند اغرائهم وجرهم الى مغامرة ذات طابع عام لاهدف واضح المعالم لها كان (ملا مصطفى البارزاني) المعتدل في طلباته يعرف جيدا ان (كردستان الكبرى) هي حلم ايثوبي ليس الا. ولذلك ظل ابدا ينفي بشدة تهمة الانفصال فيهزم ادعاءات بغداد ومزاعمها. لقد اخذ خبث الدول الاوروبية يخلق كردستانات. (وملا مصطفى البارزاني) ينصح كل كردستان منها بان تحل مشاكلها الحقيقية المعقولة ضمن الاطار الوطني والا ستغدو هشيما وقبض ريح.

ان الفرس هم من العنصر الهندواوروبي كالكرد. فهم اقرب للانسجام والتفاهم. وبمثل هذا القدر من الواقع فان مرور الزمن سيساعد على فتح حوار مثمر اكثر فاكثر مع العرب.

ولذا يأمل (ملا مصطفى البارزاني) ان يكون نصره الحاسم فتحا سلميا لاخوانه.

وبغداد التي كانت تتحسس تلك النتيجة اسرعت بدفع الجنرال (عارف) كوسيط شخصي الى انقرة وطهران للمفاوضة. ويمكن القول انه استقبل استقبالا طيبا في كل من هاتين العاصمتين حيث بذل له نصح استرضائي ذي صفة عامة. وفي رأي ان كل ثورة يعلنها الكرد في ايران معناها انتحار. انها ستخنق (ملا مصطفى البارزاني) وتفسد عليه خططه. ومن نافلة القول ان بغداد لاتجهل هذا فالحدود الايرانية ليست بالحدود المنيعة التي يتعذر اقتحامها. ترى هل ان مايحمل ايران على موقفها الراهن هو محض العطف؟ ان لطهران اقليات ثلاث كبيرة على حدودها. في الشمال التركمان الذين لاينفكون يتطلعون الى اذربيجان ايرانية. وفي الجنوب العرب الذين يدخلون بتحريض من (عبد الناصر) عبادان واقليم خوزستان في مشروع الوحدة العربية الكبرى باسم (عربستان)، وطهران في الواقع تخشى اشد هذه الاقليات مراسا وهي الاقلية الكردية التي ظلت دائما تقلقها وتشغل بالها. فبعد ان اضطهدتها وبغت عليها زمنا طويلا راحت الان تهتم بها وترعاها بل صارت تجاملها. كما تحيط كرد العراق اليوم برعايتها المفرطة. انها لورقة سياسية ربحها المضمون مضاعف، من الناحيتين الداخلية والخارجية، فعملها هذا يحشرها في اطار شؤون الشرق المعقدة فضلا عن ان الحرب الكردية اضعفت بغداد حتى انها صرفت اهتمامها عن موضوع (خوزستان) ولولا ذلك كانت ستعمد (جبهة التحرير العربية) الى اثارة القلاقل وزرع الاضطرابات في ذلك الاقليم. وكان (عبد الناصر) يعلم ذلك جيدا الى الحد الذي لم يكف قط عن حث (قاسم) ومن بعده الاخوين (عارف) المشير المتوفي والجنرال الحالي، على مفاوضة (ملا مصطفى البارزاني) وبذل تنازلات مشرفة. وقد صرح هو نفسه في شباط ١٩٦٦ اعتقد ان قدرا معينا من الحكم الذاتي لكرد العراق هو مما لابد منه وكان الرئيس المصري زعيم الوحدة العربية الشاملة يحاول ان يؤلب اكثر مايمكن من الاعداء لأيران والعربية السعودية وبذلك يثبت دعائم المقاومة في (جبهة ثورية) وهو يرى ان حركة ذات طابع نبيل «نحو الكرد تصدر من بغداد كفيلة بفصم العلاقة مع ايران» وتسمح في الوقت نفسه بتدعيم العمل التخريبي لصالح (عربستان). لذلك لم يكن تسرعا من احد المراقبين المصريين ان يسعى الى تحقيق مقابلة بين (عارف)و(ملا مصطفى البارزاني) في (رواندوز) الخريف الماضي.

اضف الى هذا كله ان لطهران علاقة طيبة مع (تل ابيب) وبامكان (اسرائيل) ذات المصالح في الشرق الاوسط ان تزود الكرد بالسلاح عن طريق ايران هذا ماكانت تعتقده الصحف العراقية الا انها لاتملك اي دليل قاطع على صحة اتهامها. وينبغي لي هنا ان اقرر الواقع وهو اني لم ار خلال مدة اقامتي لامبعوثا اسرائيليا ولابندقية اسرائيلية في ايدي البيشمركه. ولكن راديو تل ابيب يُسمع في كردستان باهتمام لانه يعكس (صوت كردستان الحر) ويذيع انباءها بكثير من التمجيد والحفاوة. لقد سمعت مرات كثيرة في الجبال الفرضية الاتية:

ـ لو كانت اسرائيل قريبة منا فسيحترمنا العالم العربي.

تلك هي في الواقع التعقيدات التي اصطلحت على القضية الكردية. المشكلة الكبيرة من مشاكل الشرق الاوسط. انها لتكشف بوضوح ماتحت الشعور عن تعذر حلها.

وفي تلك الليلة هيئت وسائل تنكري بالثياب الكردية للالتحاق بالمقاتلين في الجبهة. وأهداني الدكتور (حكمت) غطاء رأس (كلاو) من اللباد منقوشا نقشا دقيقاً بايدي نساء السليمانية. ولف (حبيب) حول رأسي كوفية (جمداني) منقوط بالاسود والابيض شبيهة بالتي يلفها (سامي) حول رأسه. ومنحني الاب (بيدار) بركته. وتقدمت فئران بتردد حتى اصبحت على قيد باع مني وشرعت تنظيف المائدة من فضلات وجبة العشاء. وكان حارسي (احمد) يسير جيئة وذهابا عند مدخل الخيمة وبندقيته معلقة في منكبه وسيگارته بين شفتيه. أضاف (ابو سمرة) بعض فحمات الى النار المحتضرة وانصرف رفقائي. فقمت بجولة قصيرة في ارجاء بيتي وكان الخفير يواصل غدوه ورواحه بصورة آلية. الاسير نصف عار يرتجف وهو واقف برسم الخدمة وقد ركبته برودة الليل وجمده وجودي. ناولته سيگارة فوضعها بين مفاصل يديه كمن يقبض على حاجة ثمينة وقسمها نصفين.

ـ هيئلي شايا.

ـ نعم سيدي (بالانكليزية)!

كان الليل ككل ليالي الريف في الفصول الجميلة. خاليا من ازيز الحشرات الرتيب واندفاعاتهاالمفاجئة. وكانت الفوانيس ترسل انوارها في المعسكر فتنداح فوق الارض. تمشيت وانا احتسي شايي وظلال الصينية تتبع اشكالا حيوانية في حالة من الهيام. ولحقني (ابو سمرة)، وعاء السكر في يد وابريق الشاي في اليد الاخرى، كأنه شماس يسير في اعقاب قس. وكان النور يشع من خيمة الاب (بيدار) كذلك. لم ار داعيا لاقطع عليه صلاته وعدت الى خيمتي واستلقيت على فراشي. وانطرح احمد على الارض ملتفا باغطيته وقد دس حمالة بندقيته في ذراعه.. واذنت لابي سمرة بالانصراف فانسحب ثم استقل ليروح في عالم الغيب، بالقرب من رماد النار الساخن. وفيما انا اراود النوم صاح بي المدفع ليذكرني باني على قيد خطوات قليلة من الجبهة.

الفصل الخامس

مذابح السكان المدنيين

(دني لي دني شيڤي كوركي بزني)
الدنيا هي هي منذ الازل الذئب يفترس الشاة
(مثل كردي)

كنت على علم بوجهتي. فبمواجهة مواقع البيشمركه الذين هم أمنع من عقاب الجو. حشد الجيش العراقي اربع فرق صدام مزودة باحدث الاسلحة يساندها سلاح جو قوي قوامه مائة طائرة روسية وانكليزية الصنع (اليوشن وميگ وهاوكرهنتر). الا اني لم اكن اجهل بان هذه القوات لم تدرب تدريبا كافيا على حروب الجبال، وهي في اغلب الاحيان تقع فريسة للكرد الذين كانوا قد اشاعوا الرهبة والهلع في اوصالها، ولا يساور الاسرى شك في هذا الامر مطلقا وهم لايفتأون يرددون بانهم دفعوا الى المعركة دفعا بالاخامص والكعوب ويقولون ايضا انهم اوهموا بان عملهم سيكون قاصرا على تطهير الجبال من العصابات واللصوص والبرابرة وقاطعي الرقاب واكلة لحم البشر. ولهذا ساد الاعتقاد فيما بينهم بان ماكلفوا به هو عملية بوليسية بسيطة، ولم تكن هذه الحيلة بالجديدة. هؤلاء الاسرى يشاطرون البيشمركه الان شظف العيش وقسوته الا انهم لايشكون سوء معاملة، ولقد اسر الي طالبان من طلبة معاهد بغداد بانهما كانا منذ زمن يعتقدان ان القضية الكردية مقضي عليها وشيكاً بحسب تأكيد المصادر الرسمية. وصارحاني بدهشتيهما مما شاهداه في لواء الموصل، فقد كان موقف الاهالي من الحكومة عدائياً صريحاً، ووجدا ان وحدات الانصار تمارس نشاطها علانية في وضح النهار دون ان تجد حاجة للتخفي، فهي تقاوم القوافل العسكرية وتنصب الكمائن وتدفن الالغام وتزرعها وتهدد المراكز الحكومية المنعزلة وبحلول الليل تمسي المدن مسرحا للاعمال التخريبية وحوادث الخطف بل ساحة لتنفيذ احكام الموت، وذكّرني الطالبان اخيرا بمبدأ (ماوتسي تونگ) الذي يتطلب من الثوري ان يتحرك بين الجماهير كما تعوم السمكة في الماء وقالا بلهجة من يحاول اخفاء اعجابه: ليس هناك من يضاهي الكرد في البسالة والاقدام، ففي فترة بقائنا في الموصل نفذوا حكم الموت على ملأ من الناس باحد الزعماء الخارجين عليهم، وفي كركوك خطفوا اثنين من مسؤولي دائرة الامن وفتكوا بهما، وقد حظر علينا الخروج وحدنا في الظلام مالم نحمل سلاحنا خوف ان نسلب، في الواقع ان هذه الاعمال ليس ابسط منها شيئا عند الكرد... في بغداد قاموا قبل فترة قصيرة بتعقيب مدير البرامج الكردية في مديرية الاذاعة العراقية واردوه قتيلا، واعجب ماحققوه في هذا الباب هو حادث مقتل (بدر الدين) في منتصف شهر كانون الاول المنصرم، كان العقيد (بدر الدين علي مصطفى) محافظا سابقا

لاربيل وهي محافظة يقع مركزها عند مشارف جبال كردستان وكان يمارس اعمال قمع وتعسف في غاية الشدة، منها انه امر بازالة ثلاثة قرى من الوجود وسوّاها بالارض، وقتل رميا بالرصاص دون محاكمة عشرة من وجهاء القوم فحكم عليه الكرد بالموت في مطلع هذا العام واذاعت محطة (راديو كردستان الحر) نص الحكم، فاسرع بالانتقال الى بغداد حفظا لحياته وبعد بضعة ايام من ذلك دخل عليه اربعة من البيشمرگه وهو بداره التي تقع في منطقة سكنى مخصصة للضباط فنفذوا فيه حكم الموت الذي لفظته عدالتهم بحقه ونجم عن ذلك اعتقالات أعتباطيه بين الاوساط الكردية في العاصمة وفي كركوك والموصل وكان بين المعتقلين الجنرال (فؤاد عارف) وهو وزير دولة سابق في حكومة الائتلاف الوطني التي جاءت في اعقاب سقوط (قاسم) الا انهم اطلقوا سراحه في شهر نيسان تنقية للجو وتمهيدا للمفاوضات الاولية.

من بين الاسرى الذين لقيتهم سائق كركوكي عربي، اشقر جميل الطلعة اخضر العينين نسخة طريفة متقنة لاحد اسلافه البريطاني، اسر في اعقاب معركة (بانه نرگزه) التي لم يمضي عليها زمن طويل، كان فوجه يحتل هضبة تنتشر ازهار النرجس فوق اديمها وتشرف على الحدود الدولية الثلاثة: التركية والايرانية والعراقية، وفي اولى ساعات الفجر من ذلك اليوم احدث انفلاق قنبلة هاون زعراً وهلعاً في المعسكر ولم ير الجنود انفسهم الاّ والپيشمرگه الذين كانوا قد احاطوا بالمعسكر اثناء الليل ينقضون عليهم من كل جانب ولم يؤخذ اكثر من خمسة عشر اسيرا بينهم ملازم مصاب بجرح بالغ، لم يكن من القائد الكردي وهو محارب مقدام يدعى (عيسى سوار) الاّ ان حمله الى قرية مسيحية مجاورة لقرية (دير بون) ووضعه في رعاية اهلها، وبعد بضعة ايام اجاز (ملا مصطفى البارزاني) طلب نقله بطائرة هيلكوبتر عراقية. اما السائق الذي ذكرناه انفا فقد استولى عليه الهلع وقبع في اعماق سيارة الجيب التي يقودها وتصنّع الموت. استحسن البيشمرگه فكرة سياقة السيارة لدى انسحابهم والاستيلاء عليها وهكذا وجد الاسير نفسه في ارض الثورة، افسحوا له مجالا ليذيع من مگرفون (صوت كردستان الحر) عن وجوده وعن اسره لاطمئنان اسرته، وقد حُقِقَ توسيع لمدى هذا الاتصال الاعتيادي عبر الاثير، اذ اوجد للاسرى مصلحة بريد عجيبة تتم بان تقوم منظمات الثورة بوضع رسائلهم في صناديق بريد كركوك واربيل والسليمانية والموصل واحياناً بغداد، ويسعد الحظ بعضهم بان يكون آباؤهم على صلات طيبة باوساط كردية فينقلون منهم الرسائل بنفس الطريق الى ابنائهم. ولقيت كذلك عاملا في رصيف ميناء البصرة وهو اب لسبعة اطفال، اكد لي انه لم يجند الا لأنه لايملك البدل العسكري وقال انه نقل الى الجبهة في الشمال بعد ان تلقى تدريبا عسكريا قصيرا في احدى ثكنات التدريب وذكر لي ان اكثرية الجنود عازفون عن القتال مثله وان الضباط كثيرا مايرغمون جنودهم على التقدم في خط الجبهة وقد اشهروا عليهم المسدسات، وهناك ايضا نائب ضابط في دائرة الاستعلامات العسكرية كان يعمل بمثابة ضابط ارتباط للجاش، يقر مختارا ان الاغلبية الساحقة من اهالي كردستان هم مع (ملا مصطفى البارزاني) ويقدر ان الخوارج عليه والمنشقين عنه يكلف اصطيادهم او كسبهم ثمنا غاليا.

واسيري (ابو سمرة) وقع في الاسر اثناء ماكان ينهب القرى الكردية، فنال عن ذلك تأديباً لن يبرح مخيلته، أدى به الى المستشفى ليلقى العناية من الدكتور حكمت وتلك هي عدالة البيشمركه. وبعد ان تماثل للشفاء راح يتنقل بكل حرية في ارجاء المعسكر كالاسرى الآخرين وكانوا يكلفون ببعض الاعمال الضرورية كالاحتطاب وقطع الاغصان واستخدامها لتمويه الخيام ونقل الماء والطبخ والتنظيفات. ولايحاول احد منهم فراراً رغم قرب الجبهة منهم، وقنعوا بخروجهم من التهلكة سالمين أحياء فبالنظر الى المعاملة الطيبة التي يلقونها انتفت اي رغبة لهم في السعي للمعارك ثانية. وعاد السائق ذو العينين الخضراوين القادم من تلك الهضبة النرجسية ليقول ضاحكاً. انه يتمتع هنا بأول اجازة في حياته. وبين مجموعة الاسرى هناك، افراد أنقذوا انفسهم بالزحف على الأيدي والركب في منطقة (زيوه) فشن هجوم معاكس لتحريرهم فهربوا الى المؤخرة ليقعوا بأيدي المنتصرين! لاشك انه من الضروري الرجوع الى كتب التاريخ الحربي ففيها العجيب من هذه الوقائع ولكن في بلاد الشرق الاوسط تحدث امور تفوق الخيال غرابة وكل شيء ممكن هناك وماعلى المرء الا ان يستذكر حرب السويس عندما استظهر الجنود الاسرائيليون على الجيش المصري.

قال القاضي (عرفان الطالباني):

ـ اننا نود ان يعامل من يقع من رجالنا في يد العدو نفس المعاملة التي يلقاها رجالهم هنا. ولقد اقترحنا قيام الصليب الاحمر الدولي بالتحقيق عند الجانبين، فلم توافق بغداد.

والاسرى من البيشمركه قلة تكاد لاتذكر. وان شئنا الدقة في قولنا فهم في الواقع لايستسلمون. الا ان السجون ومعسكرات الاعتقال تغص بالمدنيين الكرد. ان الحياة هنا لم تعد لها قيمة. وكذلك حقوق الانسان فهي لاتحظى بأية رعاية. على ان المرء لايسعه ان يتخلص من وهمه بخصوص هذه الفئة من الاسرى ومهما يكن، فالمسألة تعتمد على حسن نية سجانيهم اولاً وآخراً ويذكر بهذا الصدد ان (الاب بيدار) يؤدي رسالة انسانية نبيلة. وكذلك الكردي فانه يشعر بالخيلاء والارتياح عندما يمارس عملاً من اعمال العدل. وتطبيق العدالة في مناطق الثورة يتم بحسب القواعد والمباديء الفرنسية فهناك محاكم ابتدائية ومحاكم استئنافية ومحكمة نقض وابرام (تمييز) و «ملا مصطفى البارزاني» يمثل المرجع الاخير في ممارسة حق الرحمة او العفو[1]. مما لاشك فيه ان الحرب توقع خللاً واضطراباً في بنيان المجتمع برمته. لذلك فلا لوم ولا تثريب على شعب ظل دوماً محكوماً من الجهل والاستبداد ان يطأ بقدمه العواطف والتعاليم السامية غير آبه. وعلى

١ـ كنت أترأس المحكمة العليا لكردستان المحررة وبأمكاني القاء ضوء على هذه النقطة: كانت محاكمنا تطبق القوانين العراقية كلها خلا بعض القرارات التي يصدرها المكتب التنفيذي وهذه القوانين هي انكليزية ـ عثمانية الاصول ولذلك يمكن القول ان الروح القانونية الفرنسية لم تكن غائبة فيها لان القوانين العثمانية مستمدة من اصول فرنسية. والمحكمة العليا هي المرجع الاخير في المسائل المدنية. اما الامور الجزائية فمع ان ملا مصطفى البارزاني كان قليل التدخل في استعمال صلاحيته كرئيس دولة واقعي الا انه كان يملك حق العفو والتخفيف فعلا. (المترجم)

كل حال فالمرء لايتوقع ان يجد قدراً كبيراً من الثقافة تحت القصف. كما ان العدالة نفسها تعاني أزمة لامناص منها. وراح (عرفان الطالباني) يحدثني في الوقت نفسه بقصة جاسوس يعمل مساعد خباز كان يزود (الجاش) بمعلومات عن الثورة. وامثال هؤلاء لايجدون في قلب الأب (بيدار) أي رحمة فهو لايميل الى التساهل معهم باية حال بل يدعو الى قتلهم دون محاكمة وفي رأيه ان هذا التدبير سيلقن درساً لكل الجواسيس الذين يتسللون الى جبال كردستان. ان وجود هؤلاء الجواسيس يلجىء (ملا مصطفى البارزاني) الى تغيير محلات اقامته يومياً تحت رقابة حرسه الشخصي اليقظة. هناك حرب خفية حامية الوطيس على هامش القتال الاصلي، والكرد يفيدون من تعاون الاهلين كلما احتاجوا اليه وهم بدورهم يفخرون بوكلاء الاستخبارات وجمع المعلومات منبثين في جميع انحاء العراق حتى في بغداد نفسها بل في دوائر الحكومة. ولذلك كانوا في الواقع يعلمون بكل حركات الوحدات العراقية. وملاكاتها وتشكيلاتها وصحف الثورة تنشر تلك المعلومات دون وجل.

تطبع صحف الثورة في قرية صغيرة قريبة من خطوط النار.الا انها جيدة الاخفاء تتوارى في احشاء غابة من الاشجار الكثيفة ، لاتسترعي الانتباه ولا تجتذب انظار الطائرات. ولذلك رأيت أن ابقي اسمها في طي الكتمان. ان المرء ليبلغها سيرا على القدم بتتبعه مجموعة متداخلة من البساتين الصغيرة. (وسامي) هو المسؤول والمشرف. انه يدير مؤسسة ذات اهمية كبيرة جداً تتالف من مطبعة تدار باليد، وصناديق حروف طباعية تصف باليد ومن هذه المؤسسة تصدر شهرياً ثلاث صحف كردية: النضال (خبات) وهي الجريدة الناطقة بلسان الحزب. ويطبع منها الفان وخمسمائة نسخة وتعالج مسائل الساعة الكبرى والشؤون العامة. ونشرة الاخبار وهي تتصدى على الاكثر للمسائل السياسية الداخلية وتنشر الانباء العامة. وصوت الپيشمرگه وتتضمن ملخصا للبلاغات الحربية كما تعالج شؤون الجيش، هذه المطبعة الحربية البسيطة السهلة الحمل، تمزج الثقافة المدنية بتمجيد البطولات العسكرية. كما تعمل على تثبيت مفاهيم النظام الفدرالي (لاالاستقلال) والائتلاف الوطني وتشرح الفرق بين مجموع الشعب العراقي وبين حكومة بغداد .

شرح لي (سامي) ذلك بقوله.

ـ نحن لانغذي حقداً منظما على العرب.ان الاقدار شاءت ان نعيش معاً ولذلك كانت امنيتنا ان نحيا بسلام. الا اننا لانقر معاملتهم لنا بوصفنا مواطنين من الدرجة الثانية أو رعايا مستعبدين. لقد عشنا قبلهم في هذه الارض، سبقناهم اليها ومدنيتنا ليست باقل شأنا من مدنيتهم. وها انت ترى العرب انفسهم قد ركبهم الجهل واناخ عليهم الشقاء والبؤس بكلل، خانعين لظلم طغاتهم الذين يستغلونهم ويفرضون عليهم اثقل الضرائب. الى ان يصلوا بهم الى النتيجتين: التعصب الديني والتعصب القومي. ان العراق في عين الوقت يضم عدداً كبيراً من الديمقراطيين الذين يقرون حقوقنا ويؤمنون بعدالة قضيتنا.

هناك الحزب الشيوعي العراقي والحزب الوطني الديمقراطي والحزب الوطني التقدمي. ويتعاطف حزب البعث ايضاً معنا فقد اقترح دستورا عراقياً لدولة فيدرالية عربية ـ كردية.

في هذا المكتب الصحفي لتعقيب انباء الجبهة وسائر الاخبار العالمية، تُبحث مشاكل على درجة كبيرة من الاهمية. هنا تتخذ السيا سة معاني اخرى عندما تناقش لامن خلال وجبة طعام فاخرة او في صالون علوي آمن. بل بين انفجارات القنابل ودوي المدافع. وتحتل الشيوعية في هذا المكتب مكاناً رحيباً. لطالما صلحت هذه العقيدة لاثارة اسباب القمع والاضطراب ضد الكرد اذ كان يُتطلب دوماً حجة ما، لتسويغ الاقدام على عمل سوء، وليس ثم من هو عليم بذلك قدر معرفة (ملا مصطفى البارزاني) والمتحفظ والحساس بطبعه. ولذلك اسرع بتطهير حزبه من العناصر الماركسية المتطرفة. في خلال فترة طويلة من الزمن، كان يلاحظ في وجهات نظر الشيوعيين العراقيين ومواقفهم السياسية مظهراً متناقضاً وآراء مبهمة غير قابلة للتحديد كانت تمليها عليهم طبيعة تقلبات العلاقات مابين موسكو وبغداد.

وكان ثم ايضاً حالة تمرد مسلح تكاد تكون متواصلة زادها البؤس والتذمر سعاراً خدمت مصالحهم في الوقت نفسه. وفي اثناء ذلك تقدم الاتحاد السوفيتي في التاسع من تموز ١٩٦٣ الى الدورة السادسة والثلاثين للمجلس الاقتصادي والاجتماعي التابع لمنظمة الامم المتحدة بمذكرة حول سياسة الابادة العنصرية للشعب الكردي في الجمهورية العراقية وعرض على المجلس مشروع قرار يتضمن الادانة الصريحة لحكومة بغداد ويطلب وضع حد نهائي للعمليات العسكرية. فاعترض (مستر نهرو) قائلا ان ذلك مسألة داخلية بحتة. ولكنه سُمعَ في الوقت نفسه يندد أمام هيئة الامم المتحدة بالمعاملة الوحشية التي يلقاها الهنود على يد حكومة جنوبي افريقيا! ولم يصوت على ادانة العراق غير الاتحاد السوفيتي وجيكوسلوفاكيا، و خذلت الاقتراح ثلاث عشرة دولة منها فرنسا وانكلترا والولايات المتحدة. وحاولت منغوليا عبثاً ادراج القضية الكردية في جدول الاعمال اليومي للجمعية العامة في الامم المتحدة بوصفها خطراً يهدد السلام العالمي. بعد ان راحت (موسكو) تتقرب من (بغداد). فزودتها بالسلاح وهي تعلم أين ستستخدمه. كانت هذه البضاعة القاتلة توضع في صناديق لتشحن بالطائرات عبر جيكوسلوفاكيا الى العراق. واما بخصوص (عبد الناصر) الذي لايمكن ان يوصف في هذا الموقف بغير الحذر والمتعقل (لابسبب عطفه على القضية الكردية قدر ماهو بسبب ادراكه الى حد ما لأبعادها فقد كان لديه في العراق ماينا هز احد عشر الف جندي مصري. الا ان هدف تلك القوة الأساسي كان الحيلولة دون اندلاع ثورة داخلية ضد الحكم القائم قد تؤدي الى احلال التفاهم واشاعة السلم في ربوع كردستان. وفي مستهل العام ١٩٦٦ زعمت الصحف الايرانية ان هذه الوحدات قد شخصت الى ميدان القتال ضد الكرد. الا ان الاسرى هنا اكدوا لي انهم لم يشاهدوا جندياً مصرياً واحداً في الجبهة معهم. والظاهر ان هؤلاء الاسرى لايكنون احتراماً كبيراً للجنود المصريين.

تحتل المطبعة منزلا جبليا لايمتاز بشيء عن المنازل الاخرى. ومادة بنائه هو اللبن الحمراوي.

مزيج من التراب والتبن المدقوق يُسوى باليد ويُعرض لأشعة الشمس. كان في المنزل فتحتان صغيرتان تخرقان الجدار على شيء من الارتفاع عن الارضية اشبه بنافذتين لتسمحا بدخول النور. ولايوجد قطعة اثاث في غرفة الجلوس خلال الموقد البدائي القائم في الوسط اشبه شيء بجرة خزفية منتفخة البطن، دفنت في تراب الارضية المدكوك. وهناك مطارح واغطية زينتها ايدي نساء القرية بنقوش من ازهار، والسقف منخفض جداً يتألف من مجموعة اغصان سيقانها مبسوطة فوق اعمدة قليلة الهندام من جذوع شجر الحور (الاسبندار). في هذا السقف تحيا كل انواع الحيوان الذي تجده في كردستان تقريباً وتتميز بالصفاقة والازعاج، من جرذان وفئران الى عقارب وثعابين.

كان صاحب الدار التي مكثت فيها يعمد الى احتياطات وقائية فيبسط فوقي مظلة قد تكون قطعة من القماش او الورق ليمنع عني المفاجآت غير السارة اثناء استغراقي في النوم، على اني كنت افضل النوم في العراء تحت القبة الزرقاء تخلصاً من الحركة الدائبة في السقف او فوق المظلة المنشورة فوقي عند مقدم الليل. وكان في المنزل دكة سميكة من الطين القوي فيها ثقوب منتظمة لتصريف الدخان. لقد وجدت يوما مافي واحدة من تلك الكوى التي اهملها «پاپا نويل»[٢] زوجاً من العقارب من اهل الدار تسعيان مستقبلتين الشمس على عتبة بيتهما لكن اقترابي نفرهما فاسرعتا بالانسحاب وتوارتا في اغصان السقف المتشابكة. وفي كردستان يتنزه المرء ويسمر ويلعب فوق اسطح هذه السقوف المستوية. وتأخذ البيوت بعضُها بحجز بعض وتلصق بقدمة الجبل فتكون وسيلة السير والمرور الوحيدة خلال القرية. وتجد فوق كل سطح مدحلة اسطوانية من الحجر لرص التراب عندما يسقط عليه المطر. والمكتب الصحفي مثل معظم مساكن البلاد يفضي من ناحيته الغربية الى الشرفة التقليدية المفتوحة والقائم سقفها على اعمدة حيث ينصرف النسوة الى الاعمال التي تحتاج الى نار. وكان ثم ايضاً عدد من الاقفاص فيها بعض من طيور (الدرج) المدجنة.

تعج كردستان بالعقارب والثعابين لاسيما في ايام القيظ. وأكد لي الكرد ان بلادهم وحدها تنفرد بوجود الـ(كورامار)[٣] وهي الام الأصيلة للافاعي كافةً والاسطورة تقول انها سدت بجسمها ثقبا في فلك نوح[٤] ومنها كما يقولون جاء كل الزواحف. ان الأفعى

٢ـ يتوقع الاطفال الاوروبيون هدايا بابا نويل بمناسبة عيد الميلاد في الكوى والنوافذ المستترة عادة (المترجم)

٣ـ اثبتها المؤلف (اورامار) وقد ادركنا انه يقصد الـ(كوره مار) وهي افعى معروفة جدا في كردستان بل سيدة الافاعي هنا وسمها قاتل ببضع ساعات وقد جاء اسمها المزجي (كور: اعمى مار: أفعى) اي الافعى العمياء من فرط انسدال مقدم جمجمتها على عيناها فتبدو وكأنها عمياء. وهناك كثير من الناس الذين يعتقدون انها عمياء حقا. (ومن ميزاتها انها غليظة نسبة الى طولها اذ تبلغ المترين احياناً في حين قد يبلغ قطرها ١٠ ـ ١٣ سنتمترا وذيلها قصير (المترجم).

٤ـ تلك هي اسطورة دينية بالاصل تجدها عند اليزيدية (وهي طائفة مذهبية كردية) (المترجم).

تلعب دوماً دوراً هاماً في حياة سكان الشرق الاوسط وهذا مايفسر ظهور رسمها في صولجان (مارس) السحري، وجعلها شعاراً لـ(أسكليبيوس) آلهة الاطباء والحكماء. وهي تبدو في اساطير كردستان وحكاياتها حيواناً مهيباً حافلاً بالاسرار فتراها تحرس الكنوز والدفائن. ونعود لنجد التنين في المآثر اليونانية يقوم مقام الثعبان ليتسرب تدريجياً الى كل زاوية من زوايا العالم فيدخل أساطير الشرق الاقصى وبلاد الجرمان. وانك لتجد في بلاد الكرد اربع عشرة فصيلة من الثعابين، اربعة منها عظيمة الخطر. وفي أثناء احدى الغارات الجوية قُدر لي ان اتعرف على نوع غريب. كنت مختبئاً بين مجموعة من الصخور فطرق سمعي صفير رهيب سمرني في مكاني، وحانت مني التفاتة فوقع نظري على أفعى ضخمة وردية، لونها يشبه لون سمك السالمون على قيد باع مني، وقد بدأت تفك تلافيف جسمها وتخرزني بعين صفراء، «عين النحس» كما يشيرون اليها في كردستان، وخيل الي انها تهم بدغدغتي بلسانها المفروق، ورحت اتخير بين الخطرين خطر الافعى وخطر الصواريخ، لاشك انها كانت اشدنا خوفاً فقد حادت وتسللت مختفية ببطء كما يختفي الشبح، بين صخرتين، كانت تناهز المترين طولاً على اقل تقدير. ولم تغب كليا عن ناظري عندما بارحت المكان. واما عن العقارب فهي في كردستان نوعان كما هي في كل مكان الاصفر وهو يعيش على سطح الارض، والأسود الذي يعشعش في البيوت ولدغة الاولى تورث آلاماً لاتعقبها مضاعفات عادة. اما السوداء فتنفث سماً قتالاً احياناً. ومن الواضح انه لايوجد لقاح مضاد للسم في كردستان الا ان كل قرية او مخيم يملك عقاره الشافي للملدوغ ويستخرج من بعض الاعشاب وهو سر خاص يحرص عليه. وقد اكد لي دكتور (حكمت) ان لهذه العلاجات أثراً مخدراً لااكثر. وفي رأيه ان حالات الموت بعضات العقارب والحيات قليلة، وقد لاحظ فضلاً عن ذلك ان هذه الزواحف المرعبة تنشط في جو الحرب الجهنمي الذي يوقظ فيها غريزتها الشرسة لاسيما في سوح المعارك. وقد شاهد عند القصف بالناپالم خاصة، ثعابين وعقارب هاربة. تمر فوق اجساد الپيشمرگه المنبطحين على الارض دون ان تصيب اي واحد منهم بأذى.

ماكنت اتوقع اني سأصيب في هذه القرية من الراحة والاستجمام مافاق أملي، فقد غسلت ذهني من دوي المدافع وأزيز الطائرات وقضيت ليلة هادئة ندر ان قضيت مثلها طوال وجودي في كردستان واحة سلام في صحراء محرقة نشاز من السعادة في وسط «كونشرتو» جهنمية، والقرية فضلاً عن واجبها الرسمي والصحفي فهي تستضيف شخصيتين بارزتين هما (عباس آغا) زعيم قبائل آكو و(شيخ لطيف) ابن (الشيخ محمود) الشهير احد طلائع النضال الوطني الكردي[٥]. ان الحياة هنا تحرص على حقوقها ايضاً فقد استمتعت بكل ماتقدمه من الاطايب حفلة زواج احتفلت بها القرية في ساعات الضحى

٥ـ توفى عباس مامند آغا في اثناء مفاوضات العام ١٩٦٦. في احد مستشفيات بغداد. واما الشيخ لطيف فقد وافاه الاجل في العام ١٩٧٢ بعد مرض عضال. (المترجم).

الاولى. وتذوقت حلوى يسمونها (أكرشيك)[٦] على شكل جفن العين حشيت جوزا كثير التوابل واضيفت اليها اعشاب ذات نكهة طيبة. هناك مثل كردي يقول ان هذه الحلوى تشبه المرأة التي تستطيع ان تكون جذابة فاتنة بغنجها ودلالها لاحاجة لها ان تكون جميلة الصورة. واستمرأنا لوناً من الطعام بسيطا لكنه لذيذ. وكان مقام العريس والعروس الشابين امام باب الدار. الاول منهما يحمل بندقيته معلقة على كتفه والثانية محجوبة الوجه بقناع مسدل. والاشبين (برازاڤه) يلازمهما. وعزفت اذاعة صوت كردستان الحر النشيد الوطني (أي رقيب) الذي يشيد بالحقوق التاريخية للشعب الكردي المكافح لاجل حريته. واشاع البلاغ الحربي الذي تلاه الى النشاط المستمر على جميع قطاعات الجبهة مع هدوء مؤقت في المعارك الدائرة. وأنشد اصحاب الدعوة معاً نشيد الحرب الخاص بالپيشمرگه. «انهضوا وسيروا الى الامام» كان بعضهم يحمل الشعار الوطني على شكل قطعة قماشية خيطت في اكمام سترهم اليسرى. الحق يقال ان اذاعة صوت كردستان الحر موجودة فعلا على ارض عراقية لاعلى ارض ايرانية كما ادعت بغداد. وهي تقع في ناحية من قصبة (گلاله) وحكومة بغداد لاتجهل هذا رغم ادعائها السالف. لأنها ترسل بين آونة واخرى طائرات (الهاوكرهنتر) لتهاجم موقعها وفيما انا اتهيأ للرحيل مستتراً بعباءة الليل اذ شق غيهبه لهب ساطع قريب كشف نوره عن تجمع للضفادع في منعطف مجرى ماء. فأجفلت فانفجر مرافقيّ ضاحكين لفزعي، كانت العادة تقضي ان يعلن الـ(برازاڤه) للقرية ان الزواج قد تم فعلا. وان كل شيء قد سار على مايرام في اسوء ظروف وابعثها على القلق.

بلغ بي اقترابي من الجبهة الى قرية (بولي) حيث كان مستشفيان أنشئا على عجل، احدهما عسكري وآخر مدني. ان مايحتويان عليه من عقار ومواد طبية يجعلهما ادنى بكثر من مراكز اسعاف الميدان عندنا. كانا منزلين متجاورين ارضيتهما من التراب المرصوص وبمحاذاة الجدران الداخلية، دكة رفيعة هي بمثابة أسرة المرضى والجرحى. اما غرفة العمليات المظلمة بشكل يبعث الرثاء، فقد كانت تفتقر الى الحد الانى من أدوات الجراحة. والاضاءة تتم بالمصابيح النفطية. والدكتور حكمت مضطر الى الاكتفاء باقل مايمكن وتسمح به الظروف من التدابير الصحية والتعقيم.

وجدت المستشفى الاهلي خالياً اما المستشفى العسكري فكان فيه ثمانية من جرحى الحرب بشظايا القنابل والرصاص ولم تكن جراحهم خطيرة. وجدت بينهم جريحاً ذهب نصف ذراعه وهو اخطر الحالات. فهذا مركز اسعاف اولي. والحالات الخطيرة تعالج في مستشفيات المؤخرة وهي أفضل بقليل وتقع بمحاذاة الطريق، اذكر منها مستشفى (ناوپردان). على انه لم يكن هناك وسيلة لنقل الجرحى الخطرين غير حملهم على ظهور

٦ـ لاندري اي نوع من الحلوى يقصده المؤلف. ولعل الاسم التبس عليه. وربما كان يقصد (الكليچه) فهي اقرب شيء من الحلوى الى الوصف المقتضب الذي اعطاه اولعلها كانت مايدعى بـ(شكرله) (المترجم)

الرجال او البغال او الخيل والسير بهم في ممرات جبلية طويلة مسافاتها ولايتحمل كثير منهم مشاق الرحلة الا ان املهم الوحيد في الحياة هو الوصول الى المستشفى وفيهم رمق. اما الادوية فياويحهم، انها اندر من الذهب، وفي كثير من الاحيان يترك للطبيعة مهمة اندماج الجرح او تجبير العظم فتلتحم من تلقاء نفسها، على ان ايران لم تكن ترفض معالجة من ينجح بالوصول الى حدودها، وهي كذلك تعالج السكان المدنيين من ضحايا القصف الجوي. الا ان المشكلة الصحية ظلت من اعقد مشاكل هذه الحرب وابعثها على الاسى.

واني لاقسم ويشهد الله على قولي بان قرية (بولي) تخلو تماماً من اي مقر حربي أو موقع ذي صفة عسكرية، ولكن هذا ماهو حاصل، في يوم الجمعة والساعة تشير الى الثانية والدقيقة الثلاثين بعد الظهر كنا قد فرغنا لتونا من تناول وجبة طعامنا التافهة عند دكتور (حكمت) ورحنا نتجاذب اطراف الحديث تحت شرفة المنزل في اثناء شربنا للشاي، واذ بطائرتي (ميگ) تحوم فوق رؤوسنا، كان دوي القصف المتقطع الصادر من جبهة القتال قد حال بيننا وبين سماع صوتها عند اقترابها. حتى لمحناها فجأة تحتلان افقنا فوق الوادي الصغير. ثم انقضتا الواحدة بعد الاخرى. جرمان عظيمان مشمخران نزلتا الى ارتفاع واطىء حتى خيل لنا وكأنهما ستصدمان بواجهة المبنى. ما ان انبطحنا على الارض حتى اخذ رصاص رشاشاتهما يتناثر حولنا وينفذ على التوالي في الجدار راسماً خطاً من الثقوب عليه واصابت رصاصة عموداً من اعمدة الشرفة فقصمته نصفين قبل ان تسقط في قدْر معدني محدثة صوتاً مرناناً كأنك تقرع جرساً كهربائياً دائري القرص. هذا القدر الذي يسمونه (قازان) كان يستعمل لغلي الحليب. وما ان دارت الطائرتان وابتعدتا وراءنا خلف كتف الجبل حتى جذبني دكتور (حكمت) بعيداً لنستتر وراء ركام صخري متحدر للاحتماء بنتوئه. ففي موضعنا هذا لاتتمكن من الانقضاض علينا ومهاجمتنا. وبأدراك فذ للمسؤولية، راح المرضون يحملون الجرحى او يسندوهم وهم يعرجون ويجرون انفسهم جراً الى مجرى الماء الصغير الذي يقع عند مشارف ابنية القرية. وكان الاهالي قد تجمعوا تحت اشجار الحور يدفعهم شعور غريزي مفاده ان الخطر يرتفع عمن لا يراه! كانت صليات الرصاص بترجيع صفيرها الطنيني الحاد تؤلف توزيعاً موسيقياً (فاگنيرياً)[٧] لغسق الانسانية. واخذت حرباء تتقلب ظهراً لبطن بسبب الجلبة بوجودنا، كانت جاثمة فوق الركام الصخري تعرض سيماء تنطق بالغباء وعينين جاحظتين وتنفخ حنجرتها وتوازن نفسها موازنة آلية فوق قدميها الاماميتين. ان حيوان ماقبل التاريخ هذا هو موضع اهتمام الكرد ابداً وهم يسمونه (مارآسمان) اي ثعبان السماء ويؤكدون انه لايأكل ولايشرب ولاينام. وبما انه يغير صبغة جسمه ويتلون فهم يتصورون، بانه تجسد لقطعة من (قوس قزح ـ حزام فاطمة) وان له مقدرة على قلب الرجل امرأة والمرأة رجلاً!

---

٧ ـ نسبة الى فاگنر او (واغنر) الموسيقي الالماني الشهير بموسيقاه القوية ذات التوزيع الآلي الصاخب والتنقلات العاطفية المفاجئة (المترجم).

واثار انفجار فوق رؤوسنا غباراً لم تشعر به الحرباء. الا انه اثار صيحات متعاظمة وعويلاً وانيناً من تحت اشجار الحور.

القى دكتور (حكمت) نفسه من حالق، فراح يتدحرج فوق المنحدر الى حيث كانت طائرتا الميگ تحومان فوق رأس البستان في آخر دورة لهما. تسعة جرحى مستلقون تحت ظل الشجر خمس نساء وثلاث فتيان ورجل واحد، وكان هذا الاخير مصبوغ الوجه بالدم وقد اندلقت عينه اليمنى من محجرها، منظر عجيب من تلك المشاهد التي يتعذر تفسيرها. رافقنا المصابين الى المستشفى بين حفلة الندب والعويل ورحت اسند الرجل الذي خرجت عينه وقد بدا وكأنه يوشك ان يلفظ انفاسه الاخيرة فكانت له الاسبقية في العلاج، طُهر المحجر الخالي من العين على قدر الامكان وعقم بمحلول (المركيوري كروم) ووضع شيء من مرهم البنسلين على ضمادة سميكة من القطن والخز ثم عصبت. وبعدها أعطي الرجل المنكود الحظ مسكّناً لينام. وبعد ان فرغ الطبيب من هذا قال متنهداً:

ـ ليس في وسعي ان افعل اكثر من هذا.

وعرضت اخطر النسوة جرحاً، جنبها الايمن الفارغ، ففحص الدكتور (حكمت) الجرح المخيف وحدد تشخيصه بالجس فوق اللحم المزق... غابت الجريحة عن وعيها... وكان في وسع المرء ان يشاهد بوضوح احشاءها... تقلص الرئة وانبساطها. هنا تقف مباديء الطب كلها عاجزة عن تحقيق مأثرة كبيرة، وعلى المرء ان يبتكر. بعد ان طهر الدكتور الجرح خاط الجنب المفتوح بسرعة، ثم (مركيوري كروم) ثم پنسلين ثم مسكن. صبية اخرى تبدو وعلائم الاجهاد عليها سُلخ نصف فروة رأسها ووجدت في نفسها الشجاعة على الابتسام، الا ان ضغطة قليلة من الاصابع جعلتها تصرخ ألماً، وشاركت في الضماد وربط الجروح، وكان الجرحى الاخرون يعانون من كدمات ورضوض اصيبوا بها جراء ارتداد الرصاص عليهم او من تطاير شظايا الصخور او ارتطامها بالاغصان. وكان (المركيوري كروم) والپنسلين هما الدواء العمومي.

انتهى التضميد وخرجنا لنقوم بدورة في القرية. اني لاشهد دون ان اخشى تكذيباً بان اطلاق الرصاص كان مركّزاً على المستشفيين وعلى منزل دكتور (حكمت) الذي قال معقباً:

ـ انهم لايغتفرون لي تركي جيشهم والانضمام الى بني جلدتي.

قلت: اني ماجئت الا لاكون شاهداً على عدوان يضرب عرض الحائط بابسط القيم الانسانية واني ساندد بهذه الاعمال وافضحها فضحاً.

ـ ماالفائدة من هذا. أيجب عليهم ان يقتلوا وينشروا الارهاب؟. هذه ليست حربا بل بربرية.

للدكتور (حكمت) ثلاثة اشقاء. اثنان منهم في لندن واحدهما متزوج من فتاة فرنسية. وثالثهم في المانيا وزوجته واولاده الثلاثة يسكنون بغداد الا انه لايعرف عنهم شيئاً، واراني صورهم واستطرد يقول:

ـ كانت زوجتي معلمة في اربيل عندما التحقتُ بالثورة. فعمدوا فورا الى نقلها الى جنوب

العراق. ثم اودعوها السجن. وفي العام ١٩٦٥ اطلقوا سراحها على مابلغني. لقد ضحينا بكل شيء في سبيل املنا الوحيد: النصر. وبيدي هاتين العاجزتين والفارغتين اللتين لاتملكان حولاً ولا طولاً لأسداء العون لاخوتي لاراني املك ذلك العزاء والصبر اللذين اتمكن بهما من ممارسة مهنتي كما يجب...

وفاجئتنا طائرة (اليوشن) بعد مغادرتنا (بولي) اقبلت تمد عنقا اشبه برقبة لقلق هائل الجرم، فاستلقيت بين صخرتين ووجهت اليها عدسة آلة تصويري. فقامت بدورة وهي في وضع افقي. وكانت اشعة الشمس تسقط على بطنها المعدنية لتعكس منها لوناً فضياً. استولى علي شعور مزعج وخيل لي انها جاءت خصيصا ورائي وشعرت انها تجد في طلبي وأن الموت يعد ضربته القذرة بدون عقاب يتوقعه، وصارحت (سامي) بما أشعر وكان مقرفصاً بالقرب مني. فوجدت انه يشاركني الرأي (٨) لكن اصابة انسان من هذا الارتفاع بقنبلة كان يبدو محاولة سخيفة شبيهة بمحاولتك قتل حشرة على حائط برصاصة مسدس.

راحت الاليوشن تبحث وتنقب في اطراف غابة البلوط وتتفحص بيوتاً ميتة خرست كلابها. ثم حومت فوق سطوحها المدرجة وبدت لي متسكعة متباطئة فوق ركام من الصخور لاتبدو منه حركة. ونادى (سامي)رئيس حرسنا (كاكه عثمان) ذلك الاخ العجوز عثمان! الذي كان قد استقلى على الارض المشكوفة في مكانه، فرد بهدوء ورباطة جأش انه سيقوم ليستطلع سبب ضجة. وفجأة دارت الاليوشن دورة قصيرة ولاحت بطنها البيضاء، انها لم تعد الان تشبه اللقلق بل تشبه كلب البحر، هبطت ثم ارتفعت ثم زمجرت، قنبلة، اثنتان ثلاث، اربع قنابل، اطلقتها من الاسفل فتلقفتها اشعة الشمس، رأيتها بكل وضوح تتقلب في الهواء ظهراً لبطن ثم تغيب وتتلاشى في لانهائية السماء الزرقاء. اغمضت عيني لحظة، صفير حاد أعقبه حالاً دوي انفجار هائل يصم الاذان فوق الأرض التي كانت تهتز تحت ظهري نافورة (گيزر) ارضي، لهب يتصاعد، غصن يرتمي تحت قدمي، سحابة من الدخان

---

٨ ـ ليس بالمستبعد أن تكون هذه الطائرات مرسلة خصيصاً لتعقيب المؤلف. ففي بغداد كانوا يولون اهتماما خاصاً بالصحفيين الزائرين كردستان ويتم تعقيب حركاتهم بواسطة عيونهم المبثوثة في ارجاء كردستان حال ولوجهم ارض الثورة. وهذا الاجراء العنيف هو جزء من خطة أبقاء انباء الثورة مدفونة في أعماق كردستان، ترمي الى منع الصحافيين عن المغامرة بالقدوم. ولم ينفرد المؤلف بهذا الاهتمام الخاص ففي العام ١٩٦٢ حاولت الطائرات اصطياد (دانا ادمز شميدت) صاحب كتاب (رحلة الى رجال شجعان...) الذي ترجمناه الى العربية. فقد عقبوه الى قرية (رواشه) وهو في طريقه الى منطقة الثورة فيما وراء جبل شيرين لكنهم جاؤوا متأخرين فقد خرج الصحفي من القرية عند الفجر واستمرت قصف القرية بطائرتي اليوشن وثلاث طائرات ميگ طوال اليوم اعتقاداً منهم بوجوده وقد سقطت احدى القنابل على بعد تسعة اقدام فقط من (صابر) احد انجال ملا مصطفى وتتبعت العيون (ديفيد آدمسن) مراسل (السندي تلگراف) وصاحب (الحرب الكردية) وجرت محاولات لقصف الامكنة التي اختلف اليها، كما وصف في كتابه. واذا كانت الصحفية الالمانية (كريستل.پيلز) التي تواجدت في المنطقة قبيل اتفاقية آذار فلأنها لم تبرح مقرنا تقريباً وكان على السلطات في بغداد ان تجد طريقة اخرى لتدمير تقاريرها. (المترجم)

متحركة تكبر وتتسع وتتلوى منحرفة وتنتشر لتكتنف السماء وتغطيها، شعرت بآلام في اذني، انفجار القنابل كان بعيداً عني. فقد شحروران طريقهما شمالاً فاقبلا ليحطا على صخرتي وبدا وكأنهما يبحثان في ساعة الهول عن الوجود البشري. وقامت الاليوشن بعمل دورة اخرى لموازنة نفسها ثم عادت ترتفع الى الاعلى لتصيب بعض الراحة ثم اسرعت تبتعد فبدأت ثانية اشبه باللقلق رجلاه الى الخلف وعنقه الطويل ممدود الى الاسفل في طيران مستقيم فوق القمم الثلجية، نظر الي (سامي) وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة حزينة. واسرع (كاكه عثمان) يشيعها بلعنة. سددت منخري وحصرت واغلقت فمي ونفخت لأزيل الضغط عن اذني وافتحهما بعد انسداد. كانت الضجة في الوادي الصغير ترجع صدى واحداً، استغاثة النساء وصراخ الاطفال وثغاء التوسل والضراعة من جوف الخراف والماعز. عثرت على غلاف آلة تصويري نصف مدفون في شق بالارض، وكان الماء ينز من بطن حفرة قنبلة مستديرة مقعرة شبيهة بحوض سباحة، شجرتا بلوط اقتلعتا من جذورهما واستقرتا على حافتها لم تحترقا الا ان اللهب الذي التهم العشب الجاف في زحفه قد فحمّها.

.... جمعت حواليها كل سكان القرية الذين كانوا في الماضي يلهجون بجمالها وفتنتها، لم تتعد العشرين من عمرها، باهرة الحسن، العيون لاغير، عيناها المحمرتان الملتهبتان في وجهها المتغضن المتورم الذي ينز ماء، مثل التفاحة المطبوخة. كانت تئن انينا لانها لاتستطيع ان تفرج شفتيها المنتفختين لتنفث مايعتمل في جوفها من أحزان. لم تكن تعرف ماتصنع بيديها المسلوختين وقد اهترأت البشرة وتمزقت عنهما، كانت تمد هاتين اليدين مد المتسائل كأنها تستجدي البلسم الشافي، لقد اصابت النار رجليها واجزاء من ساقيها و التهمت النيران قطعاً من ثوبها الزاهي فكشف عن جنب قرمزي وصدر ناهد، صرنا نتطلع الى جسدها صامتين وقد اسقط في ايدينا نتأمله وهو يتقلب في رمضاء من الآلام المبرحة ولم يجد احد منا الجرأة في نفسه على لمس الفتاة الشهيدة حتى ولا أمها التي جلست القرفصاء بالقرب من رأسها تبكيها كأن الدموع التي تذرفها قادرة على تسكين آلام الحروق اللحمية. ووقف الاب وقبضته تشد على خنجره بوجه متقلص العضلات يقلب الفكر في ثأر عسير المنال. وكان ثم اطفال ذاهلون. لايعكس تطلعهم الى المنظر المرعب شيئا في نفوسهم.

الناپالم! يقول العلم انه مزيج من (حامض النفتالين وحامض الاوليك وحامض الزيتيك مضافا اليه روح البنزين الذي يكسبه قواماً جلاتينياً. حين انفجار القنبلة يتناثر هذا المركب على شكل قطرات محرقة تلتزق بالثياب والاجسام والاشياء فتحرقها بلهبها، أتون حرق جيء به الى عتبة الدار تماماً. نعم اسوأ منه بكثير، لقد تحدث المقاتلون من (زوزك) عن موت يسبقه هلوسة وهذيان اختطف من بينهم الكثير، ينقذف عليهم بصورة سائل لحامض الكبريتيك من خراطيم... ضُمدت الفتاة بالمركيوري كروم الذي لاغنى عنه وكان رأسها ملقى الى الوراء تنظر الى بعينين واسعتين شديدتي البياض. اني قادم من اوروبا بلد المدنية والحضارة والتقدم والعلم. خيل لي انها ترى بي معجزة. فعراني الخجل

لان هذه النار التي نهشت جسمها جاءت ايضا من اوروبا. واقترحت ان يوضع على الاجزاء المحترقة منها زيت زيتون ممزوج بحليب. وأبدى دكتور (حكمت) شكه في حياتها وراح ينفث مايعتمل في نفسه من مرارة، قال:

ـ الطائرات روسية. والقنابل امريكية والرشاشات چيكية والبترول انكليزي. تلك هي حال الدنيا. التجارة فوق كل شيء، ثم المباديء تراهم يعبئون الجماهير لاجل الدفاع عن حقوق الانسان حتى اذا اصبحت تلك الجماهير طوع يمينهم اخذوا يحتالون لصب الموت عليها بسبب ما تجاهر به من مباديء. انه خداع وغش عظيم. كل شيء عار امام هذه الفتاة المحروقة المحتضرة. والمواساة لا تنفع ولاتجدي. انا مسيحي لكني لاافكر بعد بحصول المعجزات فقد شعرت ايام الدراسة بان هذا حمق وسخف وايماني الان ينحصر في الاخوة الانسانية. الناس في بغداد وطهران وانقرة وباريس ولندن وواشنطن وموسكو، يرقصون ويمرحون... وينيرون علب الليل في المدينة بالكهرباء لتعاطي اللذة، دون ان يفكروا لحظة واحدة ان هناك امكنة من العالم تحتاج الى كهرباء لتخفيف الآلام. اني اجري عملياتي على اناس وهم في وعيهم. واستخدم الالم بمثابة مخدر. واعتقد ان للحزن تاثيراً مسكرا من شأنه شل اولئك المعرضين للاضطهاد، لانه ينقلهم الى حالة ثانية. لكنه لايسمح بالكلام لهؤلاء عن الديمقراطية والسياسة وحقوق الانسان والمواطنين وما لادري. هذا كل مانكسب من الأمن والطمأنينة، بطون متورمة وارجل محترقة يجب علينا ان نكشف للعالم باسره امام هذه الفتاة ونفسر لها كيف؟ ومن امر ؟ ولماذا؟ كانت الطائرات المغيرة روسية محملة بقنابل امريكية يقودها طيار عراقي يهاجم اناسا من البيض ربه وربهم واحد وكيف يسمح لهم بان يكونوا شركاء في هذه الجريمة؟ وأولئك الذين يرون بأعينهم ويعلمون بما يحدث لاتراهم يحركون ساكنا. والآن امامك فانظر هذه الضحية. فتاة لاتملك من حطام الدنيا غير سنواتها العشرين. ماهي سياستكم؟ لم لاتبسطونها لنا؟ بالنسبة لي هناك سياسة واحدة لااعرف غيرها ولن اعرف حتى نهاية عمري. هي سياسة ازالة الشقاء والالم او على الاقل سياسة التخفيف من وطأتها. اني احيا الان بين قوم بسطاء معظمهم رعاة، لذا تجدهم تواقين للحرية اكثر من غيرهم، وهم الآن معرضين للقتل والابادة. قد يضيق الخناق عليهم يوماً ما ويدفع الاحياء منهم حتى يحصروا بين جبالهم الجميلة. وتؤخذ اليهم جماعات من السياح في نزهة مبرمجة. فيشار الى الكرد لهم بالقول هؤلاء هم الكرد... البقية الباقية منهم. لقد حوربوا وجوبهوا بالحديد والنار انىّ توجهوا في سيرهم: غربا او شرقا، شمالا أو جنوبا حسب ماتلقي بهم المقادير. انهم على اية حال ارادوا في مسيرتهم نحو التقدم المحافظة على بترولهم بصورة خاصة، بينما هم لايملكون سيارات. فكان من الضروري كبح جماحهم وايقافهم هنا عند حد. وها هم الان كما ترون يعيشون بدعة وسلام. ونحن نريد الكهرباء هنا ايضا للترويح عن السياح والترفيه عنهم!

بلغ الدكتور حكمت نهاية التوتر العاطفي وبدا وكأنه يغالب البكاء...

ان في وسعي متابعة التسلسل الوحشي لهذا الاستئصال البشري شبه المتواصل الذي ظل يحصد ضحاياه الابرياء بعشرات الالواف منذ العام١٩٦١. ان المسؤولية عن هذا

الشعب تتضاعف يوماً بعد يوم وهو يُصلى ناراً وينزف دماً ويضحى به قرباناً، ان الضمير العالمي لاسباب تتعلق بالتاكتيك السياسي او بسبب الجهل او الانانية او اجتناباً للمتاعب، ظل اصم عن نداءاته لايعيرها اي اهتمام. ورفضت الامم المتحدة نفسها بصورة رسمية التدخل في الامر. ومما يدعو الى السخرية ـ وشر البلية مايضحك هو اننا لو تركنا جانباً (منظمة الصليب الاحمر الدولية) التي كانت تزود الكرد بالأدوية وبعض المواد الاخرى بين الفينة والفينة. لم تستجب الى نداءاتهم من سائر المنظمات غير (جمعية الرفق بالحيوان) التي اعلنت سخطها وتنديدها بالفتك المنظم بقطعان المواشي!. فالى متى يمر دون عقاب قتل الاطفال والنساء والعجز بالقنابل وبرصاص الرشاشات وبالنابالم، في بقعة من العالم تبعد جواً عن باريس بما لايزيد عن ثماني ساعات وعن الفاتيكان بحوالي سبع؟ أيجب اذن ان نمد خط أنابيب جديد في كردستان يمتد من جبالها حتى سواحل سوريا ولبنان، لتصب في وجه العالم المتسربل بعاره الاكبر مجاري الدموع وسيول الدماء على طول الانابيب التي يجري فيها النفط؟

في المعركة القاسية التي تدور رحاها يُثار في اغلب الاحيان استنهاضاً للهمم، حديثُ الانتصارات الكبرى التي انتزعها الشعب الكردي في اثناء مقاومته الجبارة. ففي العامين ١٩٦١ و ١٩٦٢ كانت جبهة القتال متمركزة حول مشارف قصبة زاخو في المضايق والشُعب الجبلية والقريبة من القصبة نفسها ومن قرية (باطوفه). هنا مني الجيش العراقي باندحار كبير وترك وراءه الفين من القتلى وفي السنة التالية كسب الثوار معركة باهرة في جبل (متين) القريب من العمادية. وفشل الحصار الحكومي المضروب على (بارزان) مسقط رأس (ملا مصطفى البارزاني) فشلاً ذريعاً.

بعد فترة من الهدوء خلال العام ١٩٦٤ الذي تميز بازمة الحزب الداخلية. شهد شتاء العام ١٩٦٥ ـ ١٩٦٦ انتصار (پنجوين) حيث فقد الجيش العراقي الفي شخص ايضاً[٩]. وقال احدهم «جئت الى جبل سفين الذي يشرف على قصبة شقلاوة ويسيطر على طريق اربيل فوجدت القتال حامي الوطيس لاينقطع. وكل قمة من قممه تتبادلها الايدي عدة مرات. وقد امتلأ الجبل بالقبور. ولدينا (رشيد سندي) وهو من مسيحيي زاخو، ملازم سابق في الجيش العراقي. الحق بهم خسائر جسيمة[١٠] وتحدث آخر عن ضربات مباغتة

---

٩ ـ كان المسؤول العسكري لقطاع (پنجوين) في ذلك الحين (عبد الوهاب الاتروشي) وهو ضابط شرطة سابق ومحافظ اربيل بعد اتفاقية آذار، وقد دامت هذه المعركة بالذات حوالي عشرين يوماً.

١٠ ـ رشيد سندي قائد افواج حرس الحدود بعد اتفاقية آذار وكان في وقتها المسؤول العسكري لقطاع جبل سفين وقد خاضت قواته معارك دفاعية عنيفة جداً دامت ثلاثة أشهر في ذلك العام. فصد فرقتين من الجيش العراقي (حوالي عشرين ألف جندي) عدا المرتزقة في حين لم يكن تحت امرته أكثر من الف پيشمركه وبحسب تقارير استخبارات وزارة الدفاع العراقية كانت خسائر الجيش ٦٥٠ قتيلاً ونحو هذا المقدار من القوات غير النظامية. اما احصاءاتنا فتذكر أن ماخسرناه هو (٧١) شهيداً. ومما هو جدير بالتنويه ان رشيد ليس مسيحياً. إلّا انه محبوب في اوساط الپيشمركه والمجتمع المسيحي لدوام اختلاطه بهم حتى صار بعض مرؤوسيه يتوهمون انه مسيحي. (المترجم)

يومية في مؤخرة العدو. وذكر بصورة خاصة احتلال (قصبة شقلاوه) في احدى الليالي وتدمير كل المنشآت التكنية والعسكرية فيها. وكل هذه المآثر العسكرية يجهلها العالم الخارجي. فقصارى مايفعله هو ان يدير عينه نحو كردستان كلما احدق الخطر بالبترول. قال لي (علي سنجاري):

ـ النفط يستخرج من بلادنا. وبموجب شروط الامتياز الذي تملكه شركة النفط العراقية، تستفيد بغداد مائة مليون باون استرليني لتمول به الحرب التي شنتها علينا .[١١] وبوسعنا تدمير المنشآت والحقول البترولية متى شئنا. الا ان (ملا مصطفى البارزاني) لايرغب في اثارة الخواطر في كل من باريس ولندن وواشنطن. قل لي اي خير ترتجيه اوروبا من بقائها متجاهلة نداءاتنا والحال كما ترى؟ انها الان تعمل بعكس ذلك اذا تنتهج سياسة مساندة العراق، غير مبالية بما يعانيه شعبنا؟ انها لاتحس بآلامه قدر ماهي تتحسس لرائحة البترول...

في أوائل ايار من العام ١٩٦٦ أشعلت النار في بئر بترولية بالقرب من كركوك وتصاعدت ألسنة اللهب حتى امكن مشاهدتها من قمم جبال كردستان. وقال لي ملا مصطفى البارزاني معقبا على هذا:

ـ كنت افضل دائماً اجتناب مثل هذه الاجراءات العنيفة المتطرفة. لكن عندما ارسلت (الدكتور محمود عثمان) الى لندن طالباً ايقاف شحن الاسلحة الى الحكومة العراقية، لم يصغ اليه غير نائبين من نواب حزب العمال، ان الجميع يميلون الى الاعتقاد بان انكلترا لو شاءت لما كان ثمّة حرب. وقد قام (أرشيبالد ماين هاملتون)[١٢] المهندس الذي شق الطريق الذي ندافع عنه بكتابة مقالة في صحيفة الديلي تلغراف مؤخراً بهذا الخصوص. الا ان حسابات حكومة (جلالتها) تنحو منحى آخر، إنها تتعامى عن المذابح الجماعية التي تنزل بالشعب الكردي في الوقت الذي تشجب التفرقة العنصرية في جنوب افريقيا وتدينها. ان حق الشعوب في تحقيق مصائرها هو حق واحد يتساوى فيه الجميع. فلماذا اذن نُمنع عن التصرف ببترولنا في الوقت الذي يسمح للآخرين التصرف بمقدراتنا والعبث بها؟

في تلك الفترة من الزمن استدعت (لندن) جميع سفرائها في بلدان الشرق الاوسط للتداول معهم في المشاكل العامة التي تواجهها هذه المنطقة من العالم، ولتبحث معهم مشكلة الكرد بصورة خاصة. وفي الوقت نفسه عقد في بيروت اجتماع للدبلوماسيين الامريكيين الذين يمثلون بلادهم في هذا الجزء من العالم ايضا في هذين المؤتمرين الخطيرين كانت معركة (رواندوز) ترنو شاخصة اليهم لتعيد لهم صوابهم. ذلك لان الكرد الذين تخلصوا من الوهم استقروا على رأي وهو ان يغامروا بالكل للحصول على الكل. وهم

---

١١ ـ كان علي سنجاري متواضعاً في ايراده هذا الرقم فعوائد النفط التي كانت تتسلمها بغداد آنذاك هي أكثر من هذا بكثير. وهو عضو اللجنة المركزية ومسؤول الفرع الأول للحزب. (المترجم)

١٢ ـ صاحب كتاب (طريق في كردستان ١٩٣٦) وهو مجموعة ذكريات هذا المهندس في كردستان خلال فترة شقه الطريق (١٩٢٨ ـ ١٩٣٢) الذي اعتبر معجزة هندسية في حينه. انظر ترجمتنا لهذا الكتاب (منشورات دار العروبة للنشر والتوزيع ـ بغداد ١٩٧٣) (المترجم)

من اجل ذلك مستعدون اذا دعت الحاجة لتعبئة شعبهم بكامله. وهم يعرفون بان العالم لايمكن ان يتحد على افنائهم. ومع سكوت (الجنرال ديغول) على نداءاتهم فهم مايزالون مؤمنين بتعاطف فرنسا في بواطن سرهم. فمن قولهم انه لو تسنى لفرنسا الاطلاع على الحقائق لتفهمتنا ومدت لنا يد العون.

فضلاً عن انها لايمكن ان تقف مكتوفة اليدين امام قتل المسيحيين الذين كانوا السلالة المباشرة لرواد المسيحية الاوائل. ولان هذه البلاد هي اول عميلة بترولية للعراق فقد اتخذت موقفا يتسم بالاعتدال وقد رأى (ملا مصطفى البارزاني) ان يوجه رسالة جديدة للجنرال (ديغول) ومما جاء فيها. انه (أي ديغول) أمد بعونه شعوب افريقيا في حين لم تكن حقوقهم القومية أبعد تاريخيا من حقوقنا. واني لست اجرؤ على التصور بان الجنرال لايهتم بأمرنا وإلاّ كان ذلك مخالفا للتقاليد الفرنسية ومجانبا لخطها السياسي «المتحرر». وقد خطر بباله للحظة ان يعهد برسالته هذه اليّ لأقوم بتقديمها الى رئيس جمهوريتنا شخصيا. وليس من شك في ان انتصار (رواندوز) بنتائجه المثيرة كان داخلا ضمن مشروعه هذا. ولكن مامر شهران على هذا حتى كان الجنرال (ديغول) يستقبل (عدنان الباججي)وزير الخارجية العراقي في قصر (الاليزيه). اتراه نقل الى الوزير خلال حديثه رغبة فرنسا في ان تقوم بدور الوسيط لانهاء الحرب مع الكرد؟

في ليلة تصاعد ألسنة النار من بئر نفط (كركوك) راح احد افراد البيشمركه في قمة الجبل يداعب اوتار آلة طرب تشبه الماندولين و تدعى هناك (آزات)[١٣] وكان يغني لحنا يتألف من اصوات غريبة عن ذوقي انها ساعة الراحة في الليل حيث يتسنى لكردستان ان تخلد الى الهدوء وتستجم. كان هذا المقاتل يغني ملاحم الحب والعشق بترجيع حزين ذي قرار ماهل. وتلا الغناء رقص ايقاعي (ديلان) يلتصق فيه الكتف بالكتف. احيانا تفسح الحرب المجال لحلم سريع خاطف يمر في هارمونية من ضجة الحرب. كان عازف المندولين يدعى (اكرم) وهو شاب وقور الوجه باسم الثغر ذو شاربين رفيعين ينتهيان بما يشبه علامة استفهام مثل شارب (كلارك كيبل)[١٤] ينهض فجأة فيدق الارض بقدمه ويفرط حبات نغمات جيدة التقطيع. دندنة ثقيلة بطيئة وغمغمة تذكر المرء بأغاني سفاني الفولكا:

ليس احلى من الموت في سبيلك يا كردستان.
ان يكون المرء في وطنه. وان ينشد باعتزاز باللغة الكردية.
في نار لهب سلاحنا اننا نحتفل بمجد شعبنا الالفي العريق وارضنا المحبوبة.
ان يكون الانسان حراً. وان يحبّ وان يؤمن وان يموت فيها.
سل هذا النبع فسيقول لك من خلال خريره.
هناك الف آهة. والف دمعة. والف ثورة. والف امل.

---

١٣ ـ ان الآلة الوطنية الشائعة من الجنس الوتري هي الطنبار او الطنبور ولاندري من اين جاء المؤلف بهذا الوصف ولعله سأل عن اسمها فتوهم المسؤول انه يسأل عن اسم القصيدة فقال انها «اواز» وهو نوع من الغناء أو (آزاد = الحرية) فاختلط عليه الامر. (المترجم)

١٤ ـ ممثل سينمائي امريكي معروف.

الكردي يعشق الغناء والرقص. وهو (طروبا) بالسليقة والطبع. تراه يتغنى بالحب وبالطبيعة وبالفصول ويتغنى بالحرب والقتال كذلك. لانه يرى ان الدنيا لاتكون الا لذوي البسالة والاقدام.

ان اولئك الذين لايحفلون بها ويستصغرون شأنها هم اناس مستوحشون برابرة. في الواقع ان الكردي يملك قدرا كبيرا من الرقة والظرف وخفة الروح. تراه يهدهد نفسه ويعللها بالاحلام. ان حباحباً يمر فيرسم بقفزاته الخاطفة المنظر الذي يخيل لك معه ان النار تندلع في احشاء الغابة. والسماء المرصعة بالنجوم تتشبع من ناحية الغرب بهالات من النار في الصباح فيقال انه ولد فجر جديد من ليل كردستان وهو قول صادق هنا بقدر ماكان صادقا قولنا عن ميلاد يوم جديد من ايام القارة الاوروبية. وذكر لي (سامي) ان النجوم في عرفهم هي عيون فتيات العالم المكحولة... كنت أريد ان اسأل: كيف يسع هؤلاء العاطفيين ان يتحولوا في ميدان القتال الى مردة من اشرس المقاتلين واغلظهم فؤاداً؟ لقد ادركوا من كثرة تعرضهم على مرور الاجيال للمطاردة والاضطهاد بان الحق هو دائما بجانب الاقوى، ويؤكد ذلك احد امثالهم:

(الدنياهي هي منذ الازل. الذئب يفترس الشاة)وهم بعد الان يأنفون ان يكونوا كالشاة .

الفصل السادس

أبناء نينوى

(دو بهه ف برايي راستبن يي سيي خودايه)
عندما يتبادل صديقان اخلاصا باخلاص فالله يكون ثالثهم
(مثل كردي)

سأعمد هنا الى القاء بعض الضوء على الملامح التي تميز (الكلدان) الكاثوليك المرتبطين بروما (يبلغ عددهم مائة وخمسين ألفا)[1] عن (الاثوريين) المسيحيين المعروفين بالنساطرة (وعددهم خمسون الفا) الذين تخضع غالبيتهم لرئيس روحي وزمني في الوقت نفسه هو البطريرك(مارشمعون) هؤلاء في الواقع، الاحفاد الباقون من ذلك الشعب ذي التاريخ المجيد الموثل وفتوحاته العظمى على حد قول (هيرودتس)[2] تمكن من المحافظة على لغته وطموحه القومي وخصائصه الاجتماعية وعلى دينه المسيحي كذلك رغم الاضطهادات المتواصلة وعاديات الدهر التي تكالبت عليه بتعاقب الأجيال وقد كتب الأب (جان فييه) الاستاذ في كلية اللاهوت العليا في الموصل في مجلة (الشرق السرياني l'orient syrien ج٢. ص (١٤١) مايلي:

ايمكننا القول بان هؤلاء الناس الذين اصُطلح على تسميتهم بالآثوريين. هم وحدهم السلالة الصحيحة التي انحدرت رأساً من الاشوريين الاقدمين، انسحبوا الى جبال حكاري بعد انهيار امبراطوريتهم في العام ٦١٢ق.م هذا ما يعتقدون به انفسهم اليوم. فبيوتهم تزدان بصورة الملكة (سميراميس)[3] وهي راكبة عجلتها الحربية. وبطاقات التهاني بعيد الميلاد تتحلى دائما بصورة (آشوربانيبال) وهو يدفن مزراقه في احشاء

١- يزيد عدد السريان والكلدان الكاثوليك في سائر العراق عن نصف مليون ويسكن أكثر من ثلاثمائة وخمسين الف كلداني في العاصمة بغداد وحدها حسب سجلات الكنائس هناك. اما الآثوريون النساطرة فهناك أكثر من مائة وخمسين الفاً (المترجم).

٢- عاش في ٤٨٤ - ٤٢٥ ق.م وهو مؤرخ ورحالة يوناني يعتبر ابا التاريخ، زار العالم كله وبضمنه بلاد مابين النهرين ودّون ذكرياته ويكاد كتابه يكون المصدر المفصل الوحيد عن تلك البلاد آنذاك (المترجم).

٣- انتقلت الملكة سميراميس الاشورية او (شموّراما) من مرحلة الاسطورة الى التاريخ عندما اكتشف اسمها بين ثبت الملوك الاشوريين الذي عثر عليه المنقبون في اطلال العاصمة (أشور) التي تقع على دجلة بالقرب من قصبة شرقاط الحالية (١٤٠ جنوب الموصل) (المترجم).

الاسد، وهم يطلقون على ابنائهم اسماء سرجون وسنحاريب[٤].

وقد استنتج في نهاية دراسة مستفيضة قوية الحجة:

«ان الاثوريين المساكين فقدوا على مر الزمن الكثير من الاشياء الى الحد الذي صار اسمهم نفسه موضع جدال واخذ ورد» (ص ١٦٠ المصدر نفسه).وذكر الاب (فييه) في العام ١٩٦٤ (ج٤. ص ٤٧٠) بخصوصهم مايلي:

ومهما يكن من امر فقد يكونون عنصراً قوميا نقيا لاشائبة فيه. وقد يكونون متزاوجين بيهودالسبي (دياسبورا) وبالاراميين المضطهدين وبالكرد المهتدين الى المسيحية واخيرا بالارمن. وعند اول احتكاكنا بهؤلاء الـ (ناشد طوره ـ اهل الجبال) نجد فيهم تلك السجايا والصفات التي عرفناها عنهم في الازمان الغابرة الى الحد الذي تُستذكر معه قولة والي الموصل العثماني في العام ١٨٣٩ (هؤلاء الكفار سكان الجبال لايعترفون لا بباشا ولابسلطان. فكل فرد منهم سلطان نفسه).

ان آثوري اليوم متضامن مع الكردي المسلم الذي كان فيما مضى يناصبه العداء وينازله في سوح التناحر الاقطاعي او في معارك (الجهاد ـ الحرب الدينية) حتى اصبح يكن له اعجابا لاتحفظ فيه. والواقع ان الكردي الذي لايخضع لأحد لايعترف بغير الاثوري قريعاً له في ساحة القتال وندا. وفي كردستان العراق اصبح دين الوطنية يتقدم دين الهلال ودين الصليب.

ويجمع المسيحيون الذين يتمركزون في شمال العراق الغربي من عقرة حتى زاخو مرورا بدهوك حتى القوش. على الاشادة والتمجيد ببطل حرب شبه اسطوري لم يعد من ابناء هذا العالم مع الاسف هو هرمز[٥] الذي تجد صورته الشمسية بالزي الآثوري

٤ـ اني اختلف في الجوهر مع الصديق الاب فييه pere J.M.Fiey في نظراته حول اصول الاثوريين والكلدان ففضلا عن الغموض التاريخي الكثيف الذي اكتنف نشاط هذا المجتمع الطائفي منذ سقوط نينوى حتى مطلع القرن التاسع عشر الميلادي هناك الابحاث الانثروبولوجية التي اجراها الاستاذ (هنري فليدنگ) ونشرها في كتابه (انثروبولوجية العراق. اقليم كردستان) في العام ١٩٥٢ بمجلدين طبع جامعة هارفرد. الولايات المتحدة عنوانه: the Anthropology of Iraq: the Northern jazira & kurdistan وهو ثمرة دراسة انثروبولوجية للمعهد الخاص التابع لجامعة هارفرد بوفد علمي قام بابحاثه في المنطقة نفسها ويستفاد من تلك الدراسة التي ترجمناها واعددناها للنشر ـ وبنتيجة فحص واخذ مقاسات مئات من الاثوريين تبين ان الصفات الجسمية والعرقية لهم هي عين الصفات التي لوحظت عند الكرد الباقين اذ تم ردهم الى فصائل (الارمنويد والالپنويد وشبه الاناضول Armenoid, Alpinoid, Eur Anato-lian types وهكذا تزيد المشكلة تعقيدا. وقد كنت اناقش الاب (فييه) على وجهة نظره هذه كلما جرنا الحديث اليها وفي اخر مرة لقيته وكان ذلك في بيروت وقد طرد من بغداد بعد ثلاثين سنة من الاقامة بوصفه شخصا غير مرغوب فيه، تبادلنا طرفا من الحديث في هذه النقطة بالذات وبعدها ببضعة ايام فقط لقيت في لبنان عين المعاملة التي لقيتها في العراق وليس في مفاجآت الحياة وصروفها الا ماهو عجيب (المترجم).

٥ـ ابن مالك (چكو) احد زعماء قبيلة التياري الاثورية (المترجم).

التقليدي المزركش و(الكلاو)[٦] ذي الريشة معلقة على جدران المنازل الى جانب صورة (ملا مصطفى البارزاني). كما تجد ذلك في الصورة التي نقلناها. ماانفك (هرمز) منذ بدء الحرب ينتزع النصر تلو النصر ويحقق المأثرة تلو المأثرة. فقد احتل في الشتاء الماضي (دير الربان هرمز) الواقع على سفح الجبل الصخري المشرف على (القوش). ويحتوي على اربعمائة قلاية (مَنْسَك) منقورة في الصخر الاصم. وبهذا تمت له السيطرة على البلدة نفسها التي تحتل الوادي. ولم يعد في وسع القوات النظامية الاقتراب من هذه القلعة المنيعة التي يكسوها الثلج. فمهد عمله هذا لانتصارات مضايق زاخو وجبل (متينه). الا ان شجاعته تحولت الى مجازفة وتهور فلقي حتفه في ١٩٦٤وهو يهاجم بالقنابل اليدوية رتلا آليا من الجيش السوري في جنوب (دهوك) وقد كان حزن (ملا مصطفى البارزاني) عليه عميقا. فتولى (طليا شمعون)[٧] احد ابناء عمومته القيادة بعده. كما خلفه في مجلس قيادة الثورة الاعلى. الذي يحتل فيه المطران (مار يوالاها)[٨] مقعدا. وكان يعمل مع (هرمز) مساعد له (توما توماس) الذي كان كل يوم يمر عليه يدنيه من الأسطورة ويدخله في عداد الابطال المغاوير. فامام خيال (هرمز) لم يكن يحجم عن الاتيان باي شيء ودفع بغاراته غربا حتى مدينة الموصل نفسها. لم يعد الان بعد محل لتلك الوطنية الممزوجة بالدين التي كانت طابع الثورات السالفة. ويقول (ملا مصطفى البارزاني):

ـ المسيحيون والمسلمون تعاهدوا على بذل دمائهم بمحض اختيارهم، تأدية لواجبهم الواحد ولاجل انتزاع حقوقهم السليبة.

الى زمن جدا قريب كانت فتاة في مقتبل العمر لاتزيد عن الخامسة والعشرين تدعى (مارگريت جورج) عُرفت في الخارج بـ(جان دارك كردستان) واشتهرت بمثل ماشتهرت البطلة الفرنسية. انها لتنهض مثالا لأغرب ملامح هذه الحروب الصليبية. وتمثلها الصورة المتداولة لها، معتمرة بعمامة كردية وبندقيتها معلقة بكتفها وبحزام رصاص يحيط خصرها. عيناها سوداوين وشعرها طويل مسترسل ينسدل حتى كتفيها وفمها وسيع شهواني. إن آثوريي الخارج الذين لايفتأون يستعيدون في أحلامهم الامجاد الماضية يقرنون صورتها بنشيدهم الوطني (نينوى):

الا دعيني اسند جسمي الى صدرك
آه يانينوى، ياملكة كل البلاد،
ياأيتها الارض الملتهبة، قصي علَّي التاريخ
قصة طريق المجد الذي سلكته
نادي كل ابنائك بـ ياابنائي
عندما تبعث نينوى العريقة مرة ثانية.

٦ـ قبعة من اللباد (الصوف المضغوط) مدببة الرأس يوضع في جنبها الايسر ريشة وهو الجزء الوحيد من زيهم الذي يختلف عن زي بقية الكرد. (المترجم).

٧ـ قتل هذا المحارب ايضا في احدى المعارك في العام ١٩٦٧ (المترجم).

٨ـ توفي المطران يوالاها مطران العمادية على الاثوريين بالسكتة القلبية في اوائل العام ١٩٧٣. وهو مايزال في مقتبل العمر مأسوفاً عليه (المترجم).

اي شيء لايقال عن (مارگريت جورج) في بلاد أوروبا المسيحية؟ قالوا ان كل فرد من افراد البيشمرگه لايذهب الى المعركة مالم تكن معه صورتها فوق قلبه وقالوا انها رمز الامل في آلام سكان الاكواخ وقالوا مالاأدري. ولكن من المؤكد انها لم تكن محورا تدور الحرب حولها. كما ينبغي الا يفكر المرء ان (ملا مصطفى البارزاني) كان يعارض اندفاعها كما كان ملك فرنسا يحد من غلواء (جان دارك)[٩]. لم يمر زمن طويل على قيام صحيفة المانية بنشر مقابلة لمراسها مع (مارگريت جورج). في هذه المقابلة اطلقت الفتاة العنان لاحلامها و اوهامها. او على الاقل هذا ماادعت الصحيفة بانها نقلته عن لسانها فقالت: انها التحقت بصفوف البيشمرگه بعد أن قتل المرتزقة الزيباريون [١٠] أباها وهدموا بيت سكناهم. وان (ملا مصطفى) أوكل اليها مهمة تنظيم الخدمات الصحية. الا انه سمح لها قبل مباشرتها العمل بان تستقيل وتلتحق بالجبهة على رأس فوج (بتاليون) من البيشمرگه. وذكرت تلك الصحيفة ذلك ان حكومة بغداد وضعت لرأسها ثمنا غاليا يعادل الثمن الذي وضعته لرأس (ملا مصطفى البارزاني) عدو الدولة رقم واحد، وختمت الصحيفة مقابلتها هذا بالقول انها سلاح دعائي قلما امتلكت جيوش العالم مثله اسلاح دعائي ديني؟ قد يكون ذلك. ولكن اذا صلح احيانا لتزويق بعض الاساطير التاريخية المنمقة، فان النتائج قد لاتقل ضرراً عن الفوائد. ان مثل هذه الدعاية تزرع البلبلة وتخلق عاجلا ام اجلا تحت ستار الدين شيئا يتأرجح بين الحقيقة والخيال، وتنحدر بأعدل القضايا وأسماها الى مهاوي التشويه والتشكيك حتما.

سُحبت (مارگريت جورج) من الجبهة فعادت في العام ١٩٦٦ لتلازم بيت ابويها بالقرب من قرية (دوري) مع والدها (سطيفان جورج) وامها واختها وزوجها فـ (جان دارك كردستان) كانت ذات بعل في الواقع! ولم تسمح لي الظروف بزيارتها، ففي ذلك الوقت كانت تدور معركة (ڤردون الكردية) فتستأثر بكل اهتمامي. كما ان الوصول الى قريتها كان يقتضي تبديد عشرة أيام من وقتي في سفرة مرهقة على ظهر الحصان، اضف الى هذا انها كانت تشكو عارضا مرضيا معديا جعلها في حالة حجر صحي كما اكدوا لي. هذه

٩ـ جان دارك او جان هاشيت (والاخير هو لقب اسرتها) ١٤١٢ ـ ١٤٣١ فتاة ريفية فرنسية سمعت اصواتا تناديها اثناء رعيها غنم ابيها تأمرها بالذهاب الى ملك فرنسا (شارل السابع) وتسأله ان يأمرها على جيش تحارب به الانكليز الغزاة فتحقق طردهم من الارض الفرنسية وتتويجه رسميا. وبعد تردد وتمنع سمح لها بذلك فحققت انتصارات عجيبة ولقبت بالساحرة ثم دبر لها الاعداء كمينا فقبضوا عليها وقدموها الى محكمة دينية ارادت منها ان تعترف بان الاصوات التي سمعتها هي من الشيطان لا من الرحمن فأبت رغم التعذيب فاحرقوها حية في مدينة (روان) الفرنسية. وبعد بضع سنوات ابطل القرار الذي اعتبرها ساحرة الى قرار معاكس فاعلنت قداستها. وهنا نقف لنترك مقارنات المؤلف في هذا الموضوع الى فطانة القارىء. (المترجم)

١٠ـ الزيباريون هم افراد قبيلة الزيبار الكبيرة التي تنتشر قراها ومساكنها فيما وراء الزاب وتعتبر القبيلة البارزانية بطنا قديما من بطونها وكان معظم رجال تلك القبيلة قد أُجّروا خدماتهم لحكومة بغداد في حرب التحرير الكردية، مدفوعين بثارات قديمة وخوفاً على مصالح زعمائهم. (المترجم).

الظروف التي حالت بيني وبين مقابلة «البطلة الوطنية» حفزتني في الوقت نفسه على استكناه سر هذا اللغز البشري الذي بدا شيئا عاديا بسيطا من وجهة النظر التي اتخذها مسؤولو الثورة الكردية العقلاء جداً ازاء القضية برمتها. واليك ماقاله الاب بيدار في هذا الصدد:

ـ نحن نفضل ان يسير خبرها كما تسير الاسطورة.

وقال الدكتور حكمت وهو مسيحي ايضا (وكان يقوم على علاجها).

ـ انها تشكو من نوع البهق المعدي.

وأكد لي كلاهما ان هناك حقائق واكاذيب فيما روي من سيرتها.

تنتمي (مارگريت جورج) الى قبيلة (جيلو) التي كانت تسكن جبال حكاري المعقل المنيع للاثوريين وهي البنت الكبرى لاسرتها متينة الجسم، مندفعة شجاعة، او كما يصفها رفاقها في السلاح ولد في زي امرأة. التحقت في صفوف البيشمرگه في العام ١٩٦١ واندفعت بتلك الروح السخية التي تميز بها كل المسيحيين المحيطين بـ (ملا مصطفى البارزاني). ولم تكن المسألة مسألة ثأر من قتلة أبيها كما كتبوا عنها فأبوها حي يرزق. لكن بعضهم يزعم انها ماالتحقت بصفوف الثورة الا تخلصا من العيش مع زوجها الذي لم تكن تهتم به او تشعر بعاطفة ود له ومهما يكن من أمر، فانها سرعان ماسفرت عن وجه مقاتل ممتاز يتحلى بكثير من الجرأة والاقدام والتهور، من غير ان تتقلد اية قيادة مهما كانت ثانوية.ان بسالتها وبراعتها حققت عجائب نسبة الى بنات جنسها اذ كانت تتطوع دوما للقيام بأخطر المهام. ورصاصتها لاتخطىء جاشها ولاجنديها. وهي كذلك لم تكن تستجدي المديح ولاتساوم في انتزاع الاعجاب كما حافظت على سمعة متينة مفتحة الاعين.

ولكن الأخلاص في بلاد الكرد لايتسامح قط بخصوص الحط من قيمة الفضيلة. وفي مجتمع كهذا متزمت منطو على نفسه الى حد مابهيمنة الروح الدينية عليه، سرعان مايجد التزمت والطهر نفسيهما موضع هجوم وتشكيك. ويظهر انه لوحظ على (ماركريت جورج) بعض نزق وعبث في اثناء اطلاق العنان لطبيعتها الوثابة واندفاعها القتالي. وقد تضافرت الادلة على ذلك، حتى ان (الاب بيدار) نفسه لايسعه الان يتنهد باستسلام ويقول معلقا على هذا:

ـ في الجبال وجدت نفسها وحيدة ليلا نهاراً بصحبة الرجال. ولم يكن هذا لائقا لا بنا نحن المسيحيين ولا بالمسلمين.

وهكذا تخللت مآثرهاالعسكرية بعض مغامرات عاطفية وانصب عليها اغلب اللوم لاغوائها احد اغنياء المسيحيين في السليمانية ويدعى (موسى)[١١] وهو أب وزوج، فأثارت ضجة استنكار عظيمة، وأنا اميل الى الاعتقاد ان هذا الخبر يؤلف جزء من الاسطورة

١١ـ سواء في الامر أكانت هذه الرواية صحيحة ام لا فمن الواجب ان نذكر ان زوجها كان يحمل نفس هذا الاسم (موسى خمو) (المترجم)

المنسوجة لااثر له من الصحة. وارى لزاما علي ان اقرر ان قضاة (جان دارك كردستان) كانوا في اكثر الاحيان يفقدون شعور الاتزان اثناء الحكم على الرديء والجيد. ويبدو مما سمعت وأكد لي ان اباها كان يشجعها على هذه الانحرافات الخلقية. فضلا عن ادعاءاتها كانت تزيد من سمعتها سوءً. وفي العام ١٩٦٥ جاءت الى (رانية) ممسكة بزمام امجادها العسكرية وتقدمت الى اجتماع للمكتب التنفيذي تحيط بها هالة من العظمة وطلبت لنفسها، ببعض جفاء وغطرسة مقعدا في اعلى هيئة ادارة للثورة مضخمة دورها. ومعتمدة على شهرتها في الخارج، كما طلبت لابيها العضوية في المجلس الاعلى لقيادة الثورة. وهنا يأتي دور الاب (بيدار) فيدخل المرسح ويقول:

ـ عند اخذ رأيي بوصفي ممثلا للمسيحيين وباعتباري مرشدها الروحي. أجبتُ من فوري انه لايمكن حشر موضوع الدين في مثل هذه الظروف وانما تؤخذ بعين الاعتبار متطلبات الثورة فحسب. وقلت اني على كل متبع رأي الاكثرية ورفض المكتب السياسي بالاجماع طلب (مارگريت) فما كان منها إلاّ والقت أرضا ببندقيتها ومسدسها وحزام رصاصها. ثم خرجت برفقة ابيها دون ان تنطق بكلمة واحدة. واعلم (ملا مصطفى البارزاني) بالموضوع فأمر بحجزها ببيتها ومنعها من الخروج الى الجبهة... لقد غيرها سلوكها المنطلق فأصيب بجنون العظمة الامر الذي طوح بها بعيدا وجرفها. الا ان اباها يتحمل القسط الاعظم من المسؤولية. ونحن مع هذا لانستطيع الحط من قدر شجاعتها. والحق يقال ان اسطورتها خدمتنا في الخارج.

ربما كان علي ان أتهم فكرة دع الاسطورة تنتشر والدفع بها الى امام، أعني اسطورة هذه الفتاة غير العادية. اما وقد وقع المحذور ولات حين مناص فمن الأفضل ازالة كل الاحتمالات والاسباب الكفيلة بقلب تاريخها الى اسطورة دينية مثلما آلت اليه قصة (جان هاشيت) اي (جان دارك). فاحتفاظها بمزاياها الحقيقية لايسلبها شهرتها ولايحط من قدرها بل يرفعها الى اكثر من درجة القداسة باقتراب تلك الانسانة الخاطئة من الحالة البشرية الاعتيادية ودخولها عالم المعقول والادراك الحسي ضمن اطار الاعجاب والحب. ان (مارگريت جورج) المحاربة التي لاتعرف الخوف ولم تكن معصومة من الخطيئة، أحبت وطنهاوانشغلت بأمره وفي هذا الكفاية، جان الحبيسة!. ياله عنواناً لمأساة درامية!

ان مسيحيي كردستان لم ينحرفوا قيد انملة عن خط نضالهم المسلح، على أن البعيدين منهم عن جبهة القتال اظهروا بعض التبرم والحنق لما جرى لها، غير أن تبرمهم هذا لم يؤد الى مشكلة لانهم ليسوا من رجال المعركة.

ان موطن الأثوريين الاصلي هو بلاد مابين النهرين (ميزوبوتاميا). وقد استجابوا بسرعة للدعوة المسيحية وسارعوا الى اقتبالها دينا. تلك العقيدة التي مرت في حينه ببلاد الاغريق والرومان والبرثيين مرور الريح فلم تخلف اثرا يذكر. وهم مازالوا محتفظين بالنسخة الوحيدة الكاملة من التواراة في قرية (كوسي) [١٢] حيث يحلفون بها. ولم يطل

١٢ـ لعله يقصد (كوندي كوسي) في منطقة (زاخو) (المترجم).

بهم الزمن حتى اقاموا صرح كنيسة مستقلة عرفت باسم «الكنيسة الشرقية» التي ظلت منفصلة عن سائر العالم المسيحي وهدفا لشتى انواع الاضطهاد. وفي القرن الخامس تبنت عقيدة (نسطوريوس) بطريرك القسطنطينية[١٣] التي تقول بطبيعتين الهية وانسية ليسوع المسيح وانكروا على مريم العذراء ان تسمى (بأم الله) لانهم يعدونها اماً للمسيح فحسب. وبهذا تحقق لكنيستهم انفصالها التام عن روما. وهم بحسب تعريف الاب (روندو)[١٤] في كتابه «مسيحيو المشرق» :

طائفة خاصة قومية قدر ماهي دينية ، تمسكت بدينها المسيحي وصمدت امام صروف الاحداث السياسية المتعاقبة. انتشر الرهبان النساطرة في رقعة واسعة ونفذوا في اعماق اسيا حتى بلغوا الصين وجزر السند. ومما يذكر لهم في هذا الصدد هداية عدد كبير من خانات المغول الى المسيحية حتى ان احدهم وهو (هولاكو)[١٥] فاتح بغداد في العام ١٢٥٨ بدأ حملة مقدسة، وفاجأ العالم الاسلامي من الخلف الا انه فشل في توطيد اقدام الانتصار الصليبي [١٦]. لأن تلـك الحملات لم تتجاوب مع هذا (الجهاد الصليبي المغولي!) أو تعترف به، فتركت المماليك يَهزمون (هولاكو) في موقعة (الجليل). وكان لهذه الهزيمة آثارها المعروفة. فقد صعد نجم النفوذ الاسلامي وتألق وتعرضت الطائفة الآثورية الى الاضطهاد والقتل والملاحقة والابادة العشوائية حتى ألجئوا الى الانزواء في اعماق المدن والقرى ليجر عليهم النسيان ذيولا. الا ان نواة كبيرة هامة تميزت بصلابة العود والحيوية تتألف من حوالي مائة الف من المقاومة نزحت عن البلاد وتقوقعت في جبال حكاري المنيعة الصعبة الاقتحام جنوب بحيرة (وان) فالتقت هناك ثانية باخوانها في الدين الذين كانوا قد نزحوا منذ عهد النصرانية الاولى. وفي شواهق جبال (جيلو) وبواطن وديان الزاب الكبير السحيقة انقسموا الى سبع قبائل لايعلم عدد كل منها. وكل قبيلة منها تخضع لـ (مالك). وتعايشوا متعاونين تعاونا وثيقا مع القبائل الكردية. وألف الفريقان مجتمعا من المسيحيين والمسلمين اثمر في الشرق اتحاداً شبه تام يفسر بصورة لايخالطها شك الظاهرة التي نراها اليوم في كردستان العراق. كان الامير الكردي الحكاري والبطريرك النسطوري شريكين في ممارسة الحكم ونشر لواء العدل وبلغت الثقة المتبادلة

١٣ـ او نسطور بطريرك القسطنطينية (٤٢٨ ـ ٤٣٠) حرمه المجمع المسكوني في افسس (٤٣١) لإصراره على هذه العقيدة (المترجم).

١٤ـ يعتقد انه الاسم المستعار للاب (توما بوا) كان يتخذه عندما يكتب في الناحية السياسية من القضية الكردية. انظر ماكتب عنه في هوامش الفصل الرابع (المترجم).

١٥ـ فاتح مغولي (١٢١٧ ـ ١٢٦٥) ومؤسس دولتهم في فارس هاجم المماليك المصريون معسكره في جنوب الشام وابادوه. ولاتذكر كتب التاريخ المعتمدة انه كان مسيحيا ولكنها تكاد تجمع بأن زوجته كانت كذلك وانها تمكنت بمجهودها من انقاذ المسيحيين في بغداد عندما استباحها عسكره. (المترجم).

١٦ـ صادفت حملته آخر حملة صليبية وجهت الى المشرق من اوروبا وهي الثامنة التي ختمت في العام ١٢٩١ (المترجم).

حداً كان المسلمون الكرد يستأمنون المسيحيين الذين تميزوا بالعفة والميل الى العزوبية بحكم وصايا دينهم، على حريمهم ونسائهم كلما اضطروا الى القيام برحلة بعيدة وكان كلا المُجْتمعين يملكان سلطانا ثابتا مستمدا من التابعية البنوية للأمير ومن اواصر القربى للبطريرك.

في قدمات جبال حكاري بدير ألقوش، اتحد فرد من افراد الخط البطريركي المتعاقب مع كنيسة روما في القرن السادس عشر ونشأت طائفة كاثوليكية جديدة اصطنع لها اسم (الكلدان) لتمييزها عن طائفة (الاشوريين)او الاثوريين النساطرة (١٧).

وبما ان جبال حكاري بقيت منعزلة مسدودة بوجه كل نفوذ فقد عاش هذا المجتمع الكردي الاثوري الصغير مجهولا من بقية العالم فقيرا لكنه قانع سعيد بحالته. وفي منتصف القرن الماضي قام الترك باخضاع تلك الامارة لحكمهم المباشر وشدوا قبضتهم على شؤونها الداخلية من جهة، كما حمل اليها الرحالة والمبشرون الافكار والنزعات الجديدة من جهة ثانية. فتهاوى صرح السلطة التقليدية وتحطم في دوامات التناحر الدموي. وفي العام ١٩١٥ وضعت القبائل الاثورية يدها في يد الحلفاء. فتركت ملجأها التاريخي العتيد ونزحت الى ايران للانضمام الى القوات الانكلو ـ روسية. وهكذا قدر لهم ان لايروا بلادهم ثانية رغم الوعد الرسمي بالاستقلال الذي قطعته لهم بريطانيا في العام ١٩١٧ اذ كانت تشير اليهم بعبارة أصغر حلفائنا. إن خروجهم هذا الذي يقوم بمثابة ملحمة من روائع الملاحم، تخللته معارك دموية متواصلة. ولقي البطريرك (مار شمعون) مصرعه غيلة بيد الزعيم الكردي الثائر (سمكو) وفتح موته صفحة من صفحات ازمات الحكم لأن منصبه آل بالوراثة الى صبي في الثالثة عشرة من عمره هو (مار شمعون ايشعياء الثالث والعشرون) الذي قدر له ان يحيا حياة قلقة معذبة بعيدة عن الاستقرار قبل ان يحط الرحال في شيكاغو بالولايات المتحدة، فكانت خاتمة مطافه وهناك حصل على الجنسية الاميريكية.

في مبدأ الامر رحب الانكليز في العراق بهم واستضافوا القسم الاكبر من هؤلاء النازحين عن بلادهم ووجهوهم بالدرجة الاولى لخدمة اغراضهم ضد الكرد بصورة خاصة. غير ان (لندن) نسيت الوعود التي قطعتها لهم. وظلت أقاليم حكاري في ضمن حدود البلاد التركية، وضمت بلاد مابين النهرين (الجزيرة) الى الدولة العراقية الجديدة ونشبت الاضطرابات التي لم يكن منها بد بعد ان وضع العراق تحت الانتداب البريطاني

١٧ـ حصل ذلك في العام ١٥٥٩ وفي مدينة (القوش) بالضبط. عندما اختلفت الطائفة في موضوع تعيين بطريرك جديد فاسرع البطريرك المختلف عليه (مار سولاقا اي النحيف) بمفاوضة روما واعلن خضوعه وخضوع القسم المنشق من الرعية الى الكرسي البابوي وكان معظمه من نساطرة الموصل ومن القرى والقصبات القريبة منها. وتحقق الانقسام نهائيا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر (بكونكورداتو) عقدت مع (الفاتيكان) احتفظت الكنيسة الكلدانية الجديدة بمعظم طقسها القديم وببعض التقاليد وقبلت من جانب آخر العقيدة الكاثوليكية برمتها والخضوع الروحي لسلطة البابا العليا. (المترجم)

وجعلت (بغداد) من مذابح الاثوريين شيئا اشبه بالحرب المقدسة (الجهاد) الفعلي. وهو مااشتهرت به تلك المذابح فثارت خواطر اوروبا لهذا العمل البربري المؤسف دون جدوى اذ وقفت اوروبا عاجزة مكتوفة اليدين وهو ماأدى الى هبوط سمعتها وساد مسيحيي الشرق اعتقاد جازم ذو حدين. لقد وجدوا انهم لايستطيعون ان يضعوا أي ثقة في اية حكومة غربية كما وجدوا انهم لايمكنهم الاعتماد على اي رابطة مسيحية. ويفسر رد الفعل هذا الى مدى كبير على ضوء النتائج التي استخلصوها من تعديل المعاهدة السورية ـ الفرنسية للعام ١٩٣٦ تلك المعاهدة التي طوحت بالسياسة الفرنسية في سوريا ولبنان الى طريق مسدود لامنفذ فيه.

بعد هذا الامتحان القاسي، لم يستطع الاثوريون ان يرفعوا رأسهم ثانية ويخرجوا سالمين كما خرجوا قبلا. فتفرقوا ايدي سبأ، وهاجر قسم كبير منهم الى ايران ولبنان وانكلترا والولايات المتحدة ، كما نزحوا الى فرنسا ليؤسسوا هناك جالية انتظمت تحت لواء الشخصية البارزة الكريمة (آغا بطرس). هذا البطل ذو الشجاعة والذكاء الخارقين، كان ابنا لاسرة فقيرة تسكن في ضواحي الموصل استقبله قيصر روسيا وبابا روما وكان واحد من اثمن احتياطي الحلفاء في اثناء الحرب العالمية الاولى. منحته فرنسا لقب فارس لوسام (جوقة الشرف). الا ان بريطانيا التي كان انكار الجميل من صفاتها الغلابة، مالبثت ان طردته من العراق بسبب مغالاته في حب فرنسا وولائه لها. ووصل (آغا بطرس) فرنسا ومعه اربعمائة اسرة موالية، استقرت اولاً في (مارسيليا وطولوز ويوردو) ثم تفرق معظمها لاسيما بعد وفاته في العام ١٩٣٢ (١٨) بعد اثني عشر عاما من وصوله. ولذلك نجد في فرنسا مستعمرة آثورية صغيرة غير معترف بها من العموم زادت عددا ونبه شأنها في العام ١٩٥٠ بانضمام المحاربين القدماء مع عائلاتهم اولئك الذين كانوا قد تطوعوا في جيشنا عندما غادرنا سوريا ولبنان. وفي خضّم هذه الاحداث بدا وكأن البطريرك النسطوري (مار شمعون ايشعياء الثالث والعشرين) قد فقد لأسباب مختلفة جانباً من مكانته عند شعبه المشتت. ولامه بعض ابناء طائفته وتلامذته بصورة خاصة للحياة الناعمة التي يحياها بفضل الهبات والحسنات التي كانت تجبى له من مواطنيه، وكذلك لموقفه المشوب بعدم الاكتراث منهم وهم يخوضون نضالهم المستمر في وطنهم الام. وقد وجدته في طهران عند ايابي من كردستان حيث كان قد وصل قبلي ببضعة ايام بعد غياب دام سنينا عدة، واستقبله الشاه في قصره رسمياً. يبلغ عدد الآثوريين في ايران ثمانين الفا معظمهم يسكن العاصمة. وهم مجدون مثابرون استغلوا ذكاءهم وحيوتهم في ميادين التجارة والنقل والمهن الحرة. والبطريرك (مار شمعون) رجل قصير القامة عريض الجسم بشوش الوجه ذو لحية خطها الشيب. وهو يعتبر عند اتباعه الموالين تجسيدا لدينهم

١٨ـ ان قصة هذا المغامر الافاق والعسكري اللامع والدبلوماسي السيء الحظ ونزاعه مع السلطات البريطانية في العراق تجدها في كتاب (ويكرام) الذي ترجمناه الى العربية بعنوان (مهد البشرية، الحياة في شرقي كردستان) طبع في بغداد ١٩٧٢ في دار العروبة العالمية للنشر والتوزيع (المترجم)

ووطنهم فهو البابا والملك في الوقت نفسه وهو بالنسبة الى آثوريي ايران المتعصبين في المسائل الوطنية الحساسين في موضوع الدين الذين يطالبون بمثلث الموصل (نينوى الغابرة) اعلى مركزا من (ملا مصطفى البارزاني) واعظم خطرا حتى بلغ الامر بهم ان تناسوا بان مصيرهم يتعلق بمصير الكرد تعلقا وثيقا. في كل حركات التحرر الوطني تختلف وجهة النظر الخارجية بين اولئك الذين يقاتلون في الداخل وبين اولئك الذين يبنون قصور البطولات في الخارج. ومن النادر ان تجد بين ابناء (سميراميس) المشتتين في اقطار العالم من يضع ثقة كبيرة بسلاح (ملا مصطفى البارزاني) قدر مايضعون من الثقة ببركات بطريركهم ودعواته. ومن هؤلاء النوادر واحد من اشد ممثليهم غيرة وحماسة في الخارج هو (ديمتري بطروس ايلوف) ابن (اغا بطروس) العتيد. فهذا يدعو الى التعاون المطلق مع الكرد من دون تحفظ او مماراة متفقا بذلك مع الاب (بيدار) الذي كان يقول لي ونحن في الجبال بين قصف المدافع وانفجار القنابل وليس في بار مكيف الهواء من بارات (طهران).

ـ الكل هنا يقاتلون ويتحملون العناء على حد سواء. وهذا هو جوهر السلوك الصحيح، نحن الكاثوليك نملك العدد ولانملك الوسائل. فالبابا نفسه يتجاهلنا. اما النساطرة فامكاناتهم في الخارج عظيمة. لكننا لانتوقع منهم شيئا، انهم ينبشون الماضي ويبكون على الاطلال ويجاهدون في احيائه وهذا عمل نبيل لاينتقضه اي آثوري، الا ان عيونهم لاترى الحاضر، ودونك الان فانظر كيف هم منقسمون على انفسهم حتى ان بعضهم لايعترف بسلطة البطريرك. انهم يعيشون في ظل الخصومات المذهبية وحساسيتها. انما الحقيقة الوحيدة تكمن في نضالنا الحالي فهي وحدها التي تصل بهم الى الاتحاد وهي القادرة على ارضاء الكل في الداخل والخارج. ان مسيحيي بلادنا. سواء من هم عرفوا بالكلدان او من تسموا بالآثوريين يعرفون هذه الحقيقة حق المعرفة. ولا اي مشكلة بهذا الخصوص، فهم اليوم لايحلمون بعد باقامة دولة مسيحية مستقلة لهم، بعد ان فات الاوان واحجمت الدول الاوروبية عن فرض ذلك عندما كان بوسعها. واليك واقع حالنا اليوم، أربع وثلاثون قرية مسيحية دمرت تدميرا تاما في الأيام القلائل المنصرمة. وطائفتنا الدينية تضطهد وتستأصل وتُصلى نارا وليس لدى الفاتيكان اية نية في مناشدة العالم المسيحي وبذل العون الذي نحن في امس الحاجة اليه، ولأذكر لك القول في (انجيل متى) الذي طالما كنت اردده «كنت جوعانا فلم تطعموني وكنت عطشانا ولم تسقوني. كنت غريبا فلم تؤوني ومريضا فلم تعودوني واسيرا فلم تزوروني..» هل تركنا الله اذن؟ كلا ابداً فنحن متحدون قلبا وقالبا كرداً مسلمين ومسيحيين ومثلنا الكردي السائر يقول «عندما يتبادل صديقان اخلاصا باخلاص فالله يكون ثالثهم».

والحق يقال ان الاهتمام بتحقيق النصر هو الذي يستحوذ على افكارهم ويملك نفوسهم. وقد لقيت واحدا منهم وهو في نوبة من نوبات الخفارة بالجبال. كان شديد الاعتزاز ببندقيته يدللها ويهدهدها كما يدلل ويهدهد حبيبة له وكانت أقسامها المعدنية واخمصها تسطع وتبرق باستمرار. وجدته على جانب من المعرفة والثقافة فقد اخذ يستذكر ماضي شعبه وقال: ان هذا الشعب ظل منذ ثلاثة آلاف سنة محافظا على لغته

محافظة تامة وهو حدث فريد من احداث التاريخ. وان هذه اللغة كانت أصل الابجدية الصوتية الفينيقية والسومرية والآرامية وغيرها من اللغات. واصر على القول ان شعبه وان كان مجزأ لكنه منتشر في زوايا المعمورة الاربع. واقتبس بفخر واعتزازا بعض الاسماء التي يلاحظ ورودها دائماًفي تراثهم الديني داريوس، نمرود، أوراهام (ابرهام)ايشو (يسوع)، يوسف (جوزيف)، شمعون (سيمون)... ثم ختم حديثه بالقول:

ـ ان الله انزل رسالته الى البشر بلغتنا ايضا. وعندنا (آدم) يعني الخبز و(حواء) تعني ام الحياة ورغم كل الاضطهادات والمذابح التي ابتلينا بها فقد حافظنا على عقيدتنا المسيحية. كما حافظنا في الوقت نفسه على مفاهيم معينة في الحرية. فالرُقُم التي عثر عليها المنقبون الاثريون، اثبتت نوعا من نظام ديمقراطي كان يسود نينوى. ولست اظن ان شعباً آخر كشعبنا ذا حضارة عريقة كحضارته قد تعرض لمثل ماتعرض له من ابادة متواصلة، فكان يبعث حيا مرة بعد مرة. وليس هذا بالامر البسيط. اما حاضرنا فهو شيء جديد مختلف. انه لايقوى على احياء ماضي شعبنا ومدنيته. لكنه يدفعنا الى اعادة التأمل والنظر في اساليب نضالنا.

هذا الاثوري الذي كان يدعى «فرنسه» أي (فرانسو) وضع في مخزن ببندقيته شاجورا ودفع برصاصة منه الى حجرة السبطانة. وعند قيامه نشرت ألسنة اللهب ظلال قامته فوق الصخور فبدا مهيبا ضخما. واستطرد يقول:

ـ ان الله وعد الشعب اليهودي في كتابه بجمع الشمل. كما انه بذل لنا عز وجل الوعد ذاته ولسوف ينجزه. لكن الله قال ايضا: في البدء يحتاج الى رجل كفوء ليأتي النصر على يده مع هذه القبضة وهذه البندقية. وانا اعتقد ان الساعة قد دنت.

صعد (فرنسه) المنحدر بخفة ونشاط طائر الدراج. وراح ظله يمور ويتلاشى في اعماق النجوم الطالعة، وهو يصعد بهدوء حتى نقطة الحراسة وعلى مسمع من العدو حتى غاب خياله عن ناظري. في وسعي ان اقدم شهادة رسمية بعدم وجود أي مشكلة للمسيحيين في كردستان. ان انبعاث قضية اخواننا في الدين واحياءها كان بفضل مشاركتهم القلبية التامة في النضال تحت امرة (ملا مصطفى البارزاني).

والدليل هو ان (بغداد) حاولت عدة مرات استخدام الدين اداة للتفرقة بين الاثوريين والكرد. ان التمجيد الحسن النية في الخارج بدور (مارگريت جورج) الذي ضُخم في الواقع الى درجة كبيرة، لم يعكر الجو ولم يخلق رد فعل سيء وقد تقدمت ببرهاني الى أثوريي (طهران) فأزحت الستار عن تصرفات «بطلتهم» فاخذتهم العزة بالأثم وانتابهم السخط ثم انشأوا يتكلمون عن الاضطهاد الديني «وعن التفرقة... ولكن سؤالا بسيطا واحدا كان يحسم كل نقاش طالما وضعته أمام كل الاوساط ذات العلاقة، كنت اقول:

ـ «لو ان (ملا مصطفى) اختفى أو انتابه مرض اقعده. أو قتل في معركة أو اغتيل، فمن سيحل محله؟».

يسرع معارضوه في الستراتيجية وفي المباديء وبعض «رجال المقاومة» في الخارج بالجواب «ان الثورة ستستمر بدونه» ويأتون الى ذكر اسماء بعض الشباب. لكن عندما

تحسب فرص النجاح وعندما يوضع الأمر على محك التماسك والالتحام الشعبي فانك تجد من بين اشدهم تحفظا وعلى مختلف الميول السياسية والانتماءات الدينية من لايقر بان (ملا مصطفى البارزاني) يمثل النضال الكردي ويمثل بصورة خاصة الكفاح الاثوري. انه اصبح رمزاً لا في كردستان وحدها بل في المحافل الدولية وفي الشرق الاوسط ايضا. لقد كان الرجل الكفوء الأوحد في بلاده رغم فرديته المفرطة، ورغم ان مفاهيمه الاجتماعية تميل قليلا الى اليمين. وربما عزي لهاتين الصفتين الفضل في تحقيق أقصى حد من النجاح في رص الصفوف وتوحيدها تحت قيادته التي لايماري فيها احد او يجادل. هناك (حبيب) السكرتير العام للمكتب التنفيذي والشخصية الرسمية الثالثة بعده عند الشعب الكردي. هذا الرجل اوضح المسألة بقوله: بدون (ملا مصطفى البارزاني) ماكان يستطاع تحقيق شيء ـ وهو بالتالي لايملك سعة أفق رئيسه ولاسمعته او شهرته لفرض تلك الوحدة ـ ولو اختفى (البارزاني) من مرسح الاحداث فقد ينشعب الحزب الديمقراطي الكردستاني وينقسم ربما بين (ابراهيم احمد) او (جلال) أو (حبيب). في الواقع ان الحرب الأهلية اندلعت فعلاً في العام ١٩٦٤ لتضع بغداد فيها أصبعها ولتصبح كردستان تحت رحمة حكمها. وبذلك الدمار والنهاية. كان (ادريس البارزاني) بالأساس هو صمام الأمان واداة الصيانة. إنه شاب حاد الذكاء أريب حصيف يتسع افقه للمفاهيم الحديثة اكثر مما يتسع لها افق ابيه انه سيكون المرجع في اعادة الامور الى نصابها ان وقعت الواقعة و«المحارب العجوز» يدرك ادراكا تاما الفراغ الذي سيخلفه تقاعده أو عجزه فكان يحاول جهده ان يضع في محله ابنه المفضل ويثبت فيه خلافته فينيط به أهم المسؤوليات واثقلها. اذكر منها ادارة العمليات في جبهة رواندوز، آملا ان يحرز (لأدريس) نفس الاحترام الذي يحظى هو به ونفس الرهبة والمهابة التي يحيطه الناس بها والاحترام الذي يرمقه به زعماء القوم.. وفي وجه المستقبل المجهول يتفق الكرد والاثوريون على طلب من الله واحد من عدة طلبات، وهو ان يحفظ لهم (البارزاني) ويمتعه بعمر مديد.

وبطبيعة الحال هناك ايضا (الشيخ احمد) الاخ الاكبر لملا مصطفى. شيخ بارزان والزعيم الديني المطاع في كل بلاد بهدينان. وهنا يؤكدون انه لو أمر عشرة من البيشمرگه بالوثوب الى النار فسيفعلون ذلك في الحال و من دون اي تردد [١٩]. دخل حلبة النضال الوطني قبل خمسة وثلاثين عاما. الا ان سنه المتقدمة اليوم (اناف على الثمانين) جعله الان فوق النقد. وقد ظل زمنا طويلا مستقرا في بارزان لايغادرها الّا الى بغداد.[٢٠] وقد وضعت الحكومة مؤخرا تحت تصرفه في اثناء القتال طائرة هليوكبتر لتنقلاته هذه وكانت السلطة تأمل من وراء هذه الرعاية أن يتمكن (الشيخ احمد) من جرّ (ملا مصطفى) الى

١٩ـ شريطة ان يكونوا من اتباعه (مريديه) في الطريقة (المترجم).

٢٠ـ كان الشيخ احمد الذي توفي في العام ١٩٦٩ يتردد الى بغداد للمعالجة. بعد الاتفاق الذي تم بينه وبين ا لسلطات الحكومية على عدم الاعتداء على حرمة المنطقة البارزانية مقابل بقائها على الحياد الا ان هذا الاتفاق كثيرا ماكانت تخرقة الطائرات العراقية. (المترجم)

صفه. لكن فألهم خاب فيما أملوا. لقد وجد البارزانيون من تجاربهم ان الضرورة تحتم عليهم وضع قدم في كل معسكر. وكان الشيخ الاكبر هذا لايخفي على احد وجهة نظره المتفقة وهذا الرأي ولطالما ردد القول: (اني لأفضل ان اضع ثقتي بكلب ولااضعها في هؤلاء) بعد هذا لزم الشيخ احمد (بارزان) ولم يبرحها وكانت المنطقة الوحيدة في كردستان التي لم تكتو بنار القصف الجوي. فبغداد لاتجرأ على المخاطرة بقتل الشيخ الديني لتصب نار الحمية الدينية على لهب النزاع السياسي الذي يتخذ الآن صفةً قومية فتزيده حدّة وضراما.

قال لي احد اعضاء المكتب التنفيذي شارحا لفظة (ملا) التي تؤلف المقطع الاول من اسم (البارزاني).

ـ ان لفظة (ملا) هنا لاتفيد المعنى المتعارف عليه عند المسلمين لرجل الدين، والتي تقابل لفظة (القسيس) عند المسيحيين. فلدى البارزانيين زهاء مائة من هؤلاء لكن تلك البيئة التي كانت الى زمن قريب جدا تفتقر الى الحد الادنى من التعليم والثقافة عمدت الى تمييز كل من يلم بالقراءة والكتابة بلقب (ملا). والشيخ (احمد) هو الزعيم الديني الأكبر والاوحد ويجب ان يذكر هنا ان كنية (البارزانيين) تجمع كثيرا من القبائل التي تتبع (الشيخ احمد) وتؤمن بطريقته. واما (ملا مصطفى البارزاني) فهو القائد العسكري. وبابسط عبارة هو المحارب المغامر الفذ، وبحسب التقاليد عندنا لايتمتع بامتياز حمل السلاح والقتال الا الاحرار والنبلاء اما طبقة العامة الذين يطلق عليهم اسم (الرعية) فينتظمون في شتى خدمات المجتمع. باستثناء عدد من الحرس الخاص الذين ترفع مكانتهم ليكونوا حرسا شخصيا لزعماء القوم وعندها يسمح لهم بحمل البندقية.

في الواقع ان الحرب طعمت هذه التقاليد بالروح الديمقراطية الا ان هناك حواجز دقيقة جدا مازالت راسبة في نفوس البيشمرگه.

سألت:

ـ هل يخلف (ملا مصطفى البارزاني) أخاه (الشيخ أحمد) في المشيخة والزعامة الروحية؟[٢١]

ـ المشيخة عندنا وراثية تنتقل من الاصول الى الفروع من الذكور. الا اذا وجد الابن الاكبر غير جدير او انه يفتقر الى المؤهلات الكافية. وعلى اية حال فهذه المشكلة لن تحصل عند وفاة (الشيخ احمد) فقد خرج (ملا مصطفى البارزاني) عن حدود البيئة القبلية. وهو اليوم زعيم الشعب الكردي قاطبة من غير منازع بل وهو تجسيد للشجاعة الحرية

٢١ـ يمتد نفوذ شيخ الطريقة البارزانية (وهي بالاصل نقشبندية) الى عموم القبائل الكردية التالية: هركي بنه جي، نزاري، دوله مه ري، مزوري، گه ردي، وتتبع اكثرية سكان عقرة طريقته ويدينون له بالولاء كذلك سكان (العمادية). وهناك عشرات من القرى المجاورة ضمن الحدود العراقية وفي كردستان تركيا وكلها تسلم بنفوذ الشيخ البارزاني بالاضافة لبعض المجتمعات والقرى في منطقة الزيبار. (المترجم)

وارادتها. انه يبلغ الخامسة والستين من العمر وزوج لثلاث نساء يتبعنه حتى مشارف الجبهة. وله من الاولاد ثلاثة عشر منهم ثمانية ذكور وخمس أناث وهم حسب تسلسل الاعمار (عبيد الله،لقمان، أدريس، مسعود، صابر، نهاد، دلشاد، سهاد) والاربعة الاخيرون صغار السن. والاثنان الاكبران لايشاركان في الكفاح المسلح وهما يقومان باعمال حرة في بارزان. وتقول حكومة بغداد بانهما على خلاف مع ابيهما، ومهما يكن من أمر فقد كان (للقمان) دور هام في الثورة العام ١٩٦١. فعندما اطلق (عبد الكريم قاسم) سراح (الشيخ احمد) لكبر سنه وتركه يعود الى بارزان، قبل (لقمان) ان يوضع في السجن بدلا من عمه بمثابة رهينة لكنه عاد الى كردستان في شباط ١٩٦٣ غداة القضاء على حكم (قاسم). واما (مسعود) فهو يشرف على تدريب البيشمركه وشؤونهم في مؤخرة الجبهة. وأدريس هو الوحيد الذي كان موجودا بالقرب من أبيه عندما كانت معركة رواندوز محتدمة.

يبلغ (ادريس) الثانية والعشرين من عمره. وهو نحيل قصير القامة ذو وجه ضاحك باش وفيه صبوة ويفاعة على شفته العليا رسم خطان رفيعان من شارب اسود دقيق، وكان يدير العمليات الحربية شخصيا ولاغرو، فقد حمل السلاح وهو في السابعة عشر عند بدء الثورة ولم يخلع عنه كسوة البيشمركه منذ ذلك الحين. والجميع يلهجون بذكائه وشجاعته ورجاحه عقله. ولاجل ان اكون قريبا من الامور الدقيقة والحساسة في تلك الظروف سآتي الى ايراد الوقائع التالية:

في حوالي منتصف شهر ايار، اخذ راديو بغداد يذيع دون شعور بالخجل البلاغات الطنانة عن انتصاراته في الساعة التي حلت بساحة الجيش العراقي اشنع هزيمة ذاقها طوال تاريخه. وفجأة قطع المذيع انباء تلك الانتصارات ليعلن بلهجة الظافر المتشفي عن مقتل (لقمان) البارزاني في الجبهة بفعل غارة جوية. وكان الخبر مدعاة تندر و تسلية عظيمة للكرد ولـ(ملا مصطفى البارزاني) بالدرجة الاولى. وبعد ايام قلائل وجدت نفسي في مقر قيادة (أدريس) داخل كهف ينفذ في احشاء الجبل على ضفة مجرى النهر في قرية (واره كون) مابين جبلي (زوزك) و(هندرين) مسرحيْ المعارك آنذاك. وكنا نتبادل الحديث في حين استمرت المدفعية والطائرات تمطرنا بوابل من قذائفها. ثبتنا في موضعنا جامدين لانأتي بحركة. ورحنا نتحدث من خلال دوي المدافع وانفلاق القنابل فحدثني (أدريس) عن زوجه وهي وارثة كردية من اهل اليسار في السليمانية[٢٢] وعن ابنته (ندى) التي تبلغ تسعة اشهر من العمر. وحدثني كذلك عن فرط تعلقه واعجابه بأبيه الكريم السمح تجاه أعدائه، الصارم الذي لايجد في قلبه رأفة على من يخون ثقته ويغدر به. ربما كان ذلك تعريضا بحمو (ملا مصطفى البارزاني) المدعو (محمود اغا الزيباري) احد رؤساء الجاش. اذ كان (ملا مصطفى) قد تزوج قبل سبع وعشرين سنة من (همايل) احد بنات

٢٢- هي ابنة حمه آغا (سليمانية) من وطنيي الكرد المعروفين وأحد موقعي بيان ١٩٣٠ الموجه الى عصبة الامم بخصوص الحقوق الكردية. (المترجم)

سيد الزيبار هذا[٢٣] لانه قصد شد اواصر المحبة بين القبيلتين. في ذلك الزمن كانت (همايل) في السادسة عشرة. الا ان النزاع بين الزيباريين والبارزانيين نشب ثانية في ذيول الصدام الحالي، ولم تكن هذه بأصغر دراما من درامات هذه الحرب الوحشية التي جعلت الفتاة اليافعة تختار احد المعسكرين وقررت (همايل) معسكرها فاعتبرت اباها خائنا وبقيت مصرة على ملازمة زوجها والانحياز الى جانب القضية الكردية.

عند حلول الظلام قرر (ادريس البارزاني) تغيير الملجأ. وفي حوالي الساعة الثانية بعد منتصف الليل بلغنا قمة شق جبلي حاد الجوانب غير بعيد عن الملجأ الذي يشغله (خضر) وهو ملازم سابق في الجيش العراقي وآمر مدفعية الثورة. وأقبل الينا وهو يعرج على قدمه اليسرى التي اصيبت بجرح عندما ارتطمت قنبلة مقذوفة بصخرة فطارت منها شظايا. وكان يدير معركته برجل عرجاء متوكئا على عصا. وما ان اهل الفجر، حتى اقبلت الطائرات تحوم فوقنا دون انقطاع الا انها لم تلمحنا. كان ثمة هدوء نسبي يسود الجبهة في ذلك اليوم لايتخلله الا الفرادى من قذائف مدفعية الميدان وبعض صليات من الرشاشات تنطلق بين آونة وأخرى. فيردد الجبل صداها. ونام (ادريس) حتى العاشرة صباحا ملتفا في لحاف فوقه دكة رفيعة تحميه، بلوطة خضراء نابتة من شق، صلحت وقاء له من أشعة الشمس وسترا من غائلة الطائرات، جلست بالقرب منه وانشغلت في ترتيب مذكراتي عن الرحلة. وكان الحرس في أعالي الجبل يتعقبون بخفة ورشاقة طيور القبج (السماني). العقيد (القاضي) يتمشى الهوينا على طول المضيق متفحصا الغنائم الحربية التي اخذت من الجيش العراقي في الايام السابقة وقد جمعت تحت الاشجار. وقام (ادريس والقاضي وفاخر) من ابطال معركة هندرين الفاصلة يُعِدون في اثناء تناولهم فطوراً مختصراً خطة الهجوم المعاكس لدفع الجيش العراقي عن سفوح جبل (زوزك).

وفي خلال ساعات مابعد الظهر بينما كنا تحت سقيفة مجدولة الاغصان، بدأت طائرات آليوشن والهاوكرهنتر بقصف لاهوادة فيه على الخطوط الخلفية للجبهة، وحومت اثناء دوراتها المهلكة فوق رؤوسنا مثنى وثلاثا كأنها تتحدانا وفجأة لم أر (أدريساً) إلّا وهو يتناول بندقيته. وبقفزة واحدة، كان خارج مخبئنا. خيل لي ان صبره نفذ او كاد. لـــيقدم على مغامرة يكون فيها فداء لشعبه بتصديه للطائرات المغيرة.فاسرع كل من (القاضي وفاخر) ولحقا به لمنعه من الاقدام على عمل فيه تهور لامسوغ له. الا ان (أدريسا) هدّأ من روعهما بسحبه هوائي راديو الترانز ستر الذي يحمله واصغائه الى نشرة الاخبار التي

٢٣- قبل قيام (ملا مصطفى) بانتفاضته المسلحة الوطنية في العام ١٩٤٥ وفي سبيل تعبئة طاقات الشعب الكردي سعى الى اصلاح ذات البين مع القبائل المجاورة وفي مقدمتها قبائل الزيبار التي يتزعمها (محمود آغا الزيباري) ووثق هذا الصلح بالمصاهرة جريا على عادة القبائل. مع هذا انقلب الزيباريون في آخر مرحلة من القتال على الحركة وانضموا الى القوات الحكومية فانكشف جناح الثوار الدفاعي في اخطر نقطة وفك الحصار عن القسم الاكبر من الجيش العراقي واضطر (ملا مصطفى) الى الانسحاب نحو الاراضي الايرانية مع اسرته وبذلك يكون زواجه منها قبل ٢٣ سنه وليس ٢٧ من تاريخ وضع المؤلف كتابه. (المترجم)

تذيعها بغداد. كان المذيع يتلو بيانا رسميا لناطق باسم الحكومة بلهجة من يزف البشرى بنصر عظيم. أعلن فيه عن مقتل «ادريس البارزاني القائد العام للمتمردين وابن ملا مصطفى البارزاني». ومرت لحظة الذهول الاولى ثم تزاحمنا نهنئه على قيامه وبعثه الى عالم الاحياء!!

عند عودتي الى فرنسا وجدت الصحافة العالمية قد طبلت وزمرت بهذه الانباء وعظمتها وضخمتها وخلقت الضجة الكبرى حولها، ثم اطلعت وانا حائر ذاهل على نبأ لوكالة الانباء الفرنسية صدر عن بغداد ايام وجودي في كردستان، نُشر بقضه وقضيضه في اكبر الصحف واكثرها رواجا وكان يتضمن بيانا صادرا عن رئاسة اركان الجيش العراقي يعلن فيه القضاء النهائي على الثورة الكردية واليك الفحوى منقولا عن الصفحة الخامسة من جريدة (لوموند ـ العدد المؤرخ في ٢٤ أيار ١٩٦٦).

«اننا نطلب منكم القاء اسلحتكم والاستسلام فورا الى وحدات جيشنا المظفر نهايتكم اصبحت قريبة ولاخلاص لكم من قبضة ارتالنا الزاحفة، ان جيشنا الباسل عقد العزم على ابادة البقية الباقية من الخونة ولا احد يستطيع ان يقف في وجه ارادة جيشنا العظيم وزحفه المقدس، ان كل مقاومة بعد الان لاتجديكم نفعا ومن الافضل لكم ايها المتمردون الاقزام ان تستسلموا نادمين قبل ان تبيد قواتنا كل من يجرؤ على اعتراض سبيل تقدمها المظفر».

ومضت جريدة (لوموند) تقول:

«.. كان راديو بغداد من الجهة الاخرى يزف التهاني الحارة للّواء الاول والثالث والرابع والخامس. ولفرسان (صلاح الدين) كذلك وهي وحدات كردية تقاتل الى جانب القوات النظامية بمناسبة (الانتصارات العظيمة) التي حققتها في قطاعات (زوزك وبيره وروانـدوز).

وذكرت الاذاعة ايضا ان السلطات الحكومية قررت ترفيع ضباط صف الوحدات التي ساهمت في هذه العملية رتبة واحدةً. كما ذكر الراديو ان الاهلين قدموا للضباط والجنود المرابطين في قطاع روانـدوز هدايا تتألف من نسخ من القرآن وخمسمائة جهاز راديو ترانزستر ومائتي ساعة يد».

خيل لي اني احلم!! فقد عشت أنا نفسي هذه المعارك الشهيرة وتنقلت في ميادينها عشرة ايام أو نحوها. تلك المعارك التي اختتمت بواحدة من أشنع الهزائم التي مُني بها جيش. كانت النسبة العددية عشرة الى واحد، وكانت بنادق الثوار وخناجرهم تواجه اسلحة واجهزة حربية من احدث طراز يساندها قصف شديد مستمر من مدفعية قوية وقوة جوية نشطة طوال الوقت. هؤلاء الاقزام «الاقزام المساكين» الكرد الذين خاضوا معركة الجبابرة، ابادوا في الواقع معظم الفرقتين العسكريتين اللتين جردتا عليهما وطاردوا فلولهما دون رحمة ولاهوادة حتى النقاط التي بدأتا منها هجومهما. ان هذا الزحف البطولي المزعوم سرعان ما انقلب الى انحدار فوضوي وجلاء عن ساحة قتال غطتها المئات

من جثث القتلى وملأت اديمها كميات كبيرة من الاسلحة. بالتأكيد، لايمكن ان يوجه اتهام أو لوم لا لوكالة الانباء الفرنسية ولا للصحف التي استمدت تلك الانباء منها على وثوقها باخبار كاذبة مزيفة ذات طابع غريب الى حدما. على اني وجدت انه يمكن في عصرنا هذا الوصول الى اقصى ارجاء المعمورة بادق الوسائل العلمية بهدف استغفال الرأي العام العالمي. ولم تكن بغداد تدري او تشك قط على مايظهر بوجود مراسل صحفي اجنبي صغير الشأن هناك لينهض فيما بعد شاهدا على تلك المواجهة الحربية الحاسمة التي تستحق تسميتها بـ (قردون) الكردية.